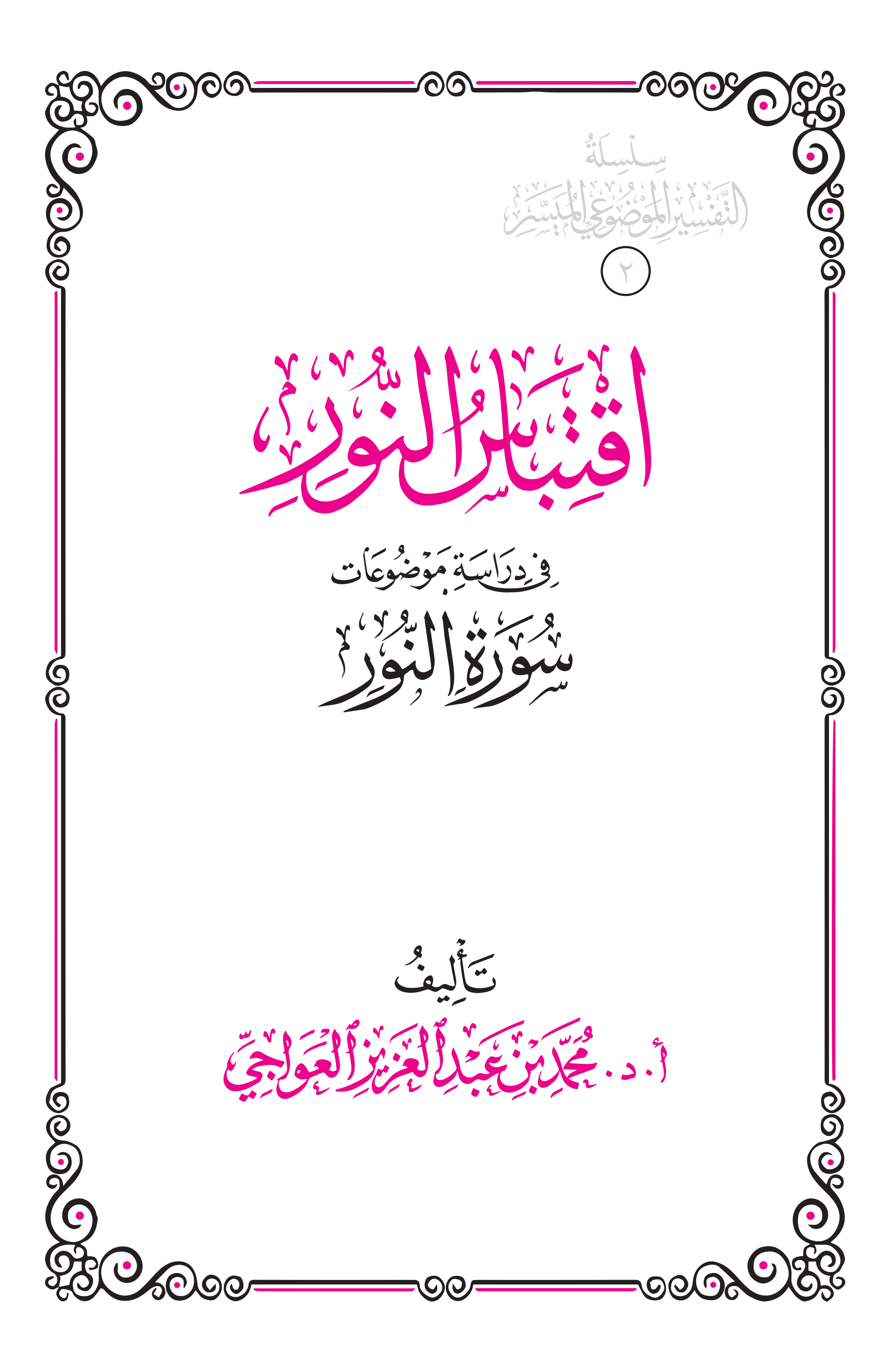


سلسلة التفسير الموضوعي الميسر

(٢)

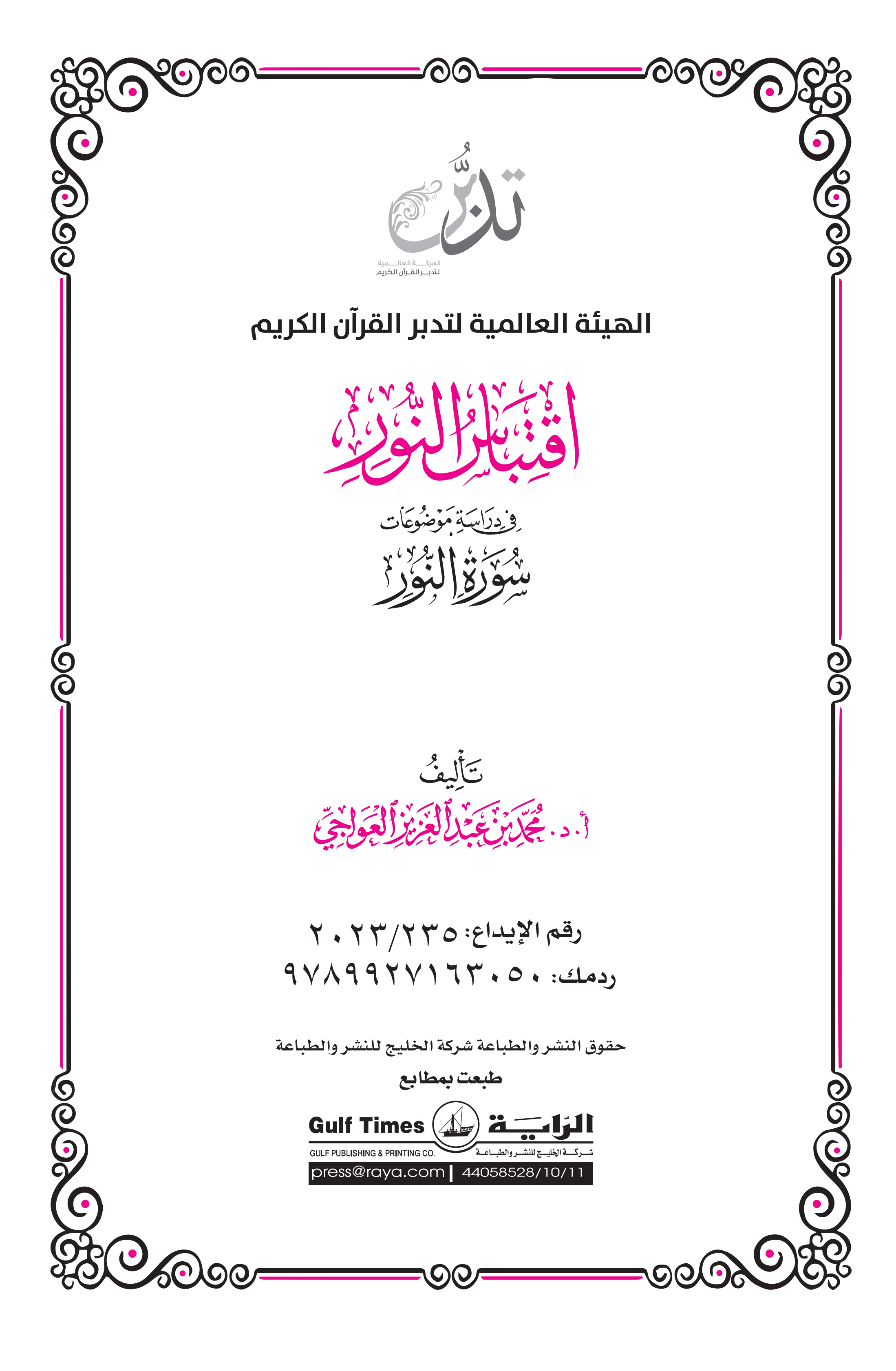
اقتباس النور

في دراسة موضوعات

سورة النور

تأليف

أ.د. محمد بن عبد العزيز العواجي



الهيئة العالمية لتدبر القرآن الكريم

اقتباس النور

في دراسة موضوعات

سورة النور

تأليف

أ.د. محمد بن عبد العزيز العواجي

رقم الإيداع: ٢٠٢٣/٢٣٥

ردمك: ٩٧٨٩٩٢٧١٦٣٠٥٠

حقوق النشر والطباعة شركة الخليج للنشر والطباعة

طبعت بمطابع

الراية Gulf Times

شركة الخليج للنشر والطباعة GULF PUBLISHING & PRINTING CO.

press@raya.com | 44058528/10/11



يتضمن المجموع البحوث المحكّمة التالية:

حفظ الأعراض ومقاصد الشريعة

دراسة موضوعية في آيات سورة النور

الآداب الاجتماعية الوقائية

دراسة موضوعية في آيات سورة النور

تذكرة وذكرى لأولي الألباب

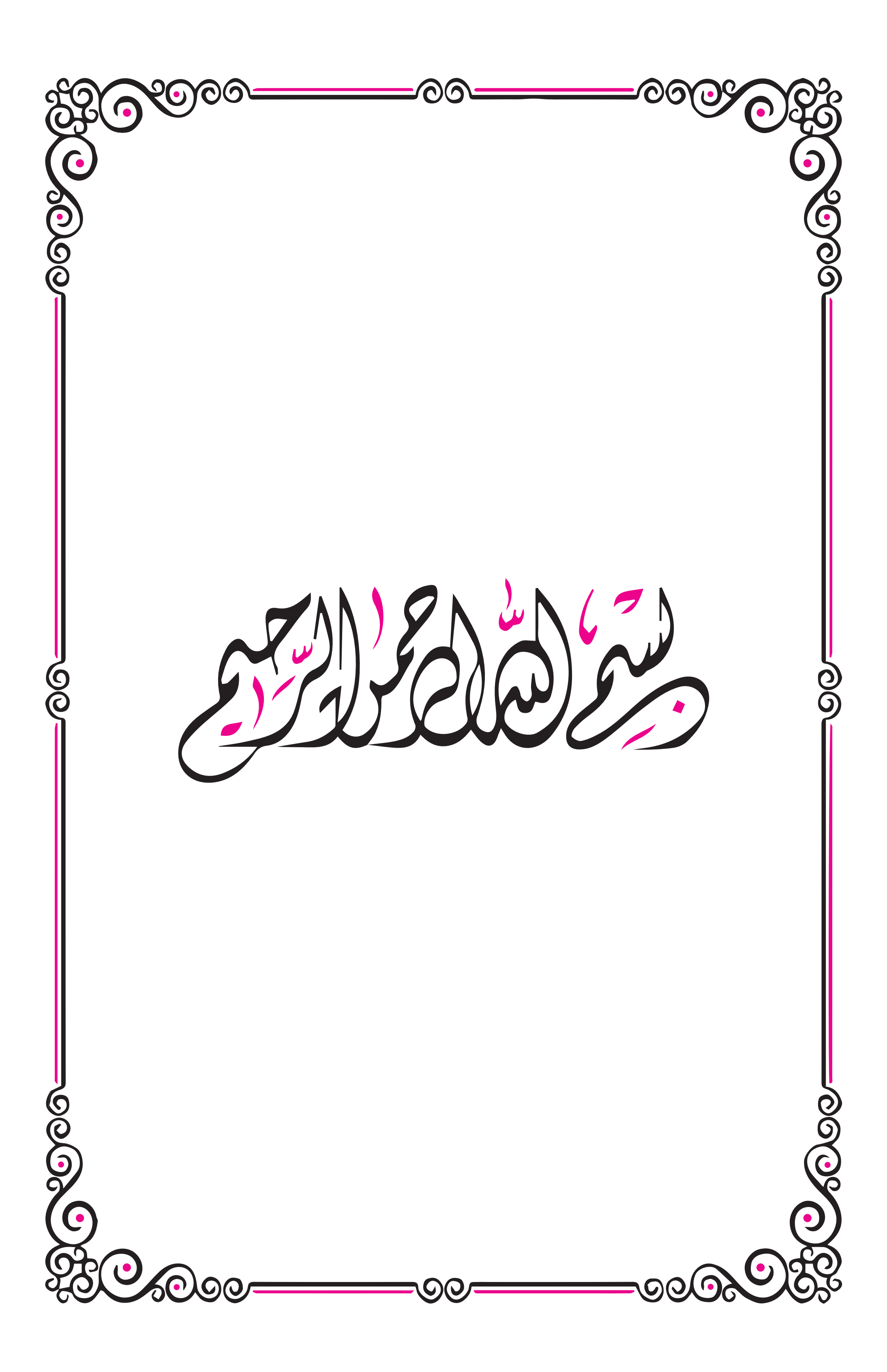
دراسة موضوعية في آيات سورة النور

آداب المجتمع في الإسلام

دراسة موضوعية في آيات سورة النور

تأليف

أ. د. محمد بن عبد العزيز العواجي


بسم الله الرحمن الرحيم



المقــدمــة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله... أما بعد:

فلا شك أن شريعة الإسلام تحمل مقومات الاستمرارية في ذاتها، فالإسلام سينتشر، بل وسينتصر، وسيملأ الأرض عدلًا كما ملأت جورا، وسيتم الله هذا الأمر، طال الزمان أم قصر، كيف لا وهو محفوظ بحفظ الله ومؤيد بتأييد الله، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩)﴾ [سورة الحجر ٩]، وقال: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣)﴾ [سورة الصافات ١٧٠-١٧١]، وقال: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ (١٠٥)﴾ [سورة الأنبياء ١٠٥].

هذا الشيء الذي لم يدركه أعداء الإسلام وإن أدركوه فهم لم يصدقوه، ويظنون عبثا أنهم سيطمسون الإسلام، قال تعالىٰ: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٨)﴾ [سورة الصف ٨]، ولئن أدرك أعداء الإسلام هذه الحقيقة فإنهم لم ولن يدركوا يقينا قول الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ (٣٦)﴾ [سورة الأنفال ٨].

وعبر سبحانه بقوله: ﴿يُنفِقُونَ﴾، فهم ينفقون منذ كفرهم وإلىٰ زماننا هذا، وأكدها جل وعلا بقوله: ﴿فَسَيُنفِقُونَهَا﴾ ولكن ﴿ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ﴾.

إنَّ أعداء الإسلام لا يزالون يحاربونه، ويحاولون طمس هويته، وهذا إن حصل لهم شيء منه في زمن من الأزمنة أو مكان من الأمكنة، فإنه لا يدوم طويلا، فلقد قال جل وعلا: ﴿ثُمَّ يُغۡلَبُونَۗ﴾ ولكن بأيدي من؟ بأيدي عباد الله الصالحين، لأن الله أمرنا بمدافعتهم ومواجهتهم وجهادهم.

أفلم يقل الله: ﴿وَلَا تَهِنُواْ فِي ٱبۡتِغَآءِ ٱلۡقَوۡمِۖ إِن تَكُونُواْ تَأۡلَمُونَ فَإِنَّهُمۡ يَأۡلَمُونَ كَمَا تَأۡلَمُونَۖ وَتَرۡجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرۡجُونَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ١٠٤﴾ [سورة النساء ١٠٤].

ومن هذا المنطلق فقد جاء هذا البحث ليدلي بدلوه في ساحة الإنفاق في سبيل الله وفي سبيل نشر الفكرة الإسلامية الصحيحة التي ستقاوم هذا الشر المستطير المتدافع علىٰ الإسلام وأهله.

جاء هذا البحث محاولة لبيان تعاليم الإسلام الصحيحة التي إذا التزمنا بها تحقق لنا موعود الله تعالىٰ من خلال كلام ربنا جل وعلا الذي كما قال الله تعالىٰ عنه: ﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ ٤٢﴾ [سورة فصلت٤٢] فهو ربنا الذي خلقنا وهو أعلم بما يصلح أمورنا في عاجل حياتنا وفي آجلها، فهو سبحانه يشرع لنا ما يحفظ أعراضنا وأعراض المسلمين سواء من ارتكاب الفواحش أو من إشاعتها ونشر مقالة السوء عن المسلمين، ويضع لذلك القواعد التي يحفظ بها المجتمع كعوامل من عوامل الوقاية، ويربط سبحانه كل هذه الأوامر والتشريعات بنور الهداية في الدنيا والآخرة، وأن هذه التشريعات ليست علىٰ التخيير بل هي علىٰ الوجوب طاعة لله ولرسوله وحفظًا للمجتمع وتقويةً للإيمان وليتحقق موعود الله بالنصر والاستخلاف في الأرض إذا تحققت لوازمه، ليس هذا فحسب بل بالفوز والفلاح في الآخرة.

فالله أسأل أن يعلمنا ما ينفعنا وأن يلهمنا العلم النافع والعمل الصالح إنه ولي ذلك والقادر عليه.

أسباب اختيار الموضوع:

١. عِظم حاجة الأمة الإسلامية إلىٰ الرجوع إلىٰ مصدر التشريع؛ في ظل الغفلة وكثرة الموارد الإعلامية والثقافية، والتي غيرت قوانين الحياة المعاصرة.

٢. بيان إعجاز القرآن وصلاحيته لكل زمان ومكان، ووفاءه بحاجة الناس المتجددة.

٣. ربط الأمة عامة؛ والدعاة والمصلحين خاصة بهدايات الوحي الذي جعله الله نورًا يُهتدىٰ به، وشرعة ومنهاجًا. بل وروحًا وحياة وشفاء.

٤. تساهل بعض الناس بأمر الأعراض جهلًا بالأحكام الشرعية، وغفلة عن الأضرار الاجتماعية التي يُخلفها ذلك التساهل.

٥. أن التساهل بالأعراض ولوكها بالألسنة من أعظم الفساد العاجل والآجل.

٦. أن سورة النور تضمنت بيانًا شافيًا كافيًا لباب: (حفظ الأعراض، والأسباب الوقائية، والتذكير بعظمة الله وآياته، وآداب المجتمع المسلم).

منهجية البحث:

إنَّ منهجية هذا البحث - أسأل الله تعالىٰ أن ينفعني به وقارئه - متمثلة في النقاط التالية:

- الاعتماد علىٰ كتب التفسير بالمأثور خاصة للبحث في معاني الآيات، وعلىٰ كتب التفسير عامة في صياغة البحث ومسائله.

- التقديم بمقدمة عن الوحدة الموضوعية للسورة، وفيها بيان فيها ملامح السورة الرئيسة وعلاقتها بهذا البحث. **حيث حاولت الجمع بين المواضيع التي تناولتها السورة بأسلوب مختصر وجامع قدر جهدي.**

- الحرص علىٰ بيان المعنىٰ الإجمالي للآية قبل استنباط العبر والعظات منها.

- الربط بين المعاني التي تشير إليها الآيات وحاجة الناس اليوم لهداياتها.
- الرجوع إلىٰ المراجع التي تخدم الموضوع الذي تشير إليه الآيات.
- محاولة عرض المعنىٰ الإجمالي للآيات ثم التركيز في المعنىٰ علىٰ الفوائد العملية، مع عدم إيراد أي معلومة لا ينبني عليها فائدة عملية.
- قدمت بعض الآيات علىٰ بعض لكي أستكمل الكلام والإشارة إلىٰ مجمل الموضوع في مكان واحد.
- الالتزام بالاستشهاد بالأحاديث الصحيحة فقط، ولم أستشهد بحديث اتفق علىٰ ضعفه.
- تخريج الأحاديث والآثار من مصادرها، مع عزو الأحاديث لمخرجها بذكر الكتاب والباب ورقم الحديث إن وجد.
- الحرص علىٰ إيراد الروايات الصحيحة في تفسير الآيات وفي أسباب النزول، والاعتماد علىٰ تصحيح وتضعيف علماء الحديث في ذلك.

خطة البحث:

ينقسم البحث في دراسة موضوعات سورة النور إلىٰ مقدمة وتمهيد وأربعة أبواب كما يلي:

تمهيد: بيان الوحدة الموضوعية في السورة.

الباب الأول: حفظ الأعراض ومقاصد الشريعة، ويشمل أربعة فصول:

تمهيد: مقدمة السورة ومقاصد الشريعة.

الفصل الأول: تحريم الزنـــا:

المبحث الأول: الأدلة علىٰ حرمته:

المطلب الثاني: خطورة الإشاعات.

المطلب الثالث: كيف تتولد الإشاعة وتنتشر.

المبحث الخامس: الموقف من الشائعات في ظلال حادثة الإفك:

المطلب الأول: أن يقدم حسن الظن بالأخ المسلم.

المطلب الثاني: التثبت بالبينة والدليل.

المطلب الثالث: أن لا يتحدث بما سمعه ولا ينشره.

المطلب الرابع: قطع الطريق علىٰ الفساق الذين يحبون أن تشيع الفاحشة والشر.

المبحث السادس: التعقيب القرآني علىٰ حادثة الإفك:

المطلب الأول: خطورة نشر الفواحش في المجتمع الإسلامي.

المطلب الثاني: شرع الله هذه الأحكام وقبل توبة المذنبين فضلًا منه.

المطلب الثالث: التنبيه علىٰ عدم إتباع خطوات الشيطان.

المطلب الرابع: سلامة الصدر والعفو والإحسان لمن أساء يستجلب مغفرة الله.

الفصل الرابع: مسؤلية الكلمة:

المبحث الأول: عرض إجمالي للآيات.

المبحث الثاني: أهمية الكلمة وخطورتها ودورها في إقامة الحياة.

المبحث الثّالث: آفات الكلام.

الباب الثاني: الآداب الاجتماعية الوقائية، ويشمل خمسة فصول:

الفصل الأول: أدب الاستئذان:

المبحث الأول: أهمية الاستئذان.

المبحث الثاني: أحكام الاستئذان وآدابه.

الفصل الثاني: غض البصر:

المبحث الأول: الأمر بغض البصر.

المبحث الثاني: فوائد غض البصر.

المبحث الثالث: الأمر بحفظ الفروج.

الفصل الثالث: الزينة وأحكام إظهارها:

المبحث الأول: أهمية الزينة في حياة المرأة.

المبحث الثاني: أحكام إظهار الزينة:

المطلب الأول: الزينة التي يجوز إبدائها.

المطلب الثاني: من يجوز للمرأة أن تبدي زينتها عنده.

المطلب الثالث: البعد عن دواعي إبداء الزينة لغير المحارم.

المطلب الرابع: تحريم زينة القول.

المبحث الثالث: خطورة الاختلاط.

الفصل الرابع: الزواج سنة إلهية:

المبحث الأول: الأمر بالزواج والحث عليه.

المبحث الثاني: حكمة الشارع في الزواج.

المبحث الثالث: من لم يستطع الزواج.

المبحث الرابع: تيسير الحياة السعيدة لفئآت المجتمع.

الفصل الخامس: آداب داخل البيت المسلم:

المبحث الأول: الاستئذان داخل البيت.

المبحث الثاني: إبداء الزينة وإخفائها.

والله أسأل أن ينفع بهذا البحث كاتبه، وكل من كان له نصيب في الإفادة فيه، وأن ينفع به قارئه، والدال عليه والعامل به.

وصلىٰ الله وسلم علىٰ نبينا محمد وعلىٰ آله وصحبه ومن اقتفىٰ أثره واهتدىٰ بهديه واستن بسنته إلىٰ يوم الدين، وسلم تسليما كثيرا.

الباحث/ أ. د. محمد بن عبدالعزيز العواجي

تم تبييضه في ١٠/ ٩/ ١٤٢٧هـ

تمت مراجعته في ٢٥/ ١/ ١٤٣٠هـ

طيبة الطيبة





الوحدة الموضوعية للسّورة

الحمد لله رب العالمين، ولا عدوان إلا علىٰ الظالمين، وصلىٰ الله وسلم علىٰ إمام الغر المحجلين، نبينا محمد وعلىٰ آله وصحبه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلىٰ يوم الدين، وبعد:

إن لكل سورة من سور القرآن اسم يميزها، وسورة النور كذلك، حيث أنها النور الذي ينير الله به العقول والقلوب، فإذا القلوب والعقول استنارت به، لا شك أن الحياة ستكون كلها في نور وضياء وسعادة، وقد وصف الله القرآن الكريم بأنه نورٌ كما قال تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ٥٢﴾ [سورة الشورىٰ:٥٢] فهو نور من نور.

قال بعضهم: «سميت سورة النور بذلك لما فيها من إشعاعات النور المعنوي بما تضمنته آياتها من أحكام عملية، وآداب اجتماعية وبراهين علىٰ قدرة الله سبحانه، وغير ذلك من أمور هي لأهل البصائر بمثابة الأنوار الحسية»[1]، وسميت بذلك أيضا لأن الله ذكر فيها أنه نور السماوات والأرض.

إن هذه السورة تتميز - كغيرها من السور - أن توجيهاتها تُريح القلوب، وتُهدئُ النفوس، وتَرتقي بالإنسان إلىٰ عالم الإنسانية، وترجعه إلىٰ فطرته التي فطره الله عليها، وفضّله بها عن سائر المخلوقات.

كيف ذلك؟

لقد شملت السورة -كما سيأتي تفصيله في هذه البحوث - أمورًا ترتقي بها

---

(١) تفسير سورة النور- د. ناصر الحميد (١٣).

النفوس ويرتقي بها الإنسان، وعالجت ما يقع في الحياة الاجتماعية من مشكلات اجتماعية، ونفسية وأخلاقية، بل إنها تضمنت قواعد لوقاية المجتمع من الوقوع في هذه المشكلات، وربط ذلك كله بالله ﷻ وبطاعة رسوله ﷺ، منبهة ومحفزة علىٰ تلك الطاعة بالتبشير بالاستخلاف في الأرض إن أخذ الناس بهذا المنهج القويم العظيم الشامل.

لقد عالجت السورة أغلظ ما في الإنسان، ليرققه ويطهره ويرتفع به إلىٰ آفاق النور، إذ عالجت شهوة العين والفرج، ورغبة التجريح والتشهير، ودفعة الغضب والغيظ، فعالجت الفاحشة أن تشيع في النفس وأن تشيع في الحياة، وأن تشيع في القول، وكان علاج هذه الأمور بتشديد حد الزنا وحد القذف، ثمَّ عالجتها بعرض نموذج شنيع فظيع من رمي المحصنات الغافلات المؤمنات، وعالجته بالوسائل الوقائية: بالاستئذان، وغض البصر، والنهي عن مثيرات الفتن، وموقظات الشهوة، ثم بالأمر بالإحصان، ومنع البغاء، وتحرير الرقيق، كل ذلك ليأخذ الطريق للتغير والإصلاح، ويهيئ للنفوس وسائل العفة والاستعلاء والشفافية والإشراق.

وفي أعقاب حادثة الإفك عالجت ما تخلف عنها من غضب وغيظ، ومن اضطراب في المقاييس، وقلق في النفوس، فإذا نفس محمد ﷺ مطمئنة هادئة زكية، وإذا نفس عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قريرة راضية بريئة، وإذا نفس أبي بكر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ سمحة صافية، وإذا نفس صفوان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قانعة بشهادة الله وتبرئته، وإذا نفوس المسلمين آيبة تائبة، وقد تكشف لها ما كانت تتخبط فيه بعض النفوس من التيه والمرض، فثابت النفوس الزكية الطاهرة إلىٰ ربها شاكرة فضله ورحمته وهدايته.

بهذا التعليم وهذا التهذيب، وهذا التوجيه عالج الله الإنسان حتىٰ أشرق بالنور، وتطلع إلىٰ الأفق الوضيء، واستشرف النور الكبير في آفاق السماوات والأرض، وهو علىٰ استعداد لتلقي النداء الرباني الشامل في عالم كله إشراق ونور.

فالمحور الذي تدور حوله السورة كلها هو: **محور الوقاية والعلاج والتربية للمجتمع المسلم، التي تشتد وسائلها إلىٰ درجة الحدود**، رحمة بالأمة التي يريد الله لها الحياة السعيدة في الدنيا والآخرة.

ويمكن تقسيم التوجيهات التربوية للمجتمع المسلم في السورة إجمالًا إلىٰ عدة موضوعات، وهي كما يأتي:

أولًا: **حفظ الأعراض الذي هو من مقاصد الشريعة الإسلامية**: والذي تضمن النهي عن الزنا، وتعظيم أمره، وبيان حده. ثم الحديث عن القذف، وحرمته وبيان حده وعظم أمره. ثم ذكر حادثة الإفك لبيان شناعة أمر القذف وأثره علىٰ الفرد والمجتمع، ثم الحديث عن ما يورد المرء المهالك وهو اللسان وخطره.

ثانيًا: **وسائل الوقاية من الوقوع في الجريمة**: والتي تتضمن الحديث عن: آداب البيوت، والاستئذان علىٰ أهلها، والأمر بغض البصر وحفظ الفرج، وأحكام إبداء الزينة، والترغيب في النكاح، والاستعفاف لمن لا يجد النكاح.

ثالثًا: **بين الله تعالىٰ بالمثل أن هديه سبحانه نور وهداية لكل الناس.**

رابعًا: **بين الله سبحانه مكان وجود ذلك النور وتلك الهداية**: فتحدثت الآيات عن بيوت الله تعالىٰ، وعن عمّارها وما فيها من هداية.

خامسًا: **بين الله سبحانه ما يضاد تلك الهداية ويقابل ذلك النور**: ألا وهو ظلمة الكفر، وذلك بعرض مثالين يتضح فيهما شدة ظلمة الكفر في القلب والواقع، وأثر ترك هدي الله تعالىٰ وما يحدثه من ظلمة في القلب تحجبه والعياذ بالله عن ذلك النور والهدىٰ.

سادسًا: **وجوب النظر إلىٰ عظم خلق الله تعالىٰ**: وربط ذلك النظر والتفكر بالعبودية لله تعالىٰ، كل ذلك تربية للمجتمع المسلم علىٰ العبودية لله تعالىٰ الموصلة لذلك النور والهدىٰ.

سابعًا: تُبين السورة أن **الإيمان بالله وطاعة الرسول** ﷺ والتزام المنهج التربوي الذي به الفلاح في الدنيا والآخرة، وعدم مخالفة أمره والتأدب معه ﷺ هي علامات ودلائل ذلك النور والهداية، وما ينتج عن ذلك من **الاستخلاف والتمكين والأمن في الأرض**، والفوز والنجاة يوم القيامة هي متطلباته العاجلة والآجلة وهي ثمرة النور والهداية.

ثامنًا: في ختام السورة **يبين الله تعالىٰ ملكيته للسماوات والأرض وعلمه بواقع الناس، وما يصلحهم في حياتهم الدنيا**، وعلمه أيضا بحالهم يوم القيامة وما سيكون لهم من خير أو شر، وهي دلالة التصديق العقلي بأنه لا نور ولا هداية فيما يخالف أمره وشرعه.

ومن هذا العرض لما تحتويه السورة بآياتها القصيرة، وجُمَلِها المعدودة من معاني عظيمة الشأن، تبين لنا أمرًا مهمًا جدًا، وهو أن الدين الإسلامي دين عقيدة وعبادة وأخلاق ومعاملات، فهو دين شامل كامل لكل نواحي الحياة، قال تعالىٰ: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [سورة الأنعام٣٨] وقال تعالىٰ: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [سورة المائدة٣]، وهو دين عام لكل الناس، كبيرهم وصغيرهم، ذكرهم وأنثاهم، حاكمهم ومحكومهم، عبدهم وحرهم، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [سورة سبأ٢٨].

وعلىٰ هذا فحديث السورة عن الآداب التربوية الاجتماعية الأخلاقية ليس من الأمور الهامشية التحسينية بل هو من الأمور الأساسية في هذا الدين، ولذا روي عن السلف عبارات كثيرة في فضل سورة النور والحث علىٰ تعلمها، ومنها ما أورده البيهقي

عن أبي عطية الهمداني قال: كتب إلينا عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلىٰ أهل الكوفة: «**تعلموا سورة براءة، وعلموا نساءكم سورة النور**»[(١)]، وهناك آثار أخرىٰ موقوفة ومرسلة في فضائل السورة لم نوردها اختصارًا.

وقد حاولت إيجاز موضوعات السورة في العناوين الآتية:

١- حفظ الأعراض من مقاصد الشّريعة.

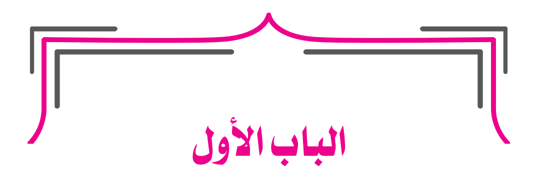
٢- الآداب الاجتماعية الوقائية.

٣- ذكرىٰ وتذكير لأولي الألباب.

٤- آداب المجتمع في الإسلام.



(١) أخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن (ص١٢٩-١٣٠)، و(ص١٢٤-١٣٥)، وسعيد بن منصور في سننه رقم (١/ ٣٧) و(٩/ ٣٩)، والبيهقي في شعب الإيمان (٥/ ٣٧٠) رقم (٢٢١٣)، والقاسم بن سلام في فضائل القرآن (٣٦٤)، والمستغفري في فضائل القرآن (٧٩٩) و(٨٤٠)، وعبد الرزاق في مصنفه (١/ ٢٩٥) (١١٣٣).



الباب الأول

حفظ الأعراض ومقاصد الشريعة

تمهيد: مقدمة السورة ومقاصد الشريعة:

قال تعالىٰ: ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾﴾

يبين الله ﷻ في بداية هذه السورة أهميتها في الحفاظ علىٰ البيئة الإسلامية. وما في هذه السورة من أحكام تهتم بشؤون ذلك المجتمع وقاية وعلاجًا لما قد يحصل له من مشكلات،

فينبه الله تعالىٰ أن هذه السورة قد أنزلها «تنبيهٌ علىٰ الاعتناء بها ولا ينافي ما عداها»[(١)]، فبين الله فيها الحلال والحرام والأمر والنهي والحدود[(٢)] وفرائض مختلفة[(٣)]، فآيات هذه السورة مبينات وموضحات لتلك الفرائض المأمورون بها. **لماذا؟** ﴿لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾﴾ وتعملون بها عندما تقرؤونها وتعلمون أوامرها ونواهيها.

فتبدأ هذه السورة ببيان أمر من الأمور التي فيها من الأضرار الاجتماعية علىٰ المجتمع المسلم الشيء الكثير. وعلىٰ أمر هو من مقاصد الشريعة. ألا وهو حفظ العرض، في كل صوره وأهمها في هذه السورة تحريم الزنا. وتحريم القذف. وتحريم الشائعات. وتحديد ومسئولية الكلمة في الدنيا والآخرة.

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٦/ ٥).

(٢) كما قال مجاهد وقتادة، ينظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٦/ ٥).

(٣) ذكره البخاري في كتاب التفسير باب تفسير سورة النور (٤/ ١٧٦٩).

ومقاصد الشريعة[١] **هي**: الغايات التي وضعت الشريعة لأجل تحقيقها لمصلحة العباد[٢].

فالله ﷻ لم يشرع حكمًا من أحكامه إلا وفيه مصلحة العباد، عَلِمنا هذه الحكمة والمصلحة أو لم نعلمها، قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الشريعة جاءت بتحصيل المصالح وتكميلها، وتعطيل المفاسد وتقليلها»[٣].

وقد حصر علماء الإسلام المقاصد الشرعية التي أمر الإسلام بالحفاظ عليها مصلحةً للناس إلىٰ خمس مقاصد، ويقال عنها: - الضروريات الخمس - «فهي ضرورية لأن فقدها يوقع الضرر والحاجة ووجودها يدفع الضرر والحاجة»[٤].

والضروريات الخمس هي: «حفظ الدين والنفس والنسل والمال والعقل»[٥].

فأما حفظ الدين: فقد جاء الأمر بحفظه عن طريق الأمر بالإيمان بالله شاملًا أركان الإيمان، والعمل بأركان الإسلام الخمس، وتحقيق مراتب الإحسان، والوعيد علىٰ مخالفة ذلك، وأيضا بالأمر بالدعوة إلىٰ هذا الدين والأمر بالدفاع عنه من المعتدين والمخالفين، وحماية الدين من الغلو والانحراف.. وغيرها.

وأما حفظ النفس: فذلك بحمايتها من الوقوع فيما يتسبب في هلاكها ومن الاعتداء علىٰ نفسها وغيرها، من القتل والانتحار وكل ما يؤدي إلىٰ ذلك أو شيئًا منه، فشرع الله القصاص وحد الحدود.

---

(١) يمكن الاستزادة في هذا الموضوع بمراجعة كتاب: الموافقات للشاطبي (٢/ ١٠٠)-(٣/ ١٦٥)، ومقاصد الشريعة عند العز بن عبدالسلام- لعمر بن ناصر عمر. وغيرها من كتب الفقه وأصوله.

(٢) مقاصد الشريعة عند العز بن عبدالسلام - عمر بن ناصر عمر - (ص٨٩).

(٣) فتاوىٰ شيخ الإسلام (١٥/ ٣١٢)، (٢٠/ ٤٨).

(٤) مقاصد الشريعة عند العز بن عبد السلام (ص١٤٥).

(٥) الدعوة الإسلامية أصولها ووسائلها (ص٣٤).

وأما حفظ النسل: وبعضهم يسميها بعبارة أخرىٰ (**حفظ العرض**)، ويكون هذا الحفظ بالأمر بالزواج وتحريم الزنا، وتحريم الكلام في أعراض المسلمين بسوء، ورتب علىٰ ذلك العقوبة في الدنيا والآخرة.

وأما حفظ المال: فذلك بالنهي عن السرقة وما في معناها وغيرها من إضاعة المال بغير وجه مشروع، وإباحة الطرق الشرعية في تحصيل المال وملكه، وتحريم الطرق التي يتم الحصول فيها علىٰ المال بطريقة غير شرعية.

وأما حفظ العقل: فذلك بالنهي عن كل مسكرٍ ومفترٍ وكلِّ ما يذهب العقل، وحماية العقل من الأفكار المنحرفة، وتنميته بالتفكر والتدبر والتعلم والاعتبار وغيرها.

وهذه كلها أمثلة والشريعة الإسلامية مبنية علىٰ الأمور التي فيها الحفاظ علىٰ هذه الضروريات الخمس.

فحفظ العرض في الشريعة الإسلامية له عدة صورٍ - ومن أهمها وأخطرها علىٰ المجتمع المسلم ما جاء التنبيه عليه في هذه السورة وهو: **تحريم الزنا، وتحريم القذف، وخطورة الشائعات، ومسؤولية الإنسان عن الكلمة التي يقولها**.

وسنعرض لهذه الأمور تنبيها علىٰ بعض المسائل فيها من خلال هذه الآيات الكريمات في الفصول التالية:

١- تحريم الزنـــا.

٢- تحريم القذف.

٣- موقف المسلم من الشائعات.

٤- مســـؤولية الكلمة.

الفصل الأول
تحريم الزنـا

المبحث الأول
الأدلة على حرمة الزنا

١- قال تعالىٰ: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجۡلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا مِاْئَةَ جَلۡدَةٖۖ وَلَا تَأۡخُذۡكُم بِهِمَا رَأۡفَةٞ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ وَلۡيَشۡهَدۡ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٢ ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوۡ مُشۡرِكَةٗ وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوۡ مُشۡرِكٞۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٣﴾.

وهذا الدليل تضمن عدة أوجه للدلالة علىٰ التحريم:

الوجه الأول: التشديد في وجوب إقامة الحد. وفي الجد في إقامة الحد. قال تعالىٰ: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجۡلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا مِاْئَةَ جَلۡدَةٖ﴾.

الوجه الثاني: الوعيد بعدم التساهل في إقامة الحد، حتىٰ أنه ربطه بالإيمان بالله واليوم الآخر، قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَأۡخُذۡكُم بِهِمَا رَأۡفَةٞ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾.

الوجه الثالث: وجوب أن يشارك المجتمع في إيقاع العقوبة تنفيرًا وتحذيرًا للمجتمع، وخزيًا وذلًا وعذابًا نفيسًا للزاني في الدنيا قبل الآخرة، قال تعالىٰ: ﴿وَلۡيَشۡهَدۡ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٢﴾.

الوجه الرابع: «تقبيح أمر الزاني أشد تقبيح ببيان أنه بعد أن رضي بالزنا لا يليق به أن ينكح العفيفة المؤمنة»[١] قال تعالىٰ: ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوۡ مُشۡرِكَةٗ وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوۡ مُشۡرِكٞ﴾.

---

(١) روح المعاني (١٨/ ٨٤).

الوجه الخامس: التصريح بالتحريم ﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٣﴾.

٢- قال تعالىٰ في وصف عباد الرحمن: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ۝٦٨ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ۝٦٩﴾ [سورة الفرقان٦٨-٦٩].

﴿وَلَا يَزْنُونَ﴾ أي: «لا يستحلون الفروج المحرّمة بغير نكاح»[(١)] فـ«دلت الآية علىٰ أنه ليس بعد الكفر أعظم من قتل بغير الحق ثم الزنا»[(٢)]. «واعلم أن الزنا حرام وهو من الكبائر ويدل عليه أمورٌ منها - أن الله تعالىٰ قرنه بالشرك وقتل النفس»[(٣)].

٣- قال تعالىٰ: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ۝٣٢﴾ [سورة الإسراء٣٢].

فنهىٰ الله ﷻ في هذه الآية نهيًا صريحًا عن قربان الزنا، فإذا قيل للإنسان لا تقرب هذا فهذا آكد من أن يقول له لا تفعله، ثم إنه تعالىٰ علل هذا النهي بكونه: ﴿فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ۝٣٢﴾، أي: «بئس الطريق الموصل إلىٰ الزنا طريقًا للآثار السيئة والنتائج المدمرة التي تترتب عليه؛ أولها أذية المؤمنين في أعراضهم، وآخرها جهنم والاصطلاء بحرها والبقاء فيها أحقابًا طويلة»[(٤)].

٤- قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ﴾ إلىٰ قوله: ﴿فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ﴾ [سورة الممتحنة١٢]. فقد جعل الله ذلك شرطًا في بيعة المؤمنات للنبي ﷺ.

---

(١) فتح القدير (٥/ ٢٩٣).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (١٣/ ٧٦).

(٣) التفسير الكبير للرازي (١١/ ٢١٨).

(٤) أيسر التفاسير (٢/ ٣٤٤).

فهذه الأدلة من كتاب الله تعالىٰ، وفيها كفاية وشفاء.

وأما الأدلة من السنة فكثيرة جدًا ومنها:

- قال ﷺ: «**وما ظهر في قوم الربا والزنا إلا أحلوا بأنفسهم عقاب الله عَزَّوَجَلَّ**»[(١)].

- وقال ﷺ: «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن...**»[(٢)].

- وقال ﷺ: «**لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتىٰ يعلنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا**»[(٣)].

- وروىٰ عبدالله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سألت رسول الله ﷺ أي الذنب أعظم؟ قال: «**أن تجعل لله ندا وهو خلقك**». قلت ثم أي؟ قال: «**أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك**» قلت: ثم أي؟ قال: «**أن تزني بحليلة جارك**»[(٤)].

فهذه الأحاديث وغيرها دليل علىٰ عظم جرم فعل الزنا وأنه من الكبائر في هذا الدين.



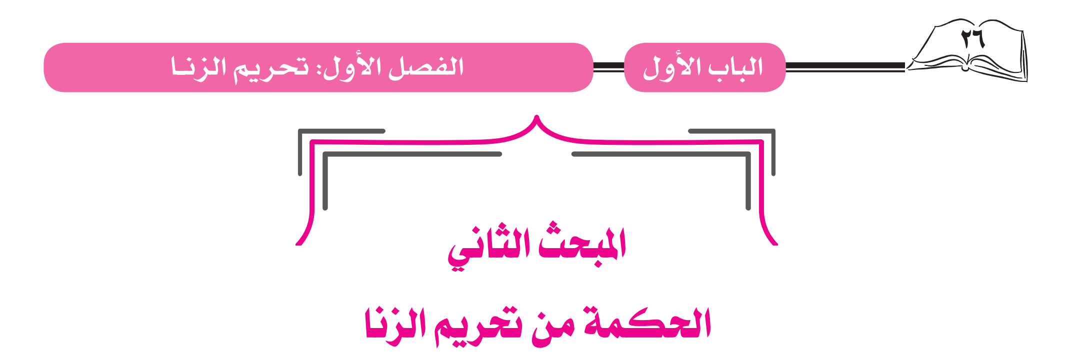
---

(١) أخرجه أحمد في المسند (١/ ٤٠٢) ح (٣٨٠٩)، وقال الأرناؤوط صحيح لغيره وإسناده ضعيف.

(٢) أخرجه البخاري كتاب الحدود باب إثم الزنا (٦٨١٠)، ومسلم كتاب الإيمان باب نقصان الإيمان بالمعاصي ونفيه عن المتلبس بالمعصية، علىٰ إرادة نفي كلامه (٥٧).

(٣) سنن ابن ماجة كتاب الفتن باب العقوبات (٤٠١٩). وحسنه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (١٠٦).

(٤) أخرجه البخاري كتاب التفسير باب قوله تعالىٰ ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾﴾ (٤٧٦١)، ومسلم كتاب الإيمان باب كون الشرك أقبح الذنوب وبيان أعظمها (٨٦).



المبحث الثاني

الحكمة من تحريم الزنا

إن الناظر في الأدلة الدالة علىٰ عظم أمر الزنا ليتساءل لماذا هذا الوعيد الشديد وهذا التحريم في أمر الزنا؟.

لكن الإجابة علىٰ هذا السؤال تجعل المرء يقف عند حكمة الله العليم الحكيم الذي أنزل الشرع المحكم لما فيه مصلحة الناس والرقي بهم عن البهيمية.

ولهذا سنعرض هنا بعض الحكم من هذا التحريم تنبيها فقط علىٰ حكمة الله تعالىٰ وما يريده لنا من مصلحة الدنيا والآخرة:

قال تعالىٰ في وصف عباد الرحمن: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامٗا ﴿٦٨﴾﴾ [سورة الفرقان٨٦]. «لما ذكر الله تعالىٰ القتل الجلي، أتبعه الخفي بتضييع نسب الولد، فقال: ﴿وَلَا يَزۡنُونَ﴾ أي رحمة لما قد يحدث من ولد، إبقاء علىٰ نسبه، ورحمة للمزني بها ولأقاربها أن تنهتك حرماتهم، مع رحمته لنفسه، علىٰ أن الزنىٰ جارّ أيضًا إلىٰ القتل والفتن، وفيه التسبب لإيجاد نفس بالباطل كما أن القتل تسبب إلىٰ إعدامها بذلك»[1].

يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ولما كانت مفسدة الزنا من أعظم المفاسد، وهي منافية لنظام مصلحة العالم في حفظ الأنساب، وحماية الفروج، وصيانة الحرمات، وتوقي ما يوقع أعظم العداوة والبغضاء بين الناس، من إفساد كل منهم امرأة صاحبه وابنته

---

(١) نظم الدر (٦/ ٤٢).



وأخته، وما في ذلك من خراب العالم»[١].

«فإن المرأة إذا زنت أدخلت العار علىٰ أهلها وزوجها وأقاربها، ونكست رؤوسهم بين الناس، وإن حملت من الزنا فإن قتلت ولدها جمعت بين الزنا والقتل، وإن حملته علىٰ الزوج أدخلت علىٰ أهله وأهلها أجنبيا ليس منهم، فورثهم وهو ليس منهم، ورآهم وخلا بهم وانتسب إليهم وهو ليس منهم. وكذلك زنىٰ الرجل فإنه يوجب اختلاط الأنساب، وإفساد المرأة المصونة، وتعريضها للتلف والفساد، ففي هذه الكبيرة خراب الدنيا والدين» أ. هـ[٢].

وهذا الكلام الجامع منه رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقودنا إلىٰ ذكر بعض الحكم من هذا التحريم:

١- اختلاط الأنساب:

الذي يترتب عليه إرث من لا يرث، والخلو مع من لا يحل له رؤيتهن، ودعوة الولد بغير أبيه وغيرها.

٢- إثارة الأحقاد:

وذلك لأن مَنْ زُني بواحدة من أهله سيظل يحقد علىٰ مرتكب الجريمة هذه، وإن عرفه فقد يقتله ويتسبب ذلك في فتنة كبيرة بين الناس. فالغيرة طبيعة في الإنسان فإن الرجل لا يجد وسيلة يغسل بها العار الذي يلحقه ويلحق أهله إلا الدم.

٣- تهديد البيوت الهادئة المطمئنة وإلحاق العار بها:

لأن أصحاب تلك البيوت يصيبهم الخزي والعار أمام الناس ويتمنون لو أنهم ماتوا قبل أن يحصل لهم هذا، وتبقىٰ الأسرة علىٰ هذا الحال والعار مدي الحياة،

---

(١) الجواب الكافي (٣٥٩).

(٢) الجواب الكافي (٣٨٥).

«فالزنا يفسد نظم البيت ويهز كيان الأسرة، ويقطع العلاقة الزوجية، ويعرض الأولاد لسوء التربية مما يتسبب عنه التشرد والانحراف والجريمة»[(١)]

٤- إن تحريم الزنا يرفع الإنسان عن المستوىٰ الحيواني والبيئة الحيوانية:

الإسلام يسعىٰ لمحاربة الحيوانية التي لا تفرق بين جسد وجسد، ولا تهدف إلىٰ إقامة بيت وبناء مجتمع! فليس وراء اللذة المحرمة بناء حياة، ولا عمارة أرض، بل ليس ورائها عاطفة حقيقية راقية، وإنما هي عاطفة تنتهي بانتهاء الشهوة. وعلىٰ هذا فالإسلام لا يحارب دوافع الفطرة ولا يستقذرها؛ وإنما ينظمها ويطهرها ويرفعها عن المستوىٰ الحيواني، فيبني العلاقة الجنسية علىٰ أساس من المشاعر الإنسانية الصادقة والراقية.

٥- ومن الحكم من تحريم الزنا دفع مضرته الآجلة:

وهذه المضار تغيب عن عقل مرتكب هذه الجريمة وقت حدوثها والعياذ بالله، وهي كما يقول ابن القيم: «أنه يوجب الفقر، ويقصر العمر، ويكسو صاحبه سواد الوجه، ويورث المقت بين الناس»[(٢)].

٦- وأعظم من ذلك كله وأخزىٰ العذاب الأليم يوم القيامة:

فعن حذيفة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**يا معشر الناس اتقوا الزنا فإن فيه ست خصال؛ ثلاثًا في الدنيا وثلاثًا في الآخرة، فأما اللواتي في الدنيا: فيُذهب البهاء ويُورث الفقر وينقص العمر، وأما اللواتي في الآخرة: فيُوجب السخط وسوء الحساب والخلود في النار**»[(٣)].

٧- دفع الأمراض الخبيثة التي تنتج عن ممارسة هذه الفعلة الخبيثة:

وبعض هذه الأمراض مازال الطب إلىٰ الآن لم يجد لها علاجًا مثل مرض

---

(١) فقه السنة (٢/ ٥٤٩).

(٢) الجواب الكافي (٣٨٥).

(٣) شعب الإيمان البيهقي (٤/ ٣٧٩) ح (٥٤٧٥) وضعفه، ولكن معناه صحيح. والله أعلم.

الإيدز، والزهري وغيرهما من الأمراض، وهذا مصداق حديث رسول الله ﷺ: «**لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتىٰ يعلنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا**»[1].

٨- الزنا قتل للحياة وللفرد والمجتمع:

قال تعالىٰ في وصف عباد الرحمن: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾﴾ [سورة الفرقان ٦٨].

إن في الزنا قتلًا من نواحي شتىٰ، إنه قتل ابتداء لأنه إراقة لمادة الحياة في غير موضعها، يتبعه غالبًا الرغبة في التخلص من آثاره بقتل الجنين قبل أن يتخلق أو بعد أن يتخلق، قبل مولده أو بعد مولده فإذا ترك الجنين للحياة ترك في الغالب لحياة شريرة، أو حياة مهينة، فهي حياة مضيعة في المجتمع علىٰ نحو من الأنحاء.

وهو قتل في صورة أخرىٰ: قتل للمجتمع التي يفشو فيها؛ فتضيع الأنساب وتختلط الدماء، وتذهب الثقة في العرض والولد، ويتحلل المجتمع وتتفكك روابطه، فتنتهي إلىٰ ما يشبه الموت بين المجتمعات.

وهو قتل للمجتمع من جانب آخر، إذ أن سهولة قضاء الشهوة عن طريقه يجعل الحياة الزوجية نافلة لا ضرورة لها، ويجعل الأسرة تبعة لا داعي إليها، والأسرة هي المحضن الصالح للفراخ الناشئة، لا تصح فطرتها ولا تسلم تربيتها إلا فيه.

وما من أمة فشت فيها الفاحشة إلا صارت إلىٰ انحلال، منذ القديم إلىٰ العصر الحديث. وقد يُغَرُّ بعضهم أن بعض الدول الغربية تملك زمام القوة المادية اليوم مع فشو هذه الفاحشة فيها؟

---

(١) سنن ابن ماجة كتاب الفتن باب العقوبات (٤٠١٩). وحسنه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (١٠٦).

فالجواب: أن هذه الفواحش لم تظهر بعد آثارها كاملةً؛ بسبب حداثة بعض هذه المجتمعات واتساع مواردها، كالشاب الذي يسرف شهواته فلا يظهر أثر الإسراف في بُنْيَتِهِ وهو شابٌ، ولكنه سرعان ما يتحطم عندما يدلف إلىٰ الكهولة فلا يقوىٰ علىٰ احتمال آثار السن، كما يقوىٰ عليها المعتدلون من أنداده!.



المبحث الثالث

عقوبة الزنا

إن الإسلام دين متكامل يشمل جميع مناحي الحياة؛ الدينية، والاقتصادية والسياسية والاجتماعية، ووضع لكل أمر من أمور الحياة ضوابط عالية تقومه وتنميه وتساعد علىٰ رقي ذلك المجتمع.

فمن قاعدة كمال الشريعة يُعْلَم: أن الإسلام لا يشدد العقوبة هذا التشديد إلا بعد تحقيق الضمانات الوقائية المانعة من وقوع الفعل، ومن ثم من توقيع العقوبة؛ فالإسلام لا يقوم علىٰ العقوبة، وإنما يقوم علىٰ توفير أسباب الحياة النظيفة، ثم يعاقب من يدع الأخذ بهذه الأسباب الميسرة ويتمرغ في الوحل طائعًا غير مضطر.

وقس علىٰ ذلك جميع مناحي الحياة، فقد وضع الله القواعد والضوابط لكل عمل وهيأ من الأسباب ما يعين علىٰ أداء تلك الأعمال، واجتناب مساوئ الأفعال، ثم رتب العقوبة علىٰ من يخالف هذا المنهج الشامل الكامل.

فمن هنا جاءت عقوبة الزاني، فقد وضع الله له الضمانات والأسباب التي تجعله لا يقع في الزنا، ولكنه أوقع نفسه فيه، وذلك بسبب تخليه عن هذه الضمانات فكانت العقوبة الرادعة.

وفي هذه السورة جملة من تلك الأمور الوقائية مثل: الإسراع في الزواج، والحث عليه، والأمر بغض البصر، والأمر بالاستئذان... وغيرها من الأمور التي سيأتي الحديث عنها في موضعها إن شاء الله[١].

(١) أفردتها بالبحث مستقلة من خلال سورة النور، وهو الثاني من موضوعات السورة.

أما عقوبة الزاني ففيها تفصيل نجمله في الآتي[(١)]:

أولًا: عقوبة الزاني البِكْرُ:

١- الجلد مائة جلدة:

قال الله تعالىٰ ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾. «هذا حد الزاني الحر البالغ البكر، وكذلك الزانية البالغة البكر الحرة، وأما المملوكات فالواجب خمسون جلدة لقوله تعالىٰ: ﴿فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾ [سورة النساء ٢٥]»[(٢)].

٢- الجلد يكون أمام مجموعة من الناس:

قال تعالىٰ: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٢﴾.

٣- تغريب عام: أي الإبعاد عن البلد عامًا كاملًا، «وثبت بالسنة»[(٣)].

ففي الصحيحين عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في الأعرابيين الذين أتيا رسول الله ﷺ، فقال أحدهما: يا رسول الله إن ابني كان عسيفًا[(٤)] عند هذا فزنىٰ بامرأته، فافتديت ابني بمائة شاة ووليدة، فسألت أهل العلم، فأخبروني أن علىٰ ابني جلد مائة وتغريب عام، وإن علىٰ امرأة هذا الرجم. فقال رسول الله ﷺ: «**والذي نفسي بيده، لأقضين بينكما بكتاب الله: الوليدة والغنم رد عليك، وعلىٰ ابنك جلد مائة وتغريب عام، واغد يا أنيس**

---

(١) انظر تفصيل هذه الأحكام في المغني (١٢/ ٣٨٠-٣٢٠).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (١٢/ ١٥٩)، وللاستزادة في هذه المسألة انظر كلام الفقهاء رحمهم الله في: بدائع الصنائع (٧/ ٣٧-٣٨)، وموسوعة شروح الموطأ باب جامع ما جاء في حد الزنا (٢٠/ ١٧٩-١٩٧)، والمقنع مع الشرح الكبير (٢٦/ ٢٦٤-٢٦٩). وفتح الباري (١٢/ ١٦٨-١٦٩)... وغيرها من كتب الفقه وشروح الحديث عند هذه المسألة.

(٣) الجامع لأحكام القرآن (١٢/ ١٥٩).

(٤) عسيفًا: أي أجيرًا.

إلىٰ امرأة هذا فإن اعترفت فارجمها» فغدا عليها فاعترفت، فرجمها»[١]. ففي هذا الحديث إثبات الجلد والتغريب للبكر.

٤- حرمة الزواج بهما قبل التوبة:

قال الله تعالىٰ زيادة في التنكيل بالزناة وعقوبة لهم: ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٣﴾.

«هذا خبر من الله تعالىٰ بأن الزاني لا يطأ إلا زانية أو مشركة أي لا يطاوعه علىٰ مراده من الزنا إلا زانية عاصية أو مشركة لا ترىٰ حرمة ذلك، وكذلك الزانية لا ينكحها إلا زان عاص بزناه أو مشرك لا يعتقد تحريمه»[٢].

وعلىٰ هذا فإن تزويج المؤمن بالفاجرة الزانية محرم، وأيضًا تزويج المؤمنة بالرجل الفاجر الزاني محرم فالله تعالىٰ يقول: ﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٣﴾، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «الزَّانِيَةَ لا يجوز تزوُّجها إلا بعد التوبة»[٣].

ويقول في موضع آخر: «فإن هذا يدل علىٰ أَنَّ الزَّاني لا يتزوَّج إلا زانية أو مُشركة وإن ذلك حرامٌ علىٰ المؤمنين والرجل الزَّانِيَ لا يجوز نِكَاحُهُ حتىٰ يتوب وذلك بأن يُوَافِقَ اشتِرَاطَهُ الإِحصان، والمرأة إذا كانت زانية لا تُحْصِنُ فرجها عن غير زوجها لا يجوز نكاحها فمنْ نكح زانِيَةً فهو زَانٍ أَي تزوَّجها ومن نكحت زانيًا فهي زانية أَي تَزَوَّجَتْهُ»[٤].

---

(١) أخرجه البخاري كتاب الإيمان والنذور باب كيف كانت يمين النبي ﷺ (٦٦٣٣)، ومسلم كتاب الحدود باب من اعترف علىٰ نفسه بالزنا (١٦٩٧).

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٦/ ٩).

(٣) مجموع فتاوىٰ شيخ الإسلام (٨/ ٢٧٩)، وقد اختلف أهل العلم رحمهم الله في ضابط رفع ذلك التحريم انظر الفتاوىٰ الكبرىٰ (٤/ ١٢٢)، وقد رجح شيخ الإسلام أنه يجوز تزوجها بعد التوبة وذكر الأدلة علىٰ ذلك من القرآن والسنة والإجماع والاعتبار، ورد علىٰ المخالفين.

(٤) مجموع فتاوىٰ شيخ الإسلام (١٥/ ٣٢٠) مختصرًا.

ثانيًا: عقوبة الزاني المحصن:

حَدُّ المحصن الزاني هو الرجم بالحجارة حتىٰ الموت.

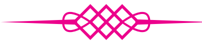
وهو: «الذي قد وطئ في نكاح صحيح وهو حر بالغ عاقل»(١).

والدليل علىٰ ذلك حديث أبي هريرة المتقدم وفيه: «**واغد يا أُنيس إلىٰ امرأة هذا فإن اعترفت فارجمها**» فغدا عليها فاعترفت فرجمها.

وعن جابر بن عبدالله رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أن رجلًا من أسلم، أتىٰ رسول الله ﷺ فحدثه أنه قد زنىٰ، فشهد علىٰ نفسه أربع شهادات، فأمر به رسول الله ﷺ فرجم وكان قد أحصن(٢).

وهنا لفتة ذكرها العلماء في الحكمة من **تقديم المرأة علىٰ الرجل في البيان**، قال تعالىٰ: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي﴾ «فقدمت الزانية حيث كان في ذلك الزمان زنىٰ النساء فاشٍ، وكان لإماء العرب وبغايا ذلك الوقت رايات. وقيل لأن الزنا في النساء أَعَرُّ. وقيل: لأن الشهوة في المرأة أكثر وعليها أغلب، فصدرها تغليظا لتردع شهوتها، وأيضا فإن العار بالنساء ألحق إذ موضعهن الصيانة فقد ذكرهن تغليظا واهتماما»(٣).

ولأن الرجل لا يستطيع أن يفعل هذا العمل إلا برضىٰ المرأة وتزينها له، فمنها نصيب في داعي الوقوع غالبًا، وإذا لم ترض وتمكن نفسها منه لم يفعل الزنا بها، أما إن فعل بها غصبًا عنها فهذا اغتصاب في حق المرأة له أحكامه وأحواله(٤).



---

(١) المقنع مع الشرح الكبير (٢٦/ ٢٤٣) (٤٣٩٩).

(٢) أخرجه البخاري كتاب الحدود باب رجم المحصن (٦٤٢٩) وانظر: (٤٩٦٩، ٤٩٧٠، ٦٤٣٤). ومسلم كتاب الحدود باب من اعترف علىٰ نفسه بالزنىٰ (١٦٩١).

(٣) الجامع لأحكام القرآن (١٢/ ١٦٠).

(٤) للاستزادة حول مسألة الاغتصاب يراجع شروح الموطأ باب ما جاء في المغتصبة (٢٠/ ٢٠٢-٢٠٩)، والمقنع مع الشرح الكبير (٢٦/ ٢٨٩-٢٩١).



المبحث الرابع
الحكمة من هذه العقوبة

«ليس من مصلحة المريض أن يعطي ما يشتهيه إن كان يضره، ومحبة الفواحش مرض في القلب، والعقوبات الشرعية أدوية نافعة»[١] ويتبين ذلك من خلال النقاط التالية:

١- الحكمة من التفريق بين عقوبة الزاني المحصن والزاني غير المحصن:

ولعل سبب ذلك أن الذي سبق له الوطء في نكاح صحيح قد عرف الطريق الصحيح النظيف وجرَّبه، فعدوله عنه إلىٰ الزنا يشير إلىٰ فساد فطرته وانحرافها، فهو جدير بتشديد العقوبة، بخلاف البكر الذي قد يندفع تحت ضغط الميل. وهناك أيضا فارق في طبيعة الفعل، فالمحصن ذو تجربة تجعله يتذوقه ويستجيب له بدرجة أعمق مما يتذوقه البكر فهو حري بعقوبة أشد. والله أعلم وأحكم.

٢- الحكمة من عدم الرأفة:

قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ «أي: لا تمتنعوا عن إقامة الحدود شفقة علىٰ المحدود، ولا تخففوا الضرب من غير إيجاع»[٢].

ذلك أن الرأفة بالزناة الجناة قسوة علىٰ المجتمع، وعلىٰ الآداب الإسلامية، وعلىٰ الضمائر البشرية، وهي رأفة مصطنعة، فالله أرأف بعباده، والله أعلم بمصالح العباد، وأعرف بطبائعهم. فليس لمتشدقٍ أن يتحدث عن قسوة العقوبةِ الظاهرةِ له بادئ الأمر، فهي أرأف مما ينتظر المجتمع الذي يشيع فيه الزنا وتفسد فيه الفطرة الإنسانية.

---

(١) فتاوىٰ شيخ الإسلام (١٥/ ٢٨٨).
(٢) الجامع لأحكام القرآن (١٢/ ١٦٥).

فالآية تخاطب أولئك الذين ينادون بعدم تطبيق الحدود، وذلك بدافع الرأفة والرحمة بالزناة مع أن الله تعالىٰ هو العليم بأحوال الناس وما يصلح حالهم والحكيم في الطريقة التي يعالج بها مشكلات عباده وما يقطع دابر الفساد في المجتمع. ولا يؤمن بهذه الأحكام إلا من آمن بالله تعالىٰ حق الإيمان وباليوم الآخر وما أعده الله للمفسدين في الأرض، ولذا ختم ربنا الآية وهو أحكم الحاكمين بقوله: ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾.

٣- الحكمة من أن يكون العذاب أمام مجموعة من المؤمنين:

قال تعالىٰ: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٢﴾ «أمر الله تعالىٰ بعقوبتهما وعذابهما بحضور طائفة من المؤمنين وذلك بشهادته علىٰ نفسه، أو بشهادة المؤمنين عليه، لأن المعصية إذا كانت ظاهرة، كانت عقوبتها ظاهرة»(١)، لأن الزنا لا يمكن إثباته إلا بأحد هذين الطريقين: شهادة الشهود الموصوفين شرعًا، أو إقراره علىٰ نفسه الصريح في ذلك وفق ضوابط الشرع، فالأمر البيِّن يستوجب العقوبة البينة الظاهرة، وهذا من كمال عدل الله سبحانه وتعالى.

وليكون لإيقاع العقوبة علىٰ الزاني أثر في نفس الزاني وأثر في نفوس المشاهدين، فيتعظ الزاني والمشاهدون، «وهذا فيه تنكيل للزانيين إذا جلدا بحضرة الناس، فإن ذلك يكون أبلغ في زجرهما، وأنجع في ردعهما، فإن في ذلك تقريعا وتوبيخا وفضيحة إذا كان الناس حضورا»(٢).

ولأن الزنا له آثاره السيئة علىٰ الفرد والمجتمع فينبغي المسارعة في العلاج وهذا العلاج يكون للفرد بالجلد أمام الناس، ويكون للمجتمع بوقايته من هذا الجرم برؤيتهم عقاب من يفعل ذلك، وذلك بلا شك يردعهم.

---

(١) فتاوىٰ شيخ الإسلام (١٥/ ٢٨٥).
(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٦/ ٨).

٤- الحكمة من التغريب:

وهو الثابت في السنة الصحيحة وذلك -والله أعلم- لأن الزاني عنصر فاسد في المجتمع فلو بقي في المجتمع لأفسده فيبعد عن المجتمع قبل أن يفسد غيره، فجعل الشارع جل وعلا هذا التغريب حفاظًا علىٰ المجتمع من الفساد، وتأديبًا للزاني حيث يكون بعيدًا عن الناس كلهم، غريبًا في الأرض، منبوذًا بين الناس، وتأديبا لكل من تسول له نفسه أن يفعل هذا الفعل أن جزاءه سيكون مثل هذا الزاني.

٥- الحكمة من تحريم الزاج بهما قبل التوبة:

والحكمة من ذلك -والله أعلم - كي لا يقع منهما ذلك بعد الزواج، وأيضًا كي لا تحصل بين الزوجين حياة غير مستقرة قائمة علىٰ الشك والريبة والظن السيئ في أي موقف من مواقف الحياة، فيتوقع الزوج أن زوجته تخونه، وتتوقع الزوجة أن زوجها يخونها. وهناك أثر علىٰ أولادهما فيما بعد، فهم قد يتأثرون بسلوك آبائهم إذا وجدوا منهم ذلك في سلوكم وتصرفاتهم.

ويمكن أن يقال أيضًا هذا عقاب من الله لأنهم استعجلوا بالحرام ولم يصبروا حتىٰ يجدوا الحلال، «ومن استعجل شيء قبل أو أنه عوقب بحرمانه»[١].

وقد بين شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ الحكمة من تحريم الزواج منهما قبل التوبة في كلام جميل جامع، فقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «لما أمر الله تعالىٰ بعقوبة الزَّانِيَيْن حرَّم مُنَاكَحَتَهُما علىٰ المؤمنين:

هَجْرًا لهما ولما معهما من الذنوب والسيئات، قال تعالىٰ: ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ۝٥﴾ [سورة المدثره]. وذلك أنَّ الزَّانِيَةَ فيها إفسَادُ فِرَاشِ الرَّجُلِ وَفِي مُنَاكَحَتِهَا مُعَاشَرَةُ الفَاجِرَةِ دَائِمًا وَمُصَاحَبَتُهَا، وَاللهُ قَدْ أَمَرَ بِهَجْرِ السُّوءِ وَأَهْلِهِ مَا دَامُوا عَلَيْهِ فَإِنَّ الزَّانِيَان قَرِينَا سُوءٍ.

(١) هذه قاعدة فقهية ذكرها السندي في حاشيته علىٰ ابن ماجة (٦/ ٣٥٦)، وابن نجيم في الأشباه والنظائر (١٥٩)، السيوطي في الأشباه والنظائر (١٥٢)، ود. مصطفىٰ مخدوم في كتابه قواعد الوسائل (٥٠٥). وفي غيرها من كتب العلم.

وقال تعالىٰ: ﴿ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ﴾ [سورة الصافات٢٢]، أي: عُشَرَاءَهُمْ وَقُرَنَاءَهُمْ وَأَشْبَاهَهُمْ وَنُظَرَاءَهُمْ، وَاللهُ تَعَالَىٰ قَدْ جَعَلَ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً، فَأَحَدُهُمَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ مَا يُحِبُّ لِلْآخَرِ، فَإِذَا رَضِيَتْ المرأةُ أَنْ تَنْكِحَ زَانِيًا فَقَدْ رَضِيَتْ عَمَلَهُ، وَكَذَلِكَ إِنْ رَضِيَ الرَّجُلُ أَنْ يَنْكِحَ زَانِيَةً فَقَد رَضِيَ عَمَلَهَا، وَمَنْ رَضِيَ الزِّنَا كَانَ بِمَنْزِلَةِ الزَّانِي، وَفِي الْحَدِيثِ: «**المرءُ علىٰ دين خليلِهِ**»[1]، وأعظَمُ الخلَّة خلَّةُ الزَّوجين.

نِكَاحُ الزَّانِيَةِ أَشَدُّ مِنْ جِهَةِ الْفِرَاشِ، وَنِكَاحُ الزَّانِي أَشَدُّ مِنْ جِهَةِ أَنَّهُ السَّيِّدُ الْمَالِكُ الْحَاكِمُ عَلَىٰ الْمَرْأَةِ، فَتَبْقَىٰ الْمَرْأَةُ الْحُرَّةُ الْعَفِيفَةُ فِي أَسْرِ الْفَاجِرِ الزَّانِي الَّذِي يُقَصِّرُ فِي حُقُوقِهَا وَيَتَعَدَّىٰ عَلَيْهَا.

واللهَ سبحانه قَدْ جَعَلَ فِي نُفُوسِ بَنِي آدَمَ الْغَيْرَةِ، فَإِذَا لَمْ يَكْرَهْ الرجل أَنْ تَكُونَ زَوْجَتُهُ بَغِيًّا فهُوَ دَيُّوثٌ، لا يستأمن علىٰ زوجةٍ ولا أولادٍ ولا أعراضٍ.

وَفِي الغالب أَنَّ الرَّجُلَ لا يَزْنِي بغير امرأته إلا إذا أعجبه ذلك الغيْرُ، فلا يَزَالُ يَزْنِي بما يُعجِبُهُ، فتبقىٰ امرأَتُهُ بمنزِلةِ المُعَلَّقَةِ التي لا هي أَيِّمٌ ولا ذاتُ زوجٍ، وقد يدعُوها ذلك إلىٰ الزِّنَا، ويكُونُ الْبَاعِثُ لها علىٰ ذلك مقابلةُ زوجها علىٰ وجه القصاص مُكَايِدَةً له ومُغَايَظَةً؛ فإنه ما لم يحفظ غيبها لم تحفظ غيبه، ولها في بُضْعِهِ حَقٌّ كما له في بُضْعِهَا حَقٌّ.

وهذه معانٍ شريفةٌ لا ينبغي إهمالُها»[2]. أ. هـ.



(١) أخرجه مالك في الموطأ (٣/ ٤١١) (٩٢٢)، وأبو داود كتاب الآداب باب من يؤمر أن يجالس (٤٨٣٣)، والترمذي أبواب الزهد باب (٤٥) (٢٣٧٨)، وأحمد في المسند (٢/ ٣٣٤) (٨٣١٨)، وعلق شعيب الأرناؤوط بقوله: إسناده جيد ورجاله ثقات رجال الشيخين. وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٩٢٧).

(٢) مجموع فتاوىٰ شيخ الإسلام (٣/ ٣٦٤) مختصرًا.

المبحث الخامس

أهم الوصايا لمكافحة الزنا

هذه بعض الوصايا الربانية للوقاية من وقوع فاحشة الزنا:

١- الوصية بالحجاب والنهي عن التبرج: قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ فَلَا يُؤۡذَيۡنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿٥٩﴾﴾ [سورة الأحزاب ٥٩]. وقال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَبَرَّجۡنَ تَبَرُّجَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ٱلۡأُولَىٰۖ﴾ [سورة الأحزاب ٣٣].

٢- غض البصر: قال تعالىٰ: ﴿قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ﴾ ﴿وَقُل لِّلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَغۡضُضۡنَ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِنَّ﴾.

٣- حفظ الفروج: قال تعالىٰ: ﴿قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ وَيَحۡفَظُواْ فُرُوجَهُمۡۚ ذَٰلِكَ أَزۡكَىٰ لَهُمۡۚ﴾ ﴿وَقُل لِّلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَغۡضُضۡنَ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِنَّ وَيَحۡفَظۡنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ وسيأتي بيانه، وقال تعالىٰ في وصف عباده: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ ﴿٧﴾﴾ [سورة المؤمنون ٥-٧] وقال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ ﴿٣١﴾﴾ [سورة المعارج ٢٩-٣١].

٤- البعد عن إظهار الزينة للنساء والبعد عن العمل علىٰ إظهارها: قال تعالىٰ ﴿وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنۡهَاۖ وَلۡيَضۡرِبۡنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّۖ وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ وسيأتي بيانه.

٥- الأمر بالقرار في البيت: ﴿وَقَرۡنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ [سورة الأحزاب ٣٣].

٦- تحريم الاختلاط بين النساء والرجال: قال ﷺ: «**إياكم والدخول علىٰ النساء. فقال رجل: أرأيت الحمو؟ فقال: الحمو الموت**»[١]، وأمرهن بالسير في حافة الطريق كما في الحديث، عن أبي أسيد الأنصاري أنه سمع رسول الله ﷺ يقول وهو خارج من المسجد فاختلط الرجال مع النساء في الطريق، فقال رسول الله ﷺ: «**استأخروا فإنه ليس لكن أن تحققن الطريق**[٢] **عليكن بحافات الطريق**»، فكانت المرأة تلتصق بالجدار حتىٰ إن ثوبها ليتعلق بالجدار من لصوقها به[٣].

٧- الأمر بالزواج والتيسير فيه: بل إن الله ﷻ تكفل بإغناء الذي يريد الزواج فقال تعالىٰ: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ﴾ وسيأتي بيانه.

وقال ﷺ: «**يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء**»[٤]، وقال ﷺ: «**إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد عريض**»[٥]. فلم يشترط المال الكثير ولا الحسب والنسب؛ وإنما اشترط [**الدين والخلق**] لأنهما أغلىٰ

---

(١) أخرجه البخاري كتاب النكاح باب لا يخلوا رجل بامرأة إلا ذوا محرم (٥٢٣٢). ومسلم كتاب السلام باب تحريم الخلوة بالأجنبية والدخول عليها (٢١٧٢).

(٢) أن تحققن الطريق: وهو أن يركبن حُقَّها وهو وسطها، عون المعبود (١٤/ ١٢٧).

(٣) أخرجه أبو داود في أبواب النوم باب في مشي النساء مع الرجال فيي الطريق (٥٢٧٢)، والطبراني (١٤/ ١٦١) (١٥٩٢٣)، والبيهقي في الشعب (٧٨٢١-٧٨٢٣)، قال الألباني «الحديث حسن بمجموع الطريقين» الصحيحة (٨٥٦)، والمشكاة (٤٧٢٧)، وصحيح الجامع (٩٢٩).

(٤) أخرجه البخاري كتاب الصيام باب الصوم لمن خاف علىٰ نفسه العزوبة (١٩٠٥). صحيح مسلم كتاب النكاح باب استحباب النكاح لمن طاقت نفسه إليه ووجد مؤنه واشتغال من عجز عن المؤونة بالصوم (١٤٠٠).

(٥) أخرجه الترمذي كتاب النكاح باب ما جاء إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه (١٠٨٤)، وأبو داود كتاب النكاح باب الكفاءة (١٩٦٧)، وحسنه الألباني في مشكاة المصابيح (٣٠٩٠)، وإرواء الغليل (٦/ ٢٦٦-٢٦٧).

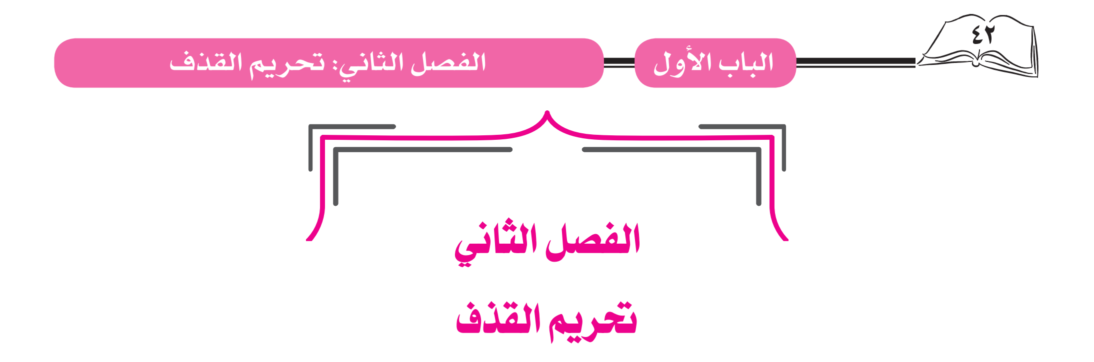
مهر تُمْهر به امرأة؛ لأنه سيبقىٰ معها طوال حياتهما، أما المال فإنه يأتي ويذهب.

٨- الصوم: «**يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج؛ فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وِجَاء**»، وهذا صريح في صرف الطاقة في المندوب إليه؛ إن لم يستطع صرفها في الحلال، فيُشغل نفسه بطاعة الله، ويُذهب قوته وشَرَه شهوته في تلك الطاعة التي هي دواءٌ للشهوة وللنفس، وكبحٌ لجماحها وجماح وسوسة الشيطان أيضًا.

٩- الاشتغال بالواجب علىٰ المرء المسلم: ولذا قال الله تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾﴾ فمن قام بالواجب عليه في دينه ودنياه لم يكن للشيطان عليه سبيل لإغوائه وتزيين المحرمات له ولوسوسته قال تعالىٰ ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [سورة يس٦٠-٦٢].

ومن اعتصم بحبل الله عصمه الله ومن تولىٰ ربه كفاه الشياطين، ولذا لا بد من اللجوء إلىٰ الله وإخبات القلب له بأنواع العبادات واشتغال العبد بذكره وشكره والنظر والاعتبار في آياته.





الفصل الثاني

تحريم القذف

قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةٗ وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً أَبَدٗاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٥﴾ وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ وَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمۡ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمۡ أَرۡبَعُ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَٱلۡخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدۡرَؤُاْ عَنۡهَا ٱلۡعَذَابَ أَن تَشۡهَدَ أَرۡبَعَ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٨﴾ وَٱلۡخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٩﴾ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾.

ويتبين ذلك من خلال المبحثين التاليين:

١- معنىٰ القذف وأحكامه.

٢- عقوبة القاذف.



المبحث الأول

معنى القذف وأحكامه

أولًا: معنىٰ القذف:

القذف لغة: الرمي بالشيء.

و«أصل القذف الرمي بالحجارة، والقذف بالزنا مأخوذ من هذا المعنىٰ»[١].

وفي الشرع: الرمي بوطء يوجب الحد علىٰ المقذوف[٢].

وعند الفقهاء: الرمي بالزنا أو اللواط[٣].

«واستعمال كلمة ﴿يَرۡمُونَ﴾ بدل من **يتهمون** في هذه الآيات تغليظا لأمر القذف، وكأن من اتهم أخاه في عرضه فكأنما رماه بسهم قاتل. وقديما قيل: كلام اللسان أنكىٰ من كلام السنان»[٤].

ثانيًا: حكم القذف:

إن الإسلام يستهدف حماية أعراض الناس، والمحافظة علىٰ سمعتهم وصيانة كرامتهم، ولذا فهو يمنع ضعاف النفوس أن يجرحوا مشاعر الناس ويتكلموا في أعراضهم ويشدد في هذا أشد التشديد.

فهو يحرم القذف تحريما قاطعًا، ويجعله كبيرة من كبائر الإثم والفواحش،

---

(١) الملخص الفقهي (٢/ ٤٢٧).

(٢) سبل السلام (١/ ١٩٠).

(٣) المغني (١٢/ ٣٨٣).

(٤) من لطائف التفسير (٢/ ٤٠٨).

ويصف فاعله بالفسق، ويرتب عليه عقوبة في الدنيا قبل الآخرة قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةٗ وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً أَبَدٗاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ٤﴾.

فهذا هو الحد في الدنيا أما في الآخرة فيقول الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡغَٰفِلَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ٢٣ يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٢٤ يَوۡمَئِذٖ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلۡحَقَّ وَيَعۡلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ ٱلۡمُبِينُ ٢٥﴾.

وقد جمع الله تعالىٰ في كتابه بين عذاب الدنيا والآخرة للقاذف، فقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلۡفَٰحِشَةُ فِي ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ١٩﴾ [سورة النور ١٩].

وقال رسول الله ﷺ: «**اجتنبوا السبع الموبقات. قالوا وما هن يا رسول الله؟ قال: الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات**»(١).

وقد أجمع المسلمون علىٰ تحريم القذف، وعدوه من الكبائر(٢)، وهذا القذف له ضوابط لكي يحكم عليه أنه قذف يستحق الحد نلخصها فيما يلي:

أولًا: شروط القذف:

منها ما يجب توافرها في القاذف وهي: العقل، والبلوغ، والاختيار.

ومنها ما يجب توافرها في المقذوف وهي: العقل، والبلوغ، الإسلام، والحرية، العفة.

ومنها ما يجب توفره في المقذوف به وهي: التصريح بالزنا أو التعريض الظاهر ويستوي في ذلك القول والكتابة.

(١) أخرجه البخاري كتاب الحدود باب رمي المحصنات (٦٨٥٧). ومسلم كتاب الإيمان باب بيان الكبائر وأكبرها (٨٩).

(٢) الملخص الفقهي (٢/ ٤٢٧).

ثانيًا: بم يثبت حد القذف؟:

يثبت الحد علىٰ القاذف بأحد أمرين:

١- إقرار القاذف نفسه.

٢- أو بشهادة عدلين[١].

وبهذه الأمور يكون ذلك التحريم الموجب للحد الذي سيأتي بيانه إنشاء الله.

ثالثًا: خطورة القذف:

إن الإسلام يكره البذاءة وإشاعة الفاحشة بين المسلمين، ويربي أفراد الأمة علىٰ الأدب وعفة اللسان، وذلك لأن إشاعة الفاحشة في المجتمع المسلم تورث العداوات بين أصحاب المجتمع، وتدنس صورة المجتمع بالكلام في الأعراض.

إن ترك الألسنة تُلقي التهم علىٰ المحصنات بدون دليل قاطع؛ يترك المجال فسيحا لكل من شاء أن يقذف بريئة أو بريئا بتلك التُهمة النكراء، فيُصبح المجتمع المسلم ويمسي وإذا أعراضه مجروحة، وسمعته ملوثة، وإذا كل فرد فيه متهم أو مهدد بالاتهام، وإذا كل زوج فيها شاكٍ في زوجته، وكل رجلٍ فيها شاك في أصله، وكل بيتٍ فيها مهددٌ بالانهيار.

وأيضًا فإن كثرة سماع التهم في ارتكاب هذه الجريمة: يوحي إلىٰ الذين لا يفعلون هذه الجريمة أن جو المجتمع ملوثٌ والجريمة منتشرةٌ فيه، فيُقدم هو أيضًا علىٰ تلك الفعلة! وتهون في نفسه بشاعتها، بكثرة تردادها، وشعوره أن كثيرًا ممن حوله يعملونها.

فلو كان المجتمع بهذا الوصف فهو مجتمع تسوء الحياة فيه، فهو في اضطراب

---

(١) هذا مختصر ما ذكره العلماء في كتب الفقه، ولم أتوسع في الأحكام؛ لكثرة المسائل فيه، ولعدم الإطالة، وللاستزادة انظر: فقه السنة (٢/ ٥٨٨-٥٩٤)، والملخص الفقهي (٢/ ٤٢٧-٤٢٨)، والمقنع (٣٤٨-٣٥٩) وغيرها من كتب الفقه.

وخوف دائم، كل واحد فيه لا يأمن أن يقذفه آخر، ثم قد لا يجد من يصدق أنه بريء. ومن ثم قد تُجَرأ من لم يفعل تلك الفاحشة علىٰ فعلها مع كثرة سماعه أن غيره يفعلها، ويسهل علىٰ المجتمع أن يصدق مثل تلك الإشاعات، وتلوك الألسن أعراض المسلمين والمسلمات بلا ثمن.





المبحث الثاني
عقوبة القاذف

صيانةً للمجتمع المسلم من أن يشيع فيه الحديث في الأعراض، وحمايةً لأصحاب الأعراض من الاتهامات التي قد يتهمون بها شدد الله ﷻ علىٰ أمر القذف وجعل عقوبته قريبة من عقوبة الزنىٰ، فقد جاءت هذه الآيات ببيان أحكام القذف وعقوبة القاذف. فأحكام القذف في الآية تدور حول قذف المحصنات وقذف الرجل لزوجته، وبيان ذلك كما يأتي:

المطلب الأول
عقوبة قذف المحصنات المؤمنات الغافلات

قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةٗ وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً أَبَدٗاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ٤﴾

«هذه الآية فيها بيان حكم جلد القاذف للمحصنة وهي الحرة البالغة العفيفة، وإن كان المقذوف رجلا فكذلك؛ يجلد قاذفه، فأما إن أقام القاذف بينة علىٰ صحة ما قال، رُدَّ عنه الحد»[١]. ومن الآيات الكريمة يمكن أن نستنتج الأحكام الآتية:

أولًا: العقوبة المترتبة علىٰ القذف:

«**القاذف**: المكلف المختار الذي لا يأتي ببينة علىٰ قذفه لعاقل بالغ مسلم حر

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٦/ ١٣).

عفيف بالزنا أو اللواط»[١] رتب الشارع عليه ثلاث عقوبات:

- أن يجلد ثمانين جلدة.
- أن لا تقبل شهادته أبدا.
- حَكَم الله عليه بالفسق.

«ولا فرق بين كون المقذوف ذكرًا أو أنثىٰ، وإنما خص النساء بالذكر لخصوص الواقعة ولأن قذف النساء أشنع وأغلب»[٢].

والعقوبة الأولىٰ جسدية.

والثانية أدبية في وسط المجتمع، ويكفي أن يهدر قول القاذف فلا يؤخذ له بشهادة، وأن يسقط اعتباره بين الناس ويمشي بينهم متهم لا يوثق له بكلام.

والثالثة دينية: فهو منحرف عن الإيمان خارج عن طريقه المستقيم.

ثانيًا: القاذف الذي يأتي ببينة ترد عنه الحد:

ولكن ما هي البيِّنة التي ترد الحد عن القاذف؟

البيِّنة وهي كما ورد في نص الآية والحديث[٣]: «أن يأتي بأربعة شهداء، يصفون وقوع حالة الزنا- أو اللواط. لأن الشهداء ينفون عنه صفة القذف، ويثبتون صدور الزنا.

أو: إذا أقر المقذوف بالزنا، واعترف بما رماه به القاذف.

ولكن: إذا قذفت المرأة زوجها فإنه يقام عليها الحد إذا توفرت شروطه ولم تأت

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٢/ ١٧٣)، في ذكر الشروط في القاذف والمقذوف.

(٢) الملخص الفقهي (٢/ ٤٢٧).

(٣) الأثر عن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في قصة من شهدوا بمكة ولم يشهد الرابع، أخرجه الطحاوي في شرح معاني الآثار (٢/ ١٥٣) (٥٦٧٩)، وقد ورد أيضًا أنهم شهدوا عنده. أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٧/ ٣١١) (٧٢٢٧).

ببينة، بخلاف ما إذا قذفها هو ولم يقم عليها بينة، فإنه لا يقام عليه الحد، وإنما يتلاعنان كما سيأتي»[١].

ثالثًا: الحكمة من تشديد البيِّنَة[٢]:

ولكن قد يأتي سؤال يعلق بالذهن وهو:

إن الله ﷻ جعل إثبات الزنا صعبًا وجعل بينته تكاد مستحيلة، فمعلوم أن الذي يقترف فاحشة مثل الزنا يكون في غاية من التستر، فشهود أربع علىٰ هذه العملية في وضوح تام قد لا يقع ولا يحصل!! فما السبب في هذا التشديد الكبير في البينة؟

«السبب في ذلك والله أعلم: أن الله تعالىٰ هو أهل التقوىٰ وأهل المغفرة يعفوا عن الذنب ويستر العيب، فلو تساهل الشرع في بينة الزنا لشاع القذف، وسهل علىٰ البعض أن يكيدوا للآخرين، ثم إن الذي لا يجاهر بالمعصية فيستره الله تعالىٰ ثم يتبع السيئة الحسنة، فإن الذي ستره في الدنيا هو أكرم من أن يفضحه في الآخرة. إن المقصد الجليل للشارع الحكيم هو: ألا تشيع الفاحشة وتظهر في الشوارع، وتشيع علىٰ ألسنة الناس؛ حتىٰ تصبح شيئًا مألوفًا بينهم، فتهبط بهم إلىٰ مستوىٰ الحيوانات! وهذا هو الذي لا يرضاه الشارع الحكيم»[٣].

وكما أن العقوبة شديدة فلأن تكون البينة عليها شديدة من باب أولىٰ.

ولأن الذي يفعل الزنا برؤية أربعة شهود له ووصف حالته هذا إنسان مجاهر المعصية، ويندر أن يتوب منها، وضرره عام للجمع لأنه أظهره واقتدىٰ به آخرون، أما الذي يفعلها وهو متستر فليس بمجاهر بها، وربما يتوب إلىٰ الله فيتوب الله عليه، والله

(١) فقه السنة (٢/ ٥٩٨).

(٢) سيأتي الحديث عن الإشاعة وخطورتها وأهمية التوثق في الأخبار، وسيتضح أمر التشديد في البينة من ذلك إنشاء الله، وما ذُكر إلا إشارة فقط، والله أعلم.

(٣) من لطائف التفسير (٢/ ٤١١)، بتصرف.

تعالىٰ أمرنا بعدم تتبع عورات أحد من المسلمين، ما لم يظهر سوءًا أو يترتب علىٰ أفعاله سوءًا.

رابعًا: التوبة من القذف:

قال تعالىٰ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥﴾.

«التوبة في هذا الموضع، أن يكذب القاذف نفسه، ويقر أنه كاذب فيما قال، وهو واجب عليه أن يكذب نفسه ولو تيقن وقوعه حيث لم يأت بأربعة شهداء»[1]، لأن إعلان براءة المقذوف باعتراف مباشر من القاذف يمحي أثر القذف، ولا يقال: إنه إنما وقع الحد علىٰ القاذف لعدم كفاية الأدلة أو أن الاتهام ربما يكون صحيحا، وبذلك يبرأ العرض تماما.

فإذا حصل ذلك فتاب توبة نصوحًا زال عن القاذف الفسق، وكذلك تقبل شهادته علىٰ الصحيح لأن الاستثناء في قوله تعالىٰ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟﴾ راجع إلىٰ عدم قبول الشهادة والتوبة في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ۝٤﴾ فيشمل قبول الشهادة والتوبة[2]، فإن الله يغفر الذنوب جميعًا لمن تاب وأناب.



(١) تيسير الكريم الرحمن للسعدي (ص٥١٠).

(٢) وهذا رأي مالك والشافعي وأحمد والليث وعطاء وسفيان بن عيينة والشعبي وسالم والزهري. وانظر: فقه السنة (٢/ ٥٩٦).



المطلب الثاني

قذف الرجل زوجته

جعل الله تعالىٰ هذا القذف نوعًا خاصًا له أحواله وظروفه[١] قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ وَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمۡ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمۡ أَرۡبَعُ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٦ وَٱلۡخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٧ وَيَدۡرَؤُاْ عَنۡهَا ٱلۡعَذَابَ أَن تَشۡهَدَ أَرۡبَعَ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٨ وَٱلۡخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٩ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ١٠﴾.

«هذه الآية الكريمة فيها فرج للأزواج وزيادة مخرج، وإذا قذف أحدهم زوجته وتعسر عليه إقامة البينة، أن يلاعنها كما أمر الله»[٢]. ونجمل أحكام قذف الرجل زوجته في النقاط التالية:

أولًا: سبب نزول الآيات:

ورد في السنة سبب نزول آيات اللعان، ففي البخاري عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: أن هلال بن أمية قذف امرأته عند رسول الله بشريك بن سحماء. فقال النبي ﷺ: «**البينة، أو حَدٌّ في ظهرك**» فقال: يا رسول الله إذا رأىٰ أحدنا علىٰ امرأته رجل ينطلق يلتمس البينة؟ فجعل النبي ﷺ يقول: «**البينة، وإلا حَدٌّ في ظهرك**»، فقال هلال: والذي بعثك بالحق إني لصادق، فلينزلن الله ما يبرئ ظهري من الحد. فنزل جبريل، وأنزل عليه: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ﴾ فقرأ حتىٰ بلغ ﴿إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٩﴾، فانصرف النبي ﷺ،

(١) كما صح بذلك الخبر في سبب النزول لهذه الآيات.
(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٦/ ١٤).

فأرسل إليها، فجاء هلال فشهد والنبي ﷺ يقول: إن الله يعلم أن أحدكما لكاذب، فهل منكما تائب؟ ثم قامت فشهدت! فلما كانت عند الخامسة وقفوها، وقالوا: إنها موجبة -قال ابن عباس: فتلكأت ونكصت حتىٰ ظننا أنها ترجع- ثم قالت: لا أفضح قومي سائر اليوم، فمضت. فقال النبي ﷺ: أبصروها؛ فإن جاءت به أكحل العينين، سابغ الإليتين، خدلج الساقين، فهو لشريك بن سحماء! فجاءت به كذلك، فقال النبي ﷺ: «**لولا ما مضىٰ من كتاب الله لكان لي ولها شأن**»(١).

ثانيًا: ما هو اللعان:

«اللعان مأخوذ من اللعن لأن الملاعن يقول في الخامسة: أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين»(٢).

ثالثًا: كيفية اللعان:

أن يحلف الرجل الذي رمىٰ زوجته أمام القاضي- أو من يقوم مقامه- أربع مرات إنه لمن الصادقين، والخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين، وأن تحلف المرأة لتكذب زوجها في رميها بالزنا أربع مرات إنه لمن الكاذبين، والخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين. وذلك كما ورد في الآية.

رابعًا: لماذا خصصت المرأة بالغضب إن كان زوجها صادقًا:

والحكمة في تخصيص المرأة بالغضب من الله إن كان زوجها صادقًا: «لأن الغالب أن الرجل لا يتجشم فضيحة أهله ورميها بالزنا إلا وهو صادق معذور، وهي تعلم صدقه فيما رماها به، ولهذا كانت الخامسة في حقها أن غضب الله عليها، فالمغضوب

---

(١) أخرجه البخاري كتاب التفسير باب قول الله تعالىٰ ﴿وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٨﴾﴾ (٤٧٤٧). ولمزيد من معرفة أحكام الحديث انظر فتح الباري (٨/ ٣٠٤-٣٠٥).

(٢) فقه السنة (٢/ ٤٥٩).

عليه هو الذي يعلم الحق ثم يحيد عنه»[(١)].

خامسًا: وماذا بعد اللعان:

«إذا تلاعن الزوجان يفرق بينهما، فلا يجتمعان أبدا ولا يتوارثان، ولا يحل له مراجعتها أبدا»[(٢)]، فلا رجعة ولا نكاح جديد مهما كان الحال فيصبح تحريمها عليه تحريمًا مؤبدًا.

سادسًا: ختام هذا البيان:

ثم قال تعالىٰ في ختام هذا البيان: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾.

«أي: من رحمته سبحانه وفضله وحكمته ثبوت هذا الحكم الخاص بالزوجين لشدة الحاجة إليه، وأن بين لكم شدة الزنا وفظاعته، وفظاعة القذف به، والتشديد علىٰ البينة فيه، وأيضا أن شرع لكم التوبة من هذه الكبائر ونحوها»[(٣)].

وبهذا تتضح صورة أحكام القذف والزنا، ولكن لا يزال الحديث عن حفظ الأعراض كما سيأتي بمشيئة الله في الفصل التالي.



(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٦/ ١٥).
(٢) الجامع لأحكام القرآن (١٢/ ١٩٣). هذا ما عليه جمهور العلماء ولكن الخلاف في الوقت الذي يفترقان فيه وقد أورد صاحب الجامع لأحكام القرآن أقوال الأئمة في ذلك فللاستزادة يرجع إليه: (١٢/ ١٩٣).
(٣) تيسير الكريم الرحمن للسعدي (ص٥١١).

الفصل الثالث

موقف المسلم من الشائعات

المبحث الأول

حادثة الإفك مثال تطبيقي

قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾ وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾.

بعد الانتهاء من الحديث عن القذف يورد الله ﷻ مثالًا تطبيقيًا للقذف يبين الأثر لتلك الاتهامات علىٰ الفرد والمجتمع، فهذه الاتهامات تسري بين الناس ويتحدث

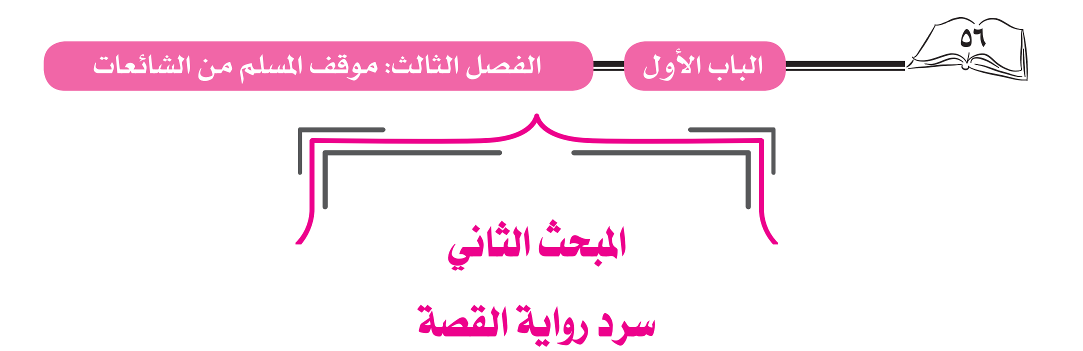
الناس بها وهم لا يعرفون ما وراء هذه الإشاعة من أخطار تهدد الفرد نفسه، وتهدد المجتمع كله. فكم أقلقت الإشاعة من أبرياء، وحطمت من عظماء، وهدمت علاقات، وتسببت في جرائم، وفككت من علاقات وصداقات، وكم هزمت من جيوش، وأخرت من سير أقوام؟!.

فهذا النموذج يكشف شناعة الجرم وبشاعته وهو يتناول بيت النبوة الطاهر، وعرض رسول الله ﷺ، وعرض صديقه الصدِّيق أبىٰ بكر رضي الله عنه، وعرض ابنة الصدِّيق وأم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، وصحابي من خيرة الصحابة وهو صفوان بن معطل رضي الله عنه.

حادث الإفك كلَّف أطهر النفوس في تاريخ البشرية كلها آلامًا، وكلَّف الأمة المسلمة تجربةً من أشق التجارب في تاريخها، وعلَّق قلب رسول الله ﷺ وقلب زوجته عائشة وقلب أبي بكر وقلب صفوان بن معطل رضي الله عنهم شهرا كاملا، علَّقها بحبال الشك والقلق والألم الذي لا يطاق.

سنتعرض لهذه الحادثة لنعرف شناعة هذه الإشاعات التي تتعلق بالأعراض ومدىٰ تأثيرها علىٰ الأفراد المتهمين فيها، ومدي تأثيرها علىٰ المجتمع ككل، ثم نعرف ما هو الموقف الصحيح من هذه الافتراءات.

وقبل الدخول في هذا كله نريد أن نعرف القصة بكاملها علىٰ لسان صاحبة القصة والمتهمة البريئة الأولىٰ، فيها ألا وهي السيدة عائشة رضي الله عنها، وذلك في المبحث التالي:



المبحث الثاني

سرد رواية القصة

عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: كان رسول الله ﷺ إذا أراد سفرا أقرع بين نسائه، فأَيَّتُهُنَّ خرج سهمها خرج بها معه؛ وإنه أقرع بيننا في غزاة فخرج سهمي، فخرجت معه بعد ما أنزل الحجاب، وأنا أُحمل في هودج، وأنزل فيه. فسرنا حتىٰ إذا فرغ رسول الله ﷺ من غزوته تلك، وقفل، ودنونا من المدينة آذن ليلة بالرحيل؛ فقمت حين آذنوا بالرحيل، حتىٰ جاوزت الجيش. فلما قضيت من شأني[1] أقبلت إلىٰ الرحل، فلمست صدري، فإذا عقد لي من جزع أظفار[2] قد انقطع، فرجعت فالتمسته فحبسني ابتغاؤه؛ وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلونني، فاحتملوا هودجي[3]، فرحلوه علىٰ بعيري، وهم يحسبون أني فيه؛ وكان النساء إذ ذاك خفافًا لم يُثقلهنَّ اللحم؛ وإنما نأكل العلقة من الطعام؛ فلم يستنكر القوم حين رفعوه خفة الهودج، فحملوه؛ وكنت جارية حديثة السن؛ فبعثوا الجمل وساروا، فوجدت عقدي، بعدما استمر الجيش، فجئت منزلهم، وليس فيه أحد منهم، فتيممت منزلي الذي كنت فيه، وظننت أنهم سيفقدونني فيرجعون إليَّ.

فبينما أنا جالسة غلبتني عيناني فنمت، وكان صفوان بن المعطل السلمي ثم

---

(١) من شأني: أي من قضاء الحاجة، فتح الباري (٧/ ٣١٣).

(٢) جزع أظفار: أي أن عقدها كان من أنواع القسط وهو طيب الرائحة يتبخر به، فلعله عمل مثل الخرز فأطلقت عليه جزعًا تشبيهًا به، ونظمته قلادة إما لحسن لونه أو طيب ريحه. الفتح (٧/ ٣١٣).

(٣) هودجي: الهودج محمل له قبة تستر بالثياب ونحوه، يوضع علىٰ ظهر البعير يركب عليه النساء ليسترهم. الفتح (٧/ ٣١٢).

الذكواني قد عرس[١] وراء الجيش، فأدلج[٢]، فأصبح عند منزلي؛ فرأىٰ سواد إنسان نائم، فأتاني فعرفني حين رآني. وكان يراني قبل الحجاب. فاستيقظت باسترجاعه حين عرفني، فخمرت وجهي بجلبابي؛ والله ما يكلمني بكلمة، ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه؛ وهوىٰ حتىٰ أناخ راحلته، فوطئ ء علىٰ يديها، فركبتها، فانطلق يقود بي الراحلة، حتىٰ أتينا الجيش، بعد ما نزلوا معرسين.

قالت: فهلك في شأني من هلك، وكان الذي تولىٰ كبر الإثم عبدالله بن أبي بن سلول؛ فقدمنا المدينة، فاشتكيت بها شهرًا؛ والناس يفيضون في قول أصحاب الإفك ولا أشعر. وهو يريبني في وجعي أني لا أرىٰ من النبي ﷺ اللطف الذي كنت أرىٰ منه حين أشتكي، إنما يدخل فيسلم ثم يقول: كيف تيكم؟ ثم ينصرف. فذلك الذي يريبني منه، ولا أشعر بالشر حتىٰ نَقَهْتُ[٣]، فخرجت أنا وأم مسطح قِبَل المناصع[٤] وهو متبرَزُنا، وكنا لا نخرج إلا ليلًا إلىٰ ليلٍ، وذلك قبل أن نتخذ الكنف[٥]، وأمرنا أمر العرب الأول في التبرز قبل الغائط. فأقبلت أنا وأم مسطح - وهي ابنة أبي رهم بن المطلب بن عبد مناف وأمها بنت صخر بن عامر خالة أبي بكر الصديق رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وابنها مسطح بن أثاثه بن عبَّاد بن المطلب - حين فرغنا من شأننا نمشي. فعثرت أم مسطح في مرطها فقالت: تعس مسطح! فقلت لها: بئسما قلت: أتسبين رجلا شهد بدرا؟ فقالت: يا هنتاه[٦] ألم تسمعي ما قال؟ فقلت: وما قال؟ فأخبرتني بقول أهل الإفك،

---

(١) عرس: التعريس هو النزول ليلاً، والمراد هنا: أنه نزل يتتبع أثر الجيش فمن سقط له شيء أتاه به. الفتح (٧/ ٣١٦).

(٢) فأدلج: أي سار في آخر الليل، وكأنه تأخر في مكانه حتىٰ قرب الصبح فركب ليظهر له ما سقط من القوم. الفتح (٧/ ٣١٦).

(٣) نقهت والنقاهة؛ أي: الذي أفاق من مرضه ولم تتكامل صحته. الفتح (٧/ ٣٢٠).

(٤) قِبَل المناصع: أي جهتها، والمناصع: صعيد أفيح خارج المدينة. الفتح (٧/ ٣٢٠).

(٥) الكنف: أماكن مغلقة لقضاء الحاجة، وهي في الوقت الحاضر تسمىٰ (دورات المياه).

(٦) هنتاه: حرف نداء للبعيد وقد يستعمل للقريب حيث ينزل منزلة البعيد، وهنا أم مسطح نسبت عائشة

فازدّت مرضًا إلىٰ مرضي. فلما رجعت إلىٰ بيتي دخل رسول الله ﷺ فقال: كيف تيكم؟ فقلت: ائذن لي أن آتي أَبَوَيَّ. وأنا حينئذ أريد أن أستيقن الخبر من قبلهما. فأذن لي، فأتيت أَبَوَيَّ، فقلت لأمي: يا أمتاه ماذا يتحدث الناس به؟ فقالت: يا بنَيَّة هوني علىٰ نفسك الشأن، فوالله لقلّما كانت امرأة قط وضيئةً عند رجلٍ يحبُّها ولها ضرائر إلا أكثرن عليها. فقلت: سبحان الله! ولقد تحدث الناس بهذا!! قالت: فبكيت تلك الليلة حتىٰ أصبحت لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم، ثم أصبحت أبكي.

فدعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب وأسامة بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا حين استلبث الوحي يستشيرهما في فراق أهله. قالت: فأما أسامة فأشار عليه بما يعلم من براءة أهله، وبالذي يعلم في نفسه من الود لهم. فقال أسامة: هم أهلك يا رسول الله، ولا نعلم والله إلا خيرا. وأما علي بن أبي طالب فقال: يا رسول الله لم يضيق الله عليك، والنساء سواها كثير، وسل الجارية تخبرك. قالت: فدعا رسول الله ﷺ بريرة، فقال لها: أي بريرة، هل رأيت فيها شيئا يريبك؟ فقالت: لا والذي بعثك بالحق نبيًا، إن رأيت منها أمرًا أغمصه عليها أكثر من أنها جاريةٌ حديثة السن تنام عن عجين أهلها، فتأتي الداجن فتأكله.

قالت: فقام رسول الله ﷺ من يومه، واستعذر من عبدالله بن أبي بن سلول. فقال وهو علىٰ المنبر: من يعذرني من رجل بلغني أذاه في أهلي؟ فوالله ما علمت علىٰ أهلي إلا خيرًا. ولقد ذكروا رجلا ما علمت عليه إلا خيرا، وما كان يدخل علىٰ أهلي إلا معي. قالت: فقام سعد بن معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقال: يا رسول الله أنا والله أعذرك منه. إن كان من الأوس ضربنا عنقه، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا فيه أمرك. فقام سعد بن عبادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو سيد الخزرج، وكان رجلا صالحا ولكن أخذته الحمية. فقال لسعد بن معاذ: كذبت لعمر الله، لا تقتله ولا تقدر علىٰ ذلك. فقام أسيد بن حضير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو ابن عم سعد بن معاذ فقال لسعد بن عبادة: كذبت - لعمر الله - لنقتلنَّه،

إلىٰ الغفلة عما قيل فيها فخاطبتها خطاب البعيد. فتح الباري (٧/ ٣٢٢).

فإنك منافق تجادل عن المنافقين. فثار الحيان - الأوس والخزرج - حتىٰ هموا أن يقتتلوا، ورسول الله ﷺ علىٰ المنبر، فلم يزل يخفضهم حتىٰ سكتوا ونزل.

وبكيت يومي ذلك لا يرقأ لي دمع، ولا أكتحل بنوم. ثم بكيت ليلتي المقبلة لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم. فأصبح أبواي عندي، وقد بكيت ليلتين ويومًا، حتىٰ أظن أن البكاء فالق كبدي. فبينما هما جالسان عندي وأنا أبكي إذ استأذنت امرأة من الأنصار، فأذنت لها، فجلست تبكي معي.

فبينما نحن كذلك إذ دخل علينا رسول الله ﷺ، ثم جلس، ولم يجلس عندي من يوم قيل في ما قيل قبلها، وقد مكث شهرا لا يوحىٰ إليه في شأني بشيء، فتشهد حين جلس، ثم قال: أما بعد فإنه بلغني عنك كذا وكذا. فإن كنت بريئة فسيبرئك الله تعالىٰ، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله تعالىٰ وتوبي إليه، فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب، تاب الله تعالىٰ عليه. فلما قضىٰ رسول الله ﷺ مقالته قلص[1] دمعي حتىٰ ما أحس منه بقطرة. فقلت لأبي: أجب عني رسول الله ﷺ فيما قال. قال: والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ. فقلت لأمي: أجيبي عني رسول الله ﷺ فيما قال. قالت: والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ. قالت: وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ كثيرا من القرآن. فقلت: إني والله أعلم أنكم سمعتم حديثا تحدث الناس به، واستقر في نفوسكم، وصدقتم به. فلئن قلت لكم: إني بريئة لا تصدقوني بذلك. ولئن اعترفت لكم بأمر والله يعلم أني منه بريئة، لتصدقنني. فوالله مما أجد لي ولكم مثلا إلا أبا يوسف إذ قال: ﴿فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ١٨﴾ [سورة يوسف ١٨].

ثم تحولت فاضطجعت علىٰ فراشي، وأنا والله حينئذ أعلم أني بريئة، وأن الله تعالىٰ مبرئي ببراءتي. ولكن والله ما كنت أظن أن ينزل الله تعالىٰ في شأني وحيا يتلىٰ؛

---

(١) قلص دمعي: أي انقطع، قال القرطبي: إن الحزن والغضب إذا أخذ أحدها فقد الدمع لفرط حرارة المصيبة. الفتح (٧/ ٣٣٢).

ولشأني في نفسي كان أحقر من أن يتكلم الله تعالىٰ في بأمر يتلىٰ؛ ولكن كنت أرجو أن يرىٰ رسول الله ﷺ في النوم رؤيا يبرئني الله تعالىٰ بها. فوالله ما رام[١] مجلسه، ولا خرج أحد من أهل البيت، حتىٰ أنزل الله تعالىٰ علىٰ نبيه ﷺ فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء[٢]، فسري عنه[٣]، وهو يضحك، فكان أول كلمة تكلم بها أن قال لي: يا عائشة احمدي الله تعالىٰ فإنه قد برأك. فقالت لي أمي: قومي إلىٰ رسول الله ﷺ فقلت: والله لا أقوم إليه، ولا أحمد إلا الله تعالىٰ، هو الذي أنزل براءتي فأنزل الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم...﴾ العشر الآيات.

فلما أنزل الله تعالىٰ هذا في براءتي قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه وكان ينفق علىٰ مسطح بن أثاثه لقرابته منه وفقره: والله لا أنفق علىٰ مسطح شيئًا أبدا بعد ما قال لعائشة رضي الله عنها فأنزل الله تعالىٰ: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ فقال أبو بكر رضي الله عنه بلىٰ والله إني لأحب أن يغفر الله لي، فرجع إلىٰ مسطح النفقة التي كان يجري عليه، وقال: والله لا أنزعها منه أبدًا.

قالت عائشة رضي الله عنها: وكان رسول الله ﷺ سأل زينب بنت جحش عن أمري، فقالت: يا رسول الله أحمي سمعي وبصري، والله ما علمت عليها إلا خيرًا. وهي التي كانت تساميني[٤] من أزواج النبي ﷺ فعصمها الله تعالىٰ بالورع. قالت: فطفقت أختها حمنة تحارب لها، فهلكت فيمن هلك من أصحاب الإفك»[٥].



(١) ما رام، رام: فارق، والمعنىٰ ما فارق مجلسه. الفتح (٧/ ٣٣٣).
(٢) البرحاء: شدة الحر وقيل شدة الحمىٰ وقيل شدة الكرب ويكون عنده العرق دائمًا. الفتح (٧/ ٣٣٤).
(٣) سري عنه: أي كشف، الفتح (٧/ ٣٣٤).
(٤) تساميني أي: تعاليني من السمو والعلو والارتفاع، أي تطلب من العلو والرفعة والحظوة عند النبي ﷺ ما أطلب. الفتح (٧/ ٣٣٦).
(٥) أخرجه البخاري كتاب التفسير باب ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ (٤٧٥٠). ومسلم كتاب التوبة باب في حديث الإفك وقبول توبة القاذف (٢٧٧٠).

المبحث الثالث

من فوائد الحادثة

وبعد هذا العرض الأليم لتلك القصة لسنا مبالغين حين نقول إن ما واجهه النبي ﷺ في حديث الإفك؛ هو حدثٌ عظيمٌ في تاريخ البعثة والرسالة، فلم يُمكر بالمسلمين مكرٌ أشد من تلك الواقعة، فهي ليست مجرد فريةٍ وإشاعةٍ مختلقةٍ أظهر الله كذبها، لكنها لولا عناية الله كانت قادرةً علىٰ أن تعصف بالأخضر واليابس، ولا تبقي علىٰ نفسٍ مستقرةٍ مطمئنةٍ، ولقد مكث مجتمع المدينة بأكمله شهرًا كاملًا وهو يصطلي نار تلك الفرية، ويتعذب ضميره وتعصره الإشاعة الهوجاء، حتىٰ نزل الوحي الإلهي ليضع حدًا لتلك المأساة. وليكون درسًا تربويًا رائعًا لذلك المجتمع، ولكل مجتمع مسلم إلىٰ قيام الساعة، وصدق الله: ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ﴾.

وما كان حديث الإفك رميةً لعائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا وحدها، وإنما كان رميةً للعقيدة في شخص نبيها ﷺ، من أجل ذلك أُنزل القرآن ليكون الجواب كشفًا للمعركة ضد الإسلام ورسول الإسلام، ويكشف الحكمة الربَّانيَّة وراء ذلك كله.

قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ ۚ وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾﴾.

فيخاطب الله تعالىٰ المؤمنين يخبرهم أن الذين جاءوا بالإفك وهو: الكذب والبهت والافتراء[١] علىٰ السيدة عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا إنما هم جماعة منكم - في الظاهر - فهم ليسوا فردًا واحدًا؛ بل جماعة مجتمعة ذات هدف واحد وهو تشويه الإسلام وقيادته،

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٦/ ٢٥).

عن جهل أو عمد منهم، فمستوياتهم في المساومة في هذا الإفك متفاوتة.

وإن انقطاع الوحي عن رسول الله ﷺ شهرًا في خلال وقوع هذه الفرية قد«اقتضىٰ تمام الامتحان والابتلاء أن حبس عن رسول الله الوحي شهرا في شأنها لا يوحي إليه في ذلك شيء وذلك ليزداد المؤمنون الصادقون إيمانًا وثباتًا علىٰ العدل والصدق وحسن الظن بالله ورسوله وأهل بيت الرسول والصادقين من عباده، ويزداد المنافقون إفكًا ونفاقا، ويظهر لرسول الله سرائرهم، ولتتم العبودية من الصديقة وأبوها من الافتقار لله والذل له وحسن الظن به»(١)

ولكي يُطَمْئِن الله تعالىٰ عباده المؤمنين أن هذا الإفك ليس شرًا محضًا: ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُمۖ بَلۡ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ﴾، فهو خيرٌ لكم في الدنيا والآخرة في حقيقته ومآله، فقد كشف الله لكم بهذه الحادثة الأيدي الخفية التي تريد زعزعة الدين الإسلامي في القلوب؛ بالتشكيك في بيت النبوة وأهل بيت النبي بإثارة الإشاعات ونقلها بين الناس، وكشفت لكم أثر تساهل الناس في نقل الشائعات.

ومن الخير أيضًا في هذه الحادثة أنها نبَّهت علىٰ أهمية تحريم القذف، ومدىٰ الأخطار التي ستلحق بالأمة المسلمة لو تركت كل من يريد أن يرمي أحدًا بمثل هذا الرمي.

وفصَّلت في أهمية وقيمة إقامة الحدِّ علىٰ القذف، وبيان الوعيد الشديد في الآخرة علىٰ الذي يريد إشاعة الفاحشة بين المسلمين.

وهي تعطي منهجا للمؤمنين فيما يعملونه تجاه هذه الإشاعات كما سيأتي بيانه.

وفي هذه الحادثة تنبيه علىٰ العذاب الأخروي؛ الذي سيلحق تلك الفئة التي أرادت النيل من بيت النبوة، أو التي تريد أن تنال من كل بيت مسلم آمن.

ومن اللطف تعبير الباري عن الخير الحاصل بهذه الحادثة: بأنه مطلقٌ وشاملٌ-

---

(١) زاد المعاد (٣/ ٢٦١-٢٦٢)، بتصرف.

فهو خيرٌ وليس شرًا، وإن كان ظاهره الابتلاء والامتحان للمؤمنين، لصعوبة الأمر ومشقته علىٰ النفس، وقوة القرار في اتخاذ الموقف الصحيح: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ فسبحان من هذا شرعه وهذه حكمته.

قال تعالىٰ مبينًا تفصيل الجملة السابقة: ﴿لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ﴾: «أي لكل من تكلم في هذه القضية ورمىٰ أم المؤمنين بشيء من الفاحشة نصيب عظيم من الإثم»[(١)]. فالذي قام بنشر الخبر بين الناس هم المنافقون وعلىٰ رأسهم عبدالله بن أبي بن سلول فهو المدبر الأول لتلك الفرية.

وقد شارك معهم ثلاثة من الصحابة وقد عاقبهم رسول الله ﷺ بإقامة الحد عليهم تطهيرا لهم من ذلك الإثم الذي لحقهم، وهم: (حسان بن ثابت، ومسطح بن أثاثة، وحمنة بنت جحش)[(٢)] رضي الله عنهم.

ثم ينبه الله تعالىٰ علىٰ جزاء من كان سببًا في هذه الفرية والذي أوقد نارها وجزاءه الذي ينتظره في الآخرة. فقال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝١١﴾: «أي الذي كان يجمعه ويشيعه له عذاب عظيم علىٰ ذلك، وأكثر المفسرين يقولون أن الذي تولىٰ كبره هو عبدالله بن أبي بن سلول رأس المنافقين»[(٣)].

«وقد أمر النبي ﷺ بإقامة حد القذف علىٰ مسطح وحسان وحمنة، تطهيرًا لهم وتكفيرًا، أما عبدالله بن أبي بن سلول فلم يقم عليه الحد. ولعل ذلك لأن إقامة الحدود فيها كفارة عن الجناة وهو ممن توعده الله بالعذاب العظيم في الآخرة، فليس أهلًا لإقامة الحد عليه والمغفرة من الله.

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٦/ ٢٥).
(٢) السيرة النبوية الصحيحة (٢/ ٤١١).
(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٦/ ٢٥).

وقيل: بل كان يستوشي الحديث ويجمعه ويحكيه ويخرجه من قوالب من لا ينسب إليه، وقيل: لأن الحد لا يثبت إلا بالإقرار، أو البينة وهو لم يقر بالقذف ولا شهد به عليه أحد، وقيل: بل ترك حده لمصلحة هي أعظم من إقامته، كما ترك قتله مع ظهور نفاقه، وهي: تأليف قومه وعدم تنفيرهم عن الإسلام، فإنه كان مطاعًا فيهم رئيسًا عليهم، فلم تؤمن إثارة الفتنة في حده. ولعله ترك لهذه الوجوه كلها»[(١)]. أو لغيرها والله تعالىٰ أعلم وأحكم، ولم يبين لنا الشارع حكمة بالنص في ذلك، وإنما هي التماس واجتهاد، والله الموفق.

وقد نبه الله المؤمنين علىٰ ما كان يجب عليهم تجاه هذه الإشاعة، وينبه كل الناس علىٰ الموقف من مثل هذه الإشاعات التي فيها هتك للأعراض.

وقبل الحديث عن موقف المسلم من الشائعات يجدر بنا التنبيه علىٰ بعض المباحث المهمة في هذه الآفة وهذه المشكلة علىٰ النحو التالي:



(١) زاد المعاد (٢/ ٢٦٣) بتصرف. ولقد أشار ابن القيم رحمه الله تعالىٰ إلىٰ فوائدَ كثيرة من هذه الحادثة، للاستزادة (٢/ ٢٥٦).

المبحث الرابع
مشكلة الإشاعة

المطلب الأول
تعريف الإشاعة

الإشاعة لغةً: شاع الخبر في الناس أي: انتشر وافترق وذاع وظهر[(١)].

واصطلاحا: «عبارة عن أقوال وأخبار وأحاديث يختلقها البعض لأغراض خبيثة، يتناقلها الناس بحسن نية، دون التثبت من صحتها، ودون التحقق من مصداقيتها»[(٢)].

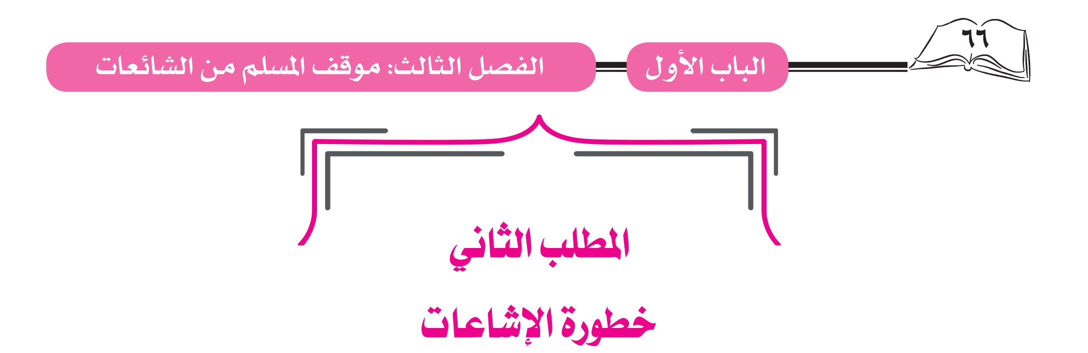
أو هي: «عبارة عن نبأ أو حدث مجرد من أي قيمة يقينية ينتقل من شخص لآخر، قادر علىٰ زعزعة الرأي العام أو تجميده»[(٣)].

«والإشاعة في أغلب الأحوال ما هي إلا تضخيم للأخبار الصغيرة، وإظهارها بصورة تختلف عن صورتها الحقيقية، أو هي تسخير للأخبار المكذوبة وطلاؤها بطلاء براق يلفت إليه الانتباه من أجل إشاعة الفرقة والبغضاء بين العباد»[(٤)].



---

(١) لسان العرب (٨/ ١٩١)، مادة (شيع).
(٢) نحو منهج شرعي لتلقي الأخبار وروايتها (ص٢٥).
(٣) المصدر السابق.
(٤) المصدر السابق.



المطلب الثاني

خطورة الإشاعات

إن المتأمل في الكتاب والسنة، وفي التاريخ بشكل عام يعلم يقينًا ما للإشاعات من خطر عظيم، وأثر بليغ، فالإشاعات تعتبر من أخطر الأسلحة الفتاكة والمدمرة للمجتمعات والأشخاص.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾ فتوعدهم الله بالعذاب الشديد في الدنيا والآخرة.

ولما لها من العاقبة السيئة حذّر الله عباده من السماع لها كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ﴿٦﴾﴾ [سورة الحجرات ٦]. وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُوا۟ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ ۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾﴾ [سورة النساء٩٣].

وقال محذرًا عباده مكائد الشيطان وأتباعه: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾﴾ [سورة النساء٢٧].

وقال رسول الله ﷺ: «**إن الله حرم عليكم عقوق الأمهات، ووأد البنات، ومنع وهات، وكره لكم قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال**»(١). وعن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ

(١) أخرجه البخاري كتاب الاستقراض باب ما ينهى عن إضاعة المال (٢٤٠٨). ومسلم كتاب الأقضية=

قال: قال رسول الله ﷺ: «**كفىٰ بالمرء إثما أن يحدث بكل ما سمع**»[١].

وقد وقع للمسلمين في العهد الأول شائعات كان لها آثارًا سيئةً، ولنتعرَّف علىٰ خطورة الشائعة نعرض منها علىٰ سبيل المثال:

- أشيع في بداية الدعوة في مكة أن كفار قريش أسلموا، وذلك بعد الهجرة الأولىٰ للحبشة، وكان نتيجتها أن رجع عدد من المسلمين إلىٰ مكة، وقبل دخولهم علموا أن الخبر كذب، فدخل منهم من دخل وعاد من عاد، فأما الذين دخلوا فأصاب بعضهم من عذاب قريش ما كان هو فارًا منه[٢].

- وفي معركة أحد عندما أشاع الكفار أن الرسول ﷺ قتل، فتّ ذلك في عضد كثير من المسلمين، حتىٰ إن بعضهم ألقىٰ السلاح وترك القتال ورجع بعضهم للمدينة[٣].

- وحادثة الإفك التي هزت بيت النبوة شهرًا كاملًا، بل هزت المدينة كلها كما مر آنفًا.

وفي هذا العصر نجد للشائعات دورًا كبيرًا في فساد الدين والدنيا، بل واستغلت ضد المسلمين استغلالًا كبيرًا، ومثل هذه الشائعات تُحْدِث في الصف ثغرات تُخِلُّ به، وأحيانًا تكون ثغرات كبيرة يصعب سدُّها؟!! وخاصة إذا كانت الشائعات تذاع داخل المجتمع المسلم، من أناس جهلة، أو لهم هوىٰ خفي، أو ظن خاطئ.



= باب النهي عن كثرة السؤال (١٧١٥).

(١) سنن أبي داود كتاب الأدب باب التشديد في الكذب (٤٩٩٢)، وصححه الألباني في الصحيحة برقم (٢٠٢٥).

(٢) انظر تفاصيل الحادثة في سيرة ابن هشام (١/ ٣٦٤).

(٣) سيرة ابن هشام (٣/ ٦٠).

المطلب الثالث

كيف تتولد الإشاعة وتنتشر

تتولد الإشاعة بعدة طرق وأهمها:

١- «صناعة خبر لا أساس له من الصحة.

٢- الجمع بين خبرين أحدهما صحيح والآخر كذب بطريقة التلفيق والربط.

٣- المبالغة بالزيادة والتهويل في نقل خبر ينطوي علىٰ بعض العناصر الصحيحة»[(١)].

ومن أسباب انتشار الشائعات[(٢)]:

١- فصاحة قول المشيع وحسن منطقه، قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾﴾ [سورة المنافقون ٤].

٢- كون المشيع ممن تميل إليه قلوب سامعيه إما بسبب صحبة أو تحزب أو تمشيخ أو غيرها.

٣- موافقة الخبر هوىٰ في نفس السامع.

٤- أن تتسم الوقائع الحقيقية بشيء من الغموض.

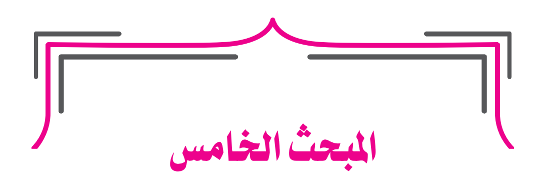
٥- الفراغ الذي يسيطر علىٰ كثير من الناس.

وللإشاعة قدرة علىٰ تفتيت الصف الواحد والرأي الواحد، وتوزيعه وبعثرته، فالناس أمامها بين مصدق ومكذب، ومتردد ومتبلبل، فغدا بها المجتمع الواحد والفئة الواحدة فئات عديدة.

---

(١) انظر: نحو منهج شرعي لتلقي الأخبار ورواياتها (ص٢٦)، بتصرف.

(٢) نحو منهج شرعي لتلقي الأخبار ورواياتها (ص٣٣).



المبحث الخامس

الموقف من الشائعات من خلال حادثة الإفك

إن هذه الآيات -التي نزلت في قصة الإفك- فيها بيان الموقف الذي يجب أن نكون عليه حينما نسمع أي شائعة كانت، وخصوصًا إذا كانت في أعراض المسلمين:

المطلب الأول

أن يقدم حسن الظن بالأخ المسلم

قال تعالىٰ: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾.

«هذا عتاب من الله تعالىٰ لأهل الأيمان به فيما وقع في أنفسهم من إرجاف من أرجف في أمر عائشة، بما أرجف به. فيقول لهم تعالىٰ: هلا أيها الناس إذا سمعتم ما قال أهل الإفك في عائشة ظن المؤمنون منكم والمؤمنات بأنفسهم خيرا»[(١)] وذلك لأن المؤمنين بعضهم من بعض.

فإن «الإيمان رحم بين المؤمنين، يوجب عليهم ظن الخير ببعضهم، والكف عن الطعن فيهم، ومنع الطاعنين عنهم كما يمنعونهم علىٰ أنفسهم»[(٢)].

إن الواجب أن يظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرًا، وأن يستبعدوا سقوط أنفسهم في مثل هذه الجريمة وامرأة نبيهم الطاهر وأخوهم الصحابي المجاهد هما من أنفسهم، فظن الخير بهما أولىٰ، فإنه مما لا يليق بزوج رسول الله ﷺ ولا يليق بصاحبه

(١) جامع البيان للطبري (١٧/ ٢١٢).

(٢) موضوعات سور القرآن - سورة النور- عبدالحميد طهماز (ص٣١).

الذي لم يعلم عنه إلا خيرًا.. وكذلك فَعَلَ أبو أيوب خالد بن زيد الأنصاري وامرأته رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

فقد ورد أن الآية هذه نزلت في أبي أيوب الأنصاري وزوجته رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وذلك أن أبا أيوب قالت له امرأته أم أيوب: يا أبا أيوب أما تسمع ما يقول الناس في عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قال نعم، وذلك الكذب. أكنت فاعلة ذلك يا أم أيوب؟ قالت: لا، والله ما كنت لأفعله. قال: فعائشة والله خير منك[1].

فهذه الآية أمرٌ بأن نظن في قلوبنا الخير في المؤمنين، ودفع الخبر الذي لا نتوقعه من أنفسنا؛ فمن باب أولىٰ أم المؤمنين، ونعترف بهذا بألسنتنا ﴿وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ۝١٢﴾ أي كذب ظاهر علىٰ أم المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

وكذلك كل عبد لله صالح فإن الأصل فيه البراءة ودفع القالة عنه، وعدم الاستسلام لما يشاع أو يمكن أن يشاع عنه. وأشد ذلك وأشنعه إذا كان يتعلق بعالم يقتدىٰ به، أو رجل ظاهر الصلاح أو قائم بأمر من أمور المسلمين كقضاتهم وولاتهم.

والإفك هو: الكذب والتحديث بالباطل[2]، ووصفه بأنه مبين أي شديد الوضوح والظهور فلا يخفىٰ بطلانه علىٰ ذي لب، ولكن الشيطان يدلس الباطل ويظهره بمظهر الحق والصدق والعياذ بالله تعالىٰ.



---

(١) البداية والنهاية (٨/ ٦٠). تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٦/ ٢٦). أسباب النزول للواحدي (٢٧٠). السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٣١٥). جامع البيان للطبري (١٨/ ٧٧).

(٢) لسان العرب (١٠/ ٣٩٠).

المطلب الثاني

التثبت بالبينة والدليل

قال تعالىٰ: ﴿لَّوۡلَا جَآءُو عَلَيۡهِ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَۚ فَإِذۡ لَمۡ يَأۡتُواْ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُوْلَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ ١٣﴾.

أي أن الذين جاءوا بهذه الفرية هلا أتوا بأربعة شهداء لكي يوثقوا كلامهم، فإن لم يأتوا بالشهداء فإنهم كاذبون عند الله تعالىٰ.

ولذا نجد موقف أم المؤمنين زينب بنت جحش رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا موقفًا رائعًا بالسكوت وعدم الكلام بغير علم، والورع في الحديث في هذا الأمر (قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: وكان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سأل زينب بنت جحش عن أمري، فقالت: يا رسول الله أحمي سمعي وبصري، والله ما علمت عليها إلا خيرًا. وهي التي كانت تساميني من أزواج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فعصمها الله تعالىٰ بالورع)[١].

أي: مع أنها كانت هي التي تنافسني في حسن التبعل للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فالمتوقع والمتصور في عادة الناس أن تستغل الفرصة لتجد مدخلًا تنتقص فيه من حق جارتها وضرتها وترتقي علىٰ تلك الشائعة بنفسها عند رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

لكن الإيمان والخوف من الله هو الذي دفع أم المؤمنين زينب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا للعدول واتباع ما يحبه الله فحفظت سمعها وبصرها فهي ترىٰ شيئًا مما يقوله الناس ولا ترغب في ترديد كلام ليس عندها فيه بينة وبرهان بل بادرت بتزكية المتهمة البريئة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فقالت: «**والله ما علمت عليها إلا خيرًا**»، وهذا هو حسن الظن الذي أمر الله به.

---

(١) تقدم تخريجه.

ومن ولغ في الشائعات دون دليل فقد كذب، ولو كان ناقلًا فقط كما يزعم، فإن الآية نص صريح في أن الذي يروج الشائعة مؤاخذ ومطالب بإثبات ما يقول: ﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَٰئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٣﴾﴾ وهذا خلاف ما يفعله كثير من الناس اليوم.

ثم يخاطب الله تعالىٰ الذين خاضوا في شأن الإفك بقوله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾﴾.

أي أن الله تعالىٰ قبل توبتكم وإنابتكم إليه في الدنيا وعفا عنكم يوم القيامة فضلا منه سبحانه، لأنه لولا هذه الرحمة لمسكم فيما تحدثتم به عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عذاب عظيم. هذا العذاب مقابل العذاب النفسي الذي سببوه لرسول الله ﷺ وزوجته وصديقه وصاحبه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ جميعًا.

«وهذا فيمن عنده إيمان رزقه الله بسببه التوبة إليه، كمسطح وحسان وحمنة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ. أما من خاض فيه من المنافقين كعبدالله بن أبي بن سلول وأصحابه فليس أولئك مرادين في هذه الآية لأنه ليس عندهم من الإيمان والعمل الصالح ما يعادل هذا»[١].

ثم يقول تعالىٰ مُشَنِّعًا علىٰ من كان يسمع الخبر وينقله فورا من غير تمحيص لهذا الخبر ومن غير علم؛ هل هذا الخبر صحيح! وهم يحسبونه أمرًا هينًا! ولا يعلمون أنه عند الله عظيم، ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾﴾.

أي: «تقولون ما تقولون في شأن أم المؤمنين وتحسبون ذلك يسيرا، ولو لم تكن زوجة النبي لما كان هينا فكيف وهي زوجة النبي ﷺ»[٢].

والمعنىٰ الملاحظ هنا: أنه لسانٌ يتلقىٰ عن لسانٍ بلا تدبرٍ ولا إمعانِ نظرٍ حتىٰ لكأن القول لا يمر علىٰ الآذان، فلا تتأمله العقول ولا تتدبره القلوب.



---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٦/ ٢٨).

(٢) المصدر السابق.

المطلب الثالث

أن لا يتحدث بما سمعه ولا ينشره

قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾﴾.

فكان الواجب عليكم أيها المؤمنون عندما سمعتم بهذا البهتان في الخيرة من الناس أن لا تتكلموا فيه ولا تنشروه، بل وأن تعترفوا بقلوبكم وألسنتكم أن هذا بهتان عظيم.

فإن الناس لو لم يتكلموا بمثل هذه الشائعات لماتت في مهدها ولم تجد من يحييها إلا من المنافقين.

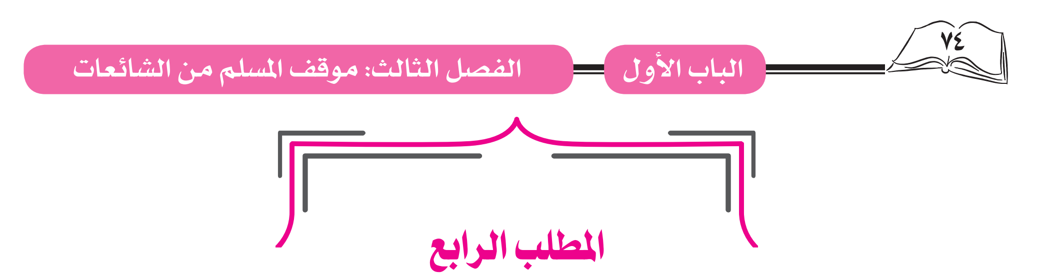
﴿سُبْحَٰنَكَ﴾: تنزيها لك يا الله من كل سوء أن تبتلي أصفيائك بالأمور الشنيعة[١].

«تنزيه الله تعالىٰ جل شأنه من أن يصم نبيه ويشينه، فإن فجور الزوجة وصمة في الزوج تنفر عنه القلوب وتمنع من إتباعه، ولذا صان الله تعالىٰ أزواج الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ عن ذلك»[٢].

﴿هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾﴾: ووصف هذا البهتان بأنه عظيم «لأنه مشتمل علىٰ منكرات كثيرة، وهي: الكذب، وهذا الكذب طعن في سلامة العرض، وكون المفترىٰ عليه من خيرة الناس، وأعظم من ذلك أنه اجتراء علىٰ مقام النبي ﷺ ومقام أم المؤمنين»[٣].



(١) تيسير الكريم الرحمن للسعدي (ص٥١٢).
(٢) روح المعاني (١٨/ ١٢٠).
(٣) التحرير والتنوير (١٨/ ١٨١).



المطلب الرابع

قطع الطريق على الفساق الذين يحبون أن تشيع الفاحشة والشر

يقول الله في ختام هذه القصة مخوفًا ومحذرًا المؤمنين من الوقوع في الإشاعات، وليقطعوا الطرق علىٰ الفساق: ﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ١٧﴾ وذلك بعدم سماع ما يقوله الكذابون، والمنافقون، والمغتابون، وأصحاب القلوب المريضة، وعدم الرضا بذلك، كما هو منهج السلف -رضوان الله عليهم.

إن الأمور السابقة: الظن بالأخ المسلم خيرًا كما يظن الإنسان في نفسه خيرا، والتثبت بالبينة والدليل وعدم التحدث بما سمعه وبما نشر، هي الواجبة علىٰ كل مؤمن إذا سمع شائعةً عن أخٍ له - أي شائعةٍ كانت، وخاصة في أمر القذف بالزنا أو ما يشين عرضه أو عقيدته؛ نسأل الله العفو والعافية.

وهي سبل لقطع الطريق علىٰ أولئك القوم الذين وصفهم الله تبارك وتعالىٰ بأبشع وصف وأقبحه إذ اتخذوا الشر والفاحشة وظيفةً يؤدونها بلا ثمنٍ إلا مجرد تزيين الشيطان ووسوته وزخرفته لهم نسأل الله أن يعيذنا من شر شياطين الإنس والجن.

ولذا جاء في ختام هذه القصة تخويف وتحذير المؤمنين من الوقوع في الإشاعات، وترك الطريق مفتوحًا للفساق:

﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا﴾ «أي ينهاكم الله متوعدا أن يقع منكم ما يشبه هذا أبدا»[1].

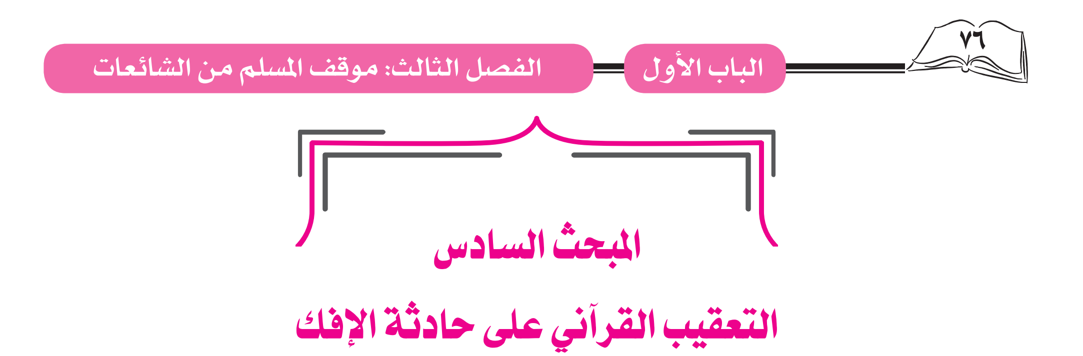
(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٦/ ٢٩).

﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝١٧﴾ فالمؤمنون لا يمكن أن يُكْشَف لهم عن بشاعة عملٍ كهذا الكشف، وأن يُحَذَّرُوا منه مثل هذا التحذير؛ ثم يعودون إليه وهم مؤمنون.

﴿وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝١٨﴾ «أي: أن الله سبحانه يبين لكم أيها الناس الأحكام الشرعية والحِكَم القدرية، فالله عليم بما يصلح عباده وحكيم في شرعه وقدره»[١].



(١) المصدر السابق.



المبحث السادس

التعقيب القرآني على حادثة الإفك

بعدما أظهر الله الحقيقة، وبيَّنَ الافتراء، وأظهر البراءة الكاملة، وبعد أن توعد القائلين بها، وبعد أن دعاهم إلىٰ التوبة، ووبخ السامعين لها الذين لم يبادروا إلىٰ رد الإشاعة والفرية، وبعد أن بين الواجب علىٰ المسلمين عند سماع مثل هذه التهم، جاءت هذه التعقيبات، تنبيها علىٰ عدة أمور نجملها في المطالب التالية:

المطلب الأول

خطورة نشر الفواحش في المجتمع الإسلامي

قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾:

أي: «إن الذين يحبون أن يذيع الزنا في الذين صدقوا بالله ورسوله، ويظهر ذلك فيهم، لهم عذاب وجيع في الدنيا بالحد الذي جعله الله حدا لرامي المحصنات والمحصنين إذا رموه بذلك، وفي الآخرة جهنم إن مات مصرًا علىٰ ذلك غير تائب، والله يعلم كذب الذين جاءوا بالإفك من صدقهم، وأنتم أيها الناس لا تعلمون ذلك لأنكم لا تعلمون الغيب، فلا ترووا مالا علم لكم به من الإفك علىٰ أهل الإيمان بالله فتهلكوا»[١].

وأيضا «الله تعالىٰ يعلم وجه الحكم من تشديد الوعيد علىٰ هؤلاء الكذبة

(١) جامع البيان للطبري (١٧/ ٢٢٠)، بتصرف.

المفترين، إذ يؤدي افترائهم إلىٰ إشاعة الفواحش والمنكرات التي تهدم المجتمع وتقوض أركانه وقواعده من داخله»[١].

والفاحشة هي: «الخصلة المفرطة في القبح وهي الفرية بالرمي بالزنا أو الزنا نفسه»[٢].

فنشر الفاحشة في المجتمع المسلم سواء عن طريق قذف المحصنات، أو بالزنا نفسه والتشجيع عليه وتيسر السبل إليه من كبائر الذنوب التي توعد الله عليها.

فنحن نري اليوم في واقعنا ألوانًا شتىٰ من نشر الفاحشة في المجتمعات سواء كانت مجتمعات مسلمة أو غير مسلمة، فوسائل الإعلام من فضائيات وجرائد ومجلات كثير منها الأغلب عليها هو نشر الفاحشة في المجتمعات.

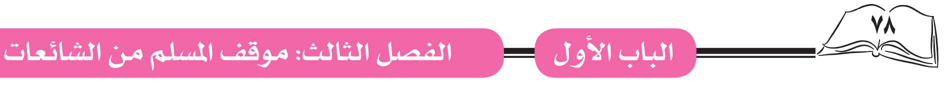
فما عُري المرأة واستخدامها سلعة لترويج البضائع وترويج الأخبار في الإعلام إلا نوع من نشر الفاحشة في المجتمعات، ناهيك عن الأفلام والمسلسلات والمسرحيات التي لا تتورع، فتشيع الفاحشة وتتدرج مع الإنسان لكي يرتكب تلك الفواحش وهو مقتنع بها مقبل عليها غير مدبر، وليبقىٰ متطلعًا إليها دائما.

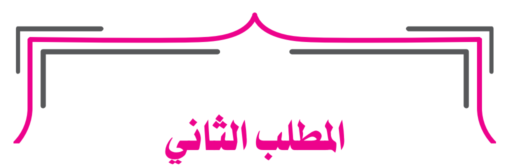
ويسمونها بغير اسمها، فتارة يسمونها [فن]، وتارة يسمونها [ثقافة معاصرة]، وتارة يسمونها [رومانسية]، وتارة يسمونها [مسلسلات اجتماعية]... الخ.

ولكن المشكلة الكبرىٰ أن هذه الوسائل التي تشيع الفاحشة هي التي أصبحت مصدر التربية والتوجيه في هذا الوقت، فيا تري أيّ مجتمع يكون ذلك المجتمع في ظل هذه التربية!!.



(١) من موضوعات سور القرآن– سورة النور – (ص٣٦).
(٢) روح المعاني (١٨/ ١٢٢).





المطلب الثاني

شرع الله هذه الأحكام وقبل توبة المذنبين المرتكبين لقبائح الأعمال فضلاً منه ورحمة

قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾﴾.

أي: «ولولا أن الله تفضل عليكم أيها الناس ورحمكم، وأن الله ذو رأفة ورحمة بخلقه، لهلكتم فيما أفضتم فيه، وعاجلتكم من الله العقوبة»[١]. «والخطاب هنا لمسطح وحسان وحمنة»[٢] ومن كان علىٰ منهاجهم.

وقال تعالىٰ: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾﴾: «ولولا فضل الله عليكم ورحمته لكم ما تطهر منكم من أحد أبدا ولكن الله يطهر من يشاء من خلقه والله سميع لما تقولونه بأفواهكم وعليم بجميع أحوالكم»[٣].

فالعنصر الفاسد لا بد أن ينبذ ويخرج من الأرض الطيبة والثمار اليانعة لكي لا تفسد الثمار وتبور الأرض، فإذا وجد ذلك الخبيث في المجتمع المسلم، قد يكون سببًا في إفساد الطيب ونشر الخبث والرذيلة.

فالآية تدل علىٰ رحمة الله وفضلة من عدة أمور:

- فضل الله ورحمته بعباده حيث شرع هذه الحدود والضوابط ضبطًا لمسائل الأعراض والنسل.

---

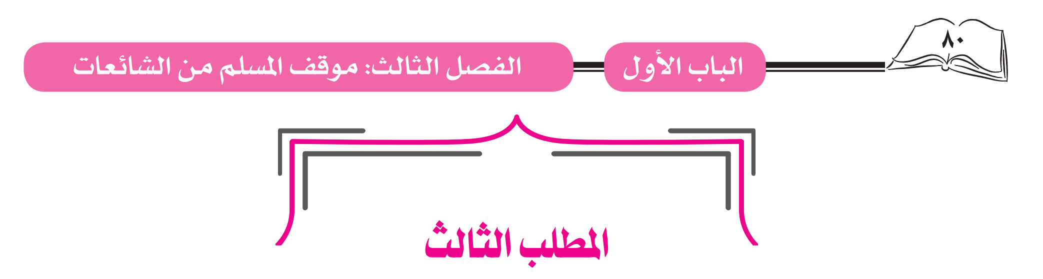
(١) جامع البيان للطبري (١٧/ ٢٢١).

(٢) روح المعاني (١٨/ ١٢٣).

(٣) جامع البيان للطبري (١٧/ ٢٢١-٢٢٢).

- فضل الله ورحمته في قبول التوبة والرجوع والإنابة والتشجيع علىٰ ذلك.
- فضل الله ورحمته من جهة عدم المؤاخذة والمعاجلة بالعقوبة.
- فضل الله ورحمته بعباده أن يطهرهم ويطهر مجتمعهم من الخبائث والفواحش وأسبابها.





المطلب الثالث

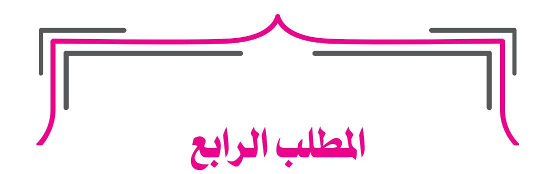
التنبيه على عدم إتباع خطوات الشيطان لأنه هو الذي يغوي الإنسان ويوقعه في الذنب باختياره

قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ﴾:

ينبه الله المؤمنين أن هذا الذي حصل قد حصل بسبب إتباع خطوات الشيطان فالله يحذر المؤمنين فيقول: «يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله لا تسلكوا سبيل الشيطان وطرقه، ولا تقتفوا آثاره، بإشاعتكم الفاحشة في الذين آمنوا فإن الشيطان يأمر بالفحشاء وهو الزنا، والمنكر من القول»[١]. وخطوات الشيطان هي: «طرائقه ومسالكه وما يأمر به»[٢].

وإنها لصورة مستنكرة أن يخطو الشيطان فيتبع المؤمن خطاه، وهم أجدر الناس أن ينفروا من الشيطان وأن يسلكوا طريقا غير طريقه المشئوم، ولذا نبه الله سبحانه علىٰ هذا الأمر بأكثر من صورة كم قال في قوله تعالىٰ: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ ..﴾ [سورة الأعراف ٢٧] وفي قوله: ﴿أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٦٠﴾ [سورة يس ٦٠].

(١) جامع البيان للطبري (١٧/ ٢٢١).
(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٦/ ٣٠).



المطلب الرابع

سلامة الصدر والعفو والمسامحة والإحسان لمن أساء يستجلب مغفرة الله

قال تعالىٰ: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾.

جاء في سبب هذه الآية كما ورد في حادثة الإفك من رواية الزهري عن عائشة قالت: «**فلما أنزل الله تعالىٰ هذا في براءتي قال أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وكان ينفق علىٰ مسطح بن أثاثة لقرابته منه وفقره: والله لا أنفق علىٰ مسطح شيئا أبدا بعد ما قال لعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فأنزل الله تعالىٰ: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ..﴾ إلىٰ قوله: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ فقال أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بلىٰ والله إني لأحب أن يغفر الله لي، فأرجع إلىٰ مسطح النفقة التي كان يجري عليه، وقال: والله لا أنزعها منه أبدا**»[(١)].

قال ابن جرير: «وإنما عني بذلك أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في حلفه بالله لا ينفق علىٰ مسطح. فقال تعالىٰ: لا يحلف من كان ذا فضل من مال وسعة أيها المؤمنون ألا ينفق علىٰ ذوي قرابتهم والمساكين والمهاجرين في سبيل الله- وهذه الصفات كانت في مسطح- وليعفوا عما كان منهم من جرم وليصفحوا وليتركوا عقوبتهم علىٰ ذلك بحرمانهم ما كانوا يؤتونهم قبل ذلك، ألا تحبون أن يستر الله عليكم ويغفر ذنوبكم، والله غفور لمن أطاعه، ورحيم كذلك بمن أطاعه ولم يعص أمره»[(٢)]. ففي هذه الآية

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) جامع البيان للطبري (١٧/ ٢٢٢-٢٢٣).

«ترغيب عظيم في العفو ووعد كريم بمقابلته»[١].

نزلت هذه الآية تذكر أبا بكر، وتذكر المؤمنين، بأنهم هم يخطئون ثم يحبون من الله أن يغفر لهم، فليأخذوا أنفسهم بعضهم مع بعض بهذا الذي يحبونه، ولا يحلفون أن يمنعوا البر عن مستحقيه وإن كانوا قد أخطأوا وأساؤوا.

وهكذا تنتهي قصة الإفك بما فيها من افتراء وبلاء وصبر ثم فرج من عند الله وتوعد للذين يريدون إفساد الأخلاق وترويج الفواحش والافتراءات. وحادثة الإفك من الأحداث التي فيها من الفوائد التربوية والدعوية والأخلاقية والتعبدية الشيء الكثير، فنسأل الله تعالىٰ أن يلهمنا العلم والعمل[٢].



(١) روح المعاني (١٨/ ١٢٥).

(٢) يمكن مراجعة قصة الإفك في فتح الباري حديث (٤٧٥٠). وشرح صحيح مسلم (١٧/ ١٠٦-١٠٨)، وزاد المعاد (٣/ ٢٢٩-٢٣٩)، والبداية والنهاية (١/ ١٨٠-١٨٥)، وكتب السيرة بصفة عامة، وخاصة كتب السيرة التي اهتمت بالجانب التربوي والدعوي مثل وقفات تربوية مع السيرة النبوية للشيخ أحمد فريد (ص٢٨١-٢٨٦)، وفقه السيرة للبوطي (ص٣٠٠-٣١١)، والسيرة النبوية للصلابي (٢/ ٩٢٤-٩٣٦)، والسيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية. وغيرها من المراجع.

الفصل الرابع
مسـؤولية الكلـمة
المبحث الأول
عرض إجمالي للآيات

قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡغَٰفِلَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿٢٣﴾ يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوۡمَئِذٖ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلۡحَقَّ وَيَعۡلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ ٱلۡمُبِينُ ﴿٢٥﴾ ٱلۡخَبِيثَٰتُ لِلۡخَبِيثِينَ وَٱلۡخَبِيثُونَ لِلۡخَبِيثَٰتِۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِۚ أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَۖ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ﴿٢٦﴾﴾.

ينبه الله تعالىٰ بالوعيد الشديد علىٰ رمي المحصنات؛ وهن العفائف عن الفجور، الغافلات وهن: اللاتي لم يخطر الزنا في قلوبهم. وهذا الوعيد هو الطرد من رحمته سبحانه في الدنيا والآخرة، وأعد لهم العذاب العظيم أيضًا في الآخرة.

فكل جارحةٍ تشهد عليهم يوم القيامة بما عملت فلا يمكن الإنكار؛ لأن الشهادة عليهم من أنفسهم، ففي هذا اليوم يجزيهم الله علىٰ أعمالهم الجزاء الحق، ويعلمون أن الله هو الحق في كل شيء، حقٌّ في أفعاله وأقواله وأحكامه وقضائه وجزائه وثوابه وعقابه.

ثم يقول تعالىٰ: ﴿ٱلۡخَبِيثَٰتُ لِلۡخَبِيثِينَ وَٱلۡخَبِيثُونَ لِلۡخَبِيثَٰتِۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِۚ أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَۖ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ﴿٢٦﴾﴾.

قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «أي: الخبيثات من القول للخبيثين من الرجال، والخبيثون

من الرجال للخبيثات من القول. والطيبات من القول للطيبين من الرجال، والطيبون من الرجال للطيبات من القول»[١].

«ووجه هذا القول أن الكلام القبيح أولىٰ بأهل القبح من الناس، والكلام الطيب أولىٰ بالطيبين من الناس، فما نسبه أهل النفاق للسيدة عائشة هم أولىٰ به وهي أولىٰ بالبراءة منهم ولهذا قال تعالىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾»[٢].

واختلف العلماء هل الآيات خاصة بالسيدة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أم هي عامة لكل من قذف؟

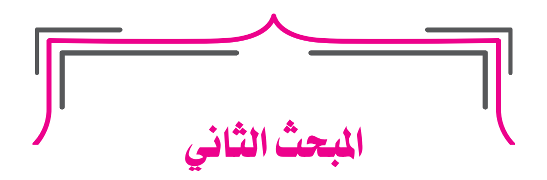
ومن تتبع الأقوال يتبين له أن الآيات نزلت في السيدة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وفي الذين لم تقبل توبتهم بسبب نفاقهم، وفي كل من سبّ السيدة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ورماها بما برَّأها الله منه.

وأيضًا يدخل في هذا الوعيد كل من رمىٰ أحدًا من المسلمين - سواء كان رجلًا أو امرأة - بالزنا ولم يتب إلىٰ الله تعالىٰ، فيتحقق عليه الوعيد المذكور في الآية[٣].

ثمَّ بعد هذا العرض الإجمالي للآيات يتبين لنا أمرٌ مهمٌّ جدًّا تتسم به هذه الآيات وما قبلها وهو الحديث عن الكلمة وخطورتها علىٰ الفرد والمجتمع، ومدىٰ تأثيرها علىٰ الفرد في حياته كلها الدنيوية والأخروية، وأيضا من تأثيرها علىٰ المجتمع في واقعه ومستقبله.



(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٦/ ٣٤).
(٢) المصدر السابق.
(٣) للاستزادة راجع المسألة في تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٦/ ٣٠). والجامع لأحكام القرآن (١٢/ ٢٠٩). وكتب التفسير.



المبحث الثاني

أهمية الكلمة وخطورتها ودورها في إقامة الحياة

قال تعالىٰ: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴿٢٥﴾﴾ فـ«كل جارحة تشهد عليهم بما عملته، ينطقها الذي أنطق كل شيء، فلا يمكنه الإنكار، ولقد عدل في العباد، من جعل شهودهم من أنفسهم، ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ﴾ أي: جزاءهم على أعمالهم، الجزاء الحق، الذي بالعدل والقسط، يجدون جزاءها موفرا، لم يفقدوا منها شيئا، ويعلمون في ذلك الموقف العظيم، أن الله هو الحق المبين، فيعلمون انحصار الحق المبين في الله تعالىٰ»[(١)].

لا شك أن من نعم الله تعالىٰ الكثيرة علىٰ عباده نعمة الكلام، إذ به تستقيم حياة الناس وتستقيم مصالحهم الدينية والدنيوية، والمقصود بالكلمة هنا الكلمة باللسان أو بالحركات لأن الحركة تؤدي نفس المعنىٰ الذي تريده الكلمة، لأن من لا يتكلمون بلسانهم فلهم لغة خاصة بالحركات تنبههم علىٰ ما يريدونه.

وهذه الكلمة سلاح ذو حدين إن استخدم في طاعة الله وفي المعروف كقراءة القرآن ونصرة المظلوم، والدفاع عن أعراض المسلمين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كان هذا هو الاستخدام الأمثل للكلمة التي من أجلها جعلها الله لغة التخاطب ويأجر العبد علىٰ ذلك.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص٥٦٣).

وإن استخدمت الكلمة في طاعة الشيطان، وتفريق صف المسلمين بالكذب، وقول الزور والغيبة والنميمة، والقدح في أعراض المسلمين وإشاعة الفاحشة بينهم؛ كان هذا هو المحرم علىٰ صاحب الكلمة، والمؤدي إلىٰ خسرانه وهلاكه في الدنيا قبل الآخرة.

فبالكلمة يُرفع أناسٌ ويُسقط آخرون، ويَنجوا أناس ويَهلك آخرون، ويَغتني أناس ويَفتقر آخرون، ويموت أناس ويحيا آخرون، ويُظلم أناس، ويَنتصر آخرون، وتُهدم بيوتٌ وتَستقيم أخرىٰ، ويُفرق بين أناسٍ ويُجمع بين آخرين... إلىٰ غير ذلك من عظيم أثر الكلمة.

«فالساكت عن الحق شطان أخرس، عاص لله. والمتكلم بالباطل شيطان ناطق عاص لله. وأكثر الناس منحرف في كلامه وسكوته بين هذين النوعين، أما أهل الخير والوسط فهم قد كفوا ألسنتهم عن الباطل، وأطلقوها فيما يعود عليهم نفعه»[(١)].

ويمكن بيان دور الكلمة وخطورتها من خلال عرض بعض الأدلة والشواهد:

١- قال تعالىٰ في وصف عباد الرحمن: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا ﴿٦٣﴾﴾ [سورة الفرقان ٦٣] وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ مَرُّواْ كِرَامٗا ﴿٧٢﴾﴾ [سورة الفرقان ٧٢]. فهؤلاء العباد الناجون عند ربهم من لازم صفاتهم الإعراض عن اللغو من الكلام؛ بل ومجاوبته بالحسن النافع المفيد.

٢- رتب الله تعالىٰ عدم الفلاح للذين يتحدثون بما لا يعمون ويفترون علىٰ الله الكذب، قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلۡسِنَتُكُمُ ٱلۡكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٞ وَهَٰذَا حَرَامٞ لِّتَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ ﴿١١٦﴾﴾ [سورة النحل ١١٦].

٣- نهىٰ الله تعالىٰ المؤمنين بأن لا يتخذوا الكلمة الخاطئة وسيلة لتحقيق مطامع دنيوية، مهما كانت غايتها ونهايتها، بل وأمرهم بالتبين قبل إصدار الكلمة، قال تعالىٰ:

---

(١) الجواب الكافي لابن القيم (ص٢٨١).

﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا تَبۡتَغُونَ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٞۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبۡلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ﴾ [سورة النساء٩٤].

٤- جعل الله حفظ اللسان من أسباب دخول الجنَّة قال رسول الله ﷺ: «**من يضمن لي ما بين لحييه وما بين رجليه أضمن له الجنة**»(١).

٥- وجعل كلمة الحقّ مقدَّرةً معظمةً معتبرةً، ولو كانت عند صاحبها عاديَّةً، قال ﷺ: «**إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله لا يلقىٰ لها بالًا يرفعه الله بها درجات، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقىٰ لها بالا يهوىٰ بها في جهنم**»(٢).

٦- وفي سؤال معاذ بن جبل رضي الله عنه لرسول الله عن العمل الذي يدخله الجنة ويباعده عن النار ذكر له النبي ﷺ أركان الإسلام وبعض أبواب الخير ثم قال له: «**ألا أخبرك بملاك ذلك كله؟ قلت بلىٰ يا رسول الله. فأخذ بلساني، ثم قال: كف عليك هذا!! فقلت: يا رسول الله: وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟؟! فقال: ثكلتك أمك يا معاذ! وهل يكب الناس في النار علىٰ وجوههم أو علىٰ مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم**»(٣).

٧- وحذَّر الشارع من نقل الكلام من غير تمييز لمعناه ومقتضاه، فقال رسول الله ﷺ: «**كفىٰ بالمرء إثما أن يحدث بكل ما سمع**»(٤). يقول عبدالرحمن بن مهدي رحمه الله: «لا يكون الرجل إماما يقتدىٰ به حتىٰ يمسك عن بعض ما سمع»(٥).

---

(١) أخرجه البخاري كتاب الرقائق باب حفظ اللسان (٦٤٧٤).

(٢) أخرجه البخاري كتاب الرقائق باب حفظ اللسان (٦٤٧٨).

(٣) سنن الترمذي كتاب الإيمان باب ما جاء في حرمة الصلاة (٢٦١٦). وقال حديث حسن صحيح. السلسلة الصحيحة (١١٢٢).

(٤) سنن أبي داود كتاب الأدب باب التشديد في الكذب (٤٩٩٢). وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٠٢٥)، وقد أورده النووي في شرح صحيح مسلم (١/ ٦٥). ومسلم في مقدمة صحيحه باب تغليظ الكذب علىٰ الرسول (٥).

(٥) مقدمة صحيح مسلم مع شرح النووي (١/ ٦٥).

٨- وجعل القول والكلام من الإيمان سلبًا وإيجابًا، فعن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال؛ قال رسول الله ﷺ: «.. **ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت**»(١). قال ابن حجر: «هذا الحديث من جوامع الكلم لأن القول كله إما خيرا وإما شرا، وإما آيل إلىٰ أحدهما، فيدخل في الخير كل مطلوب من الأقوال فرضها وندبها، وما عدا ذلك مما هو شر أو يؤول إلىٰ شر، فأمر عند إدارة الخوض فيه بالصمت»(٢).



(١) أخرجه البخاري كتاب الأدب باب إكرام الضيف وخدمة إياه نفسه (٦٠٣٦). ومسلم كتاب الإيمان باب الحث علىٰ إكرام الجار والضيف ولزوم الصمت إلا عن الخير وكون ذلك كله من الإيمان (٤٧).

(٢) فتح الباري (١٠/ ٤٦١).



المبحث الثالث

آفات الكلام

إن الأمور التي تجعل الكلام يورد المهالك كثيرة جدًا، فالكلام عندما ينطق به اللسان أو تشير إليه الحركات يكون فيه تغيير أمورٍ كثيرةٍ في الحياة إما سلبًا أو إيجابًا، ولذا سنعرض أهم الأمور التي يجب علىٰ صاحب الكلمة أن يكون علىٰ حذرٍ منها، وأن يتجنب كل ما كان سببًا في هلاكه أو في تعريض غيره للشر.

فمن آفات الكلام التي يجب الحذر منها:

١- القذف:

وهذا من أعظم الكلام الذي يوجب الهلاك في الدنيا والآخرة، فأي ذنب أعظم من أن يتكلم في عرض مسلم وخصوصا إذا كان هذا الكلام قذفًا لعرضه بالفاحشة- بالزنا أو اللواط-، إنها والله المأساة والخسران والظلم بعينه. ولذا استحق صاحب هذا الكلام العذاب في الدنيا بالجلد ثمانين جلدة، وبالهلاك في الآخرة كما في حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «**اجتنبوا السبع الموبقات...**» وذكر منها: «**وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات**»[١].

وقد تقدم الحديث عن هذا الأمر وخطورته والأدلة علىٰ ذلك.

٢- القول علىٰ الله ورسوله بغير علم:

أي الكذب علىٰ الله ورسوله، قال تعالىٰ: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا

(١) أخرجه البخاري كتاب الحدود باب رمي المحصنات (٦٨٥٧). ومسلم كتاب الإيمان باب بيان الكبائر وأكبرها (٨٩).

لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾ [سورة الأنعام ١٤٤]. وقال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾﴾ [سورة النحل ١١٦]

وقال ﷺ: «**ومن كذب عليَّ متعمدا فليتبوأ مقعده من النار**»[١].

٣- الكذب عموما:

قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾ [سورة الإسراء ٣٦]، ويكفي من تعظيم شأن الكذب هذا الحديث الذي يرويه لنا أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ أنه قال: «**آية المنافق ثلاث: إذا حدَّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان**»[٢].

٤- شهادة الزور:

قال تعالىٰ في وصف عباد الرحمن: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا ﴿٧٢﴾﴾ [سورة الفرقان ٧٢] «فإن الزور كل باطل سواء كان شركًا أو غناءً، أو كذبًا، أو غيرها، وكل ما لزمه اسم الزور لأن الله عمَّ وصفه عباد الرحمن أنهم لا يشهدون الزور»[٣].

٥- بذاءة اللسان:

قال تعالىٰ: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾﴾ [سورة النساء ١٤٨]، وعن أبي موسىٰ الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قلت يا رسول الله: أي

---

(١) أخرجه البخاري كتاب العلم باب إثم من كذب علىٰ النبي ﷺ (١١٠). ومسلم مقدمة مسلم باب تغليظ الكذب علىٰ رسول الله ﷺ (٣).

(٢) أخرجه البخاري كتاب الإيمان باب علامة المنافق (٣٣). ومسلم كتاب الإيمان باب خصال المنافق (٥٩).

(٣) جامع البيان للطبري (١٩/ ٣١) مختصرًا.

المسلمين أفضل؟ قال: «**من سَلِمَ المسلمون من لسانه ويده**»[١].

٦- الغيبة والبهتان والنميمة:

سأل النبي ﷺ الصحابة يوما: «**أتدرون ما الغيبة؟**» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «**ذكرك أخاك بما يكره**». قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: «**إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته**»[٢].

والنميمة هي نقل الكلام للإفساد بين الناس، عن حذيفة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يدخل الجنة نمام**»[٣].

وقد ذكر صاحب مختصر منهاج القاصدين بعض الآفات الجامعة فقال: «ذكر آفات الكلام: الكلام فيما لا يعني، والخوض في الباطل وهو الكلام في المعاصي، والتقعر في الكلام، والفحش والسب والبذاءة، والمزاح الكثير، والسخرية الاستهزاء، وإفشاء السر، والغيبة»[٤]، وهذه الآفات علىٰ سبيل المثال لا علىٰ سبيل الحصر، فإن الآفات كثيرة جدًا.

والملاحظ أن معظم الأمور التي هي من آفات اللسان هي أمور دائرة بين الناس بعضهم مع بعض، وهذه إشارة إلىٰ أن اللسان كما أنه سبب للهلاك في الآخرة فإنه أيضا سبب في تفريق صَفِّ الأمة في الدنيا، فالله تعالىٰ وضع لنا شرعًا يكفل تنظيم حياتنا الدنيوية مع بعضنا، فإذا التزمنا به حصل لنا الفوز والنجاة يوم القيامة.

---

(١) أخرجه البخاري كتاب الإيمان باب المسلم من سلم المسلمون (١٠). ومسلم كتاب الإيمان باب تفاضل الإسلام وأي الأمور أفضل (٤٢-٤١).

(٢) أخرجه مسلم كتاب البر والصلة باب تحريم الغيبة (٢٥٨٩).

(٣) أخرجه مسلم كتاب الإيمان باب غلظ تحريم النميمة (١٠٥).

(٤) مختصر منهاج القاصدين (ص١٦٥-١٧٠)، ملخصًا.

والحديث عن آفات الكلام طويل جدا ولكن حسبنا هنا أن نذكر كلام ابن القيم الجامع لهذا الموضوع وتلخيصًا لهذا الموضوع، فقال رَحِمَهُ اللَّهُ:

«واعلم أن في اللسان آفتان عظيمتان، إن خلص من إحداها لم يخلص من الأخرىٰ: آفة الكلام، وآفة السكوت، وقد يكون كل منهما أعظم إثمًا من الآخر في وقتها:

فالساكت عن الحق شيطان أخرس عاصٍ لله ومراءٍ ومداهنٍ إذا لم يخف علىٰ نفسه.

والمتكلم بالباطل شيطانٌ ناطقٌ عاصٍ لله.

وأكثر الخلق منحرف في كلامه وسكوته، فهم بين هذين النوعين.

وأهل الوسط هم أهل الصراط المستقيم، الذين كفوا ألسنتهم عن الباطل وأطلقوها فيما يعود عليهم نفعه في الآخرة فلا ترىٰ أحدهم يتكلم بكلمة تذهب عليه ضائعة بلا منفعة! فضلا أن تضره في آخرته، وإن العبد ليأتي يوم القيامة بحسنات أمثال الجبال فيجد لسانه قد هدمها عليه كلها»(١).

وقد أحسن من قال:

احفظ لسانك أيها الإنسان ... لا يلدغنك إنه ثعبان

كم في المقابر من قتيل لسانه ... كانت تهاب لقاءه الشجعان(٢)

فمن هنا يعلم ما للكلمة من أعباء علىٰ الفرد والمجتمع سواء بالخير أو بالشر، ومن هنا نعرف سبب التهديد الرباني في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡغَٰفِلَٰتِ

(١) الجواب الكافي (٢٧٦-٢٨١) باختصار.
(٢) نسب شارح ابن ماجة هذين البيتين إلىٰ الشافعي، انظر شرح ابن ماجة (١/ ٢٨٦)، وذكره النووي في الأذكار (١/ ٧٨٣)، وفي مجمع الأمثال (٢/ ٣٠٣).

ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴿٢٥﴾﴾.

والله تعالىٰ نسأل أن يحفظ ألسنتنا ناطقةً وصامته، وأن يكون كلامنا وصمتنا موافقا لما أمرنا به سبحانه وأمرنا به رسوله ﷺ.

والحمد لله رب العالمين.





الباب الثاني

الآداب الاجتماعية الوقائية

تمهيد:

إن الإسلام دين شامل كامل لكل نواحي الحياة وهو دين الفطرة فهو لا يحارب الفطرة الإنسانية بل إنه ينظمها وينظفها، ولا يرتب العقوبة علىٰ أمر إلا وقد جعل له أمورًا تقي منه فهو يضيق سبل الغواية والفساد والفتنة والإثارة ويفتح باب الطهارة والنظافة والعفاف.

فهذه الآداب الاجتماعية المذكورة في هذه السورة هي أمورٌ وقائية، تقي المجتمع من الوقوع في الزنا والفواحش، ولذلك يجب علينا أن ننظر إليها نظرة متأنية لكي يصبح المجتمع كله مجتمعًا نظيفًا طاهرًا عفيفًا لا تنتشر فيه الفاحشة، بل ولا ما هو أقل من ذلك من الأمور التي قد تؤدي إلىٰ الفاحشة.

ولذلك كان الخطاب في آيات الآداب يأتي مقرونا بالإيمان أو الخطاب للمؤمنين، «وهذا إشارة إلىٰ أن الله جل وعلا يريد للأمة المؤمنة أن تبني مجتمعها علىٰ الذوق والأدب والنضوج الحضاري والعفة»[١].

والوقاية تأتي بمعنىٰ الصيانة، والمراد هنا: صانه وستره عن الأذىٰ وحفظه وحماه[٢]، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾﴾ [الرعد:٣٤]، وقوله: ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ﴾ [الإنسان:١١]، وتسمىٰ الوقاية: جُنَّة، وعبر به عن الصيام كما في الحديث

(١) من لطائف التفسير (٢/ ٤١٧).

(٢) ينظر: تاج العروس للزبيدي (٤٠/ ٢٢٦).

الصحيح: «**والصوم جنة**»[(١)]؛ لأنه يقي صاحبه ما يؤذيه من الشهوات.

والمقصود بهذا الباب: الاحتراز بطاعة الله عن عقوبته، وذلك بصيانة النفس عمَّا تستحق به العقوبة من فعلٍ أو ترك.

ومجالات الوقاية في الإسلام كثيرة، لا يخلو منها بابٌ غالبًا، ولذا فقد شملت مناحي الحياة الفردية والجماعية، وقد استعمل علماء الأصول معاني مطابقة لمفهوم الوقاية، فمن إطلاقاتهم: الذريعة، سَدُّ الذرائع، درءُ المفاسد ونحو ذلك، وهو مبحثٌ جميل من مباحث العلم بحاجة لبسط وجمع لمسائله وبيان محاسن الإسلام فيه.

وعليه فالآداب الاجتماعية الوقائية التي ذكرها الله في هذه السورة هي:

١- أدب الاستئذان.

٢- أدب غض البصر.

٣- أدب الزينة.

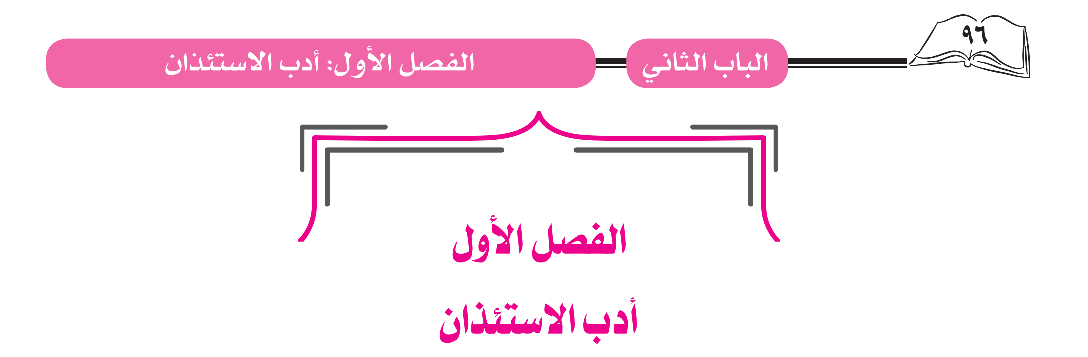
٤- مشروعية الزواج.

٥- آدابٌ داخل البيت الواحد.

وإليك بيانها كما وردت في كتاب الله عامة وفي آيات هذه السورة خاصة:



(١) أخرجه البخاري، كتاب الصوم، باب: هل يقول: إني صائم (١٨٠٥) و(٥٠٧٤)، ومسلم، كتاب الصيام، باب فضل الصيام (١١٥١).



الفصل الأول

أدب الاستئذان

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾ لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾﴾.

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِن بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ۚ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ ۚ طَوَّافُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾ وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾﴾

والكلام عليها يندرج في مبحثين:



المبحث الأول

أهمية الاستئذان ومجالاته

حرصت الشريعة الإسلامية علىٰ تحصيل مقاصد عليا ومصالح كلية، تنتظم بها حياة الناس ويتحقق لهم الخير والفلاح في الدنيا والآخرة.

ومن هذه المقاصد السامية حفظ الأعراض ورعاية الحقوق والحرمات؛ وذلك بتشريعاتٍ وآدابٍ تُحفظ بها الأعراض وتُرعىٰ بها الحرمات، وتسود من خلالها الفضيلة في المجتمع المسلم، ومن الآداب التي تحقق هذا المقصد الرفيع: **أدب الاستئذان**، وقد اشتملت السنة النبوية علىٰ حظٍ وافرٍ من التشريعات والتعاليم التي تقرر هذا الأدب وتحث عليه، وتدل الناس علىٰ التأدب به بالطريقة المثلىٰ والأداء القويم.

فإنه «لما خصص الله سبحانه ابن آدم- الذي كرمه وفضله- بالبيوت، وستره فيها عن الأبصار، وملكه الاستمتاع بها علىٰ الإنفراد؛ حجر علىٰ الخلق أن يطَّلعوا علىٰ ما فيها من خارج، أو يلجوها من غير إذنٍ، وأدَّبهم بما يرجع الستر عليهم لئلا يطلع أحد منهم علىٰ عورة»[(١)].

ولكي نستوعب أهمية الأدب الإسلامي نعود بالمخيِّلة إلىٰ الزمن الَّذي نزلت فيه هذه الآيات، ونمط السلوك الَّذي كان عليه أهل ذلك الزمان! فقد لا ندرك أهمية هذه التعاليم ما لم نتخيَّل حياة الجاهلية وخشونتهم، وكيف أنهم تحوَّلوا بفضل الإسلام إلىٰ سادة مهذَّبين، يحترمون الآخرين في حياتهم الخاصَّة والعامَّة، فلا

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٢/ ٢١٢).

يقتحمون عليهم بيوتهم، ولا يتطفَّلون عليها كما كانوا يفعلون قبل الإسلام، فقد كان أحدهم يدخل البيت، ثم يقول: لقد دخلت! أيًّا كانت الحالة الَّتي يكون عليها صاحب الدار وأهله.

من أجل هذا أدَّب الله المسلمين بهذا الأدب العالي، أدب الاستئذان قبل الدخول إلىٰ البيوت والسَّلام علىٰ أهلها، لإيناسهم وإزالة الوحشة من نفوسهم. وبذلك غدت البيوت حَرَمًا آمنًا، لا يستبيح أحد دخوله إلا بعلم أهله وإذنهم، وفي الوقت الَّذي يريدون، وعلىٰ الحالة الَّتي يحبُّون أن يلقاهم الناس عليها.

فجعل الله البيوت سكنًا يفيء إليها الناس، فتسكن أرواحهم، وتطمئن نفوسهم، ويؤمنون علىٰ عوراتهم وحرماتهم، والبيوت لا تكون كذلك إلا حين تكون حرمًا آمنًا لا يستبيحه أحد إلا بعلم أهله أو إذنهم، وفي الوقت الذي يريدون، وعلىٰ الحالة التي يحبون أن يلقوا عليها الناس.

وإن استباحة حرمة البيت من الداخلين دون استئذان، يجعل أعينهم تقع علىٰ عوراتٍ، وتلتقي بمفاتنَ تُثير الشهوات، وتُهيئ الفرصة للغواية الناشئة من اللقاءات العابرة والنظرات الطارئة، والتي قد تتكرر فتتحول إلىٰ نظراتٍ قاصدةٍ، تحركها الميول التي أيقظتها اللقاءات الأولىٰ علىٰ غير قصدٍ ولا انتظارٍ، وتحولها إلىٰ علاقاتٍ آثمةٍ بعد بضع خطوات، أو إلىٰ شهواتٍ محرمةٍ تنشأ عنها العُقَد النَّفسيَّة والانحرافات السلوكية.

وأبرز ثمرات الاستئذان:

- إنما يهتم القرآن بهذه الجزئية من الحياة الاجتماعية؛ لأنه يعالج الحياة كليًّا وجزئيًّا.
- الاستئذان علىٰ البيوت يحقق للبيوت حرمتها التي تجعل منها مثابةً وسكنًا.
- الاستئذان علىٰ البيوت يقضي علىٰ الفتنة ويقلع جذورها قبل وقوعها.

- الاستئذان علىٰ البيوت يوفر علىٰ أهلها الحرج من المفاجئة والضيق بالمباغتة.
- الاستئذان علىٰ البيوت يحقق حفظ العورات، وهي عورات كثيرة، فهي ليست عورات البدن فحسب، بل يضاف إليها عورات الطعام، وعورات اللباس، وعورات المتاع والأثاث التي قد لا يحب أهلها أن يفاجئهم عليها الناس دون تهيئة وتجمل وإعداد.
- الاستئذان يحفظ علىٰ البيوت عورات المشاعر والحالات النفسية، فالمرءُ لا يحب أن يراه الناس وهو في حالةٍ من ضعفٍ؛ يبكي لانفعالٍ مؤثرٍ، أو يغضبُ لشأنٍ مثيرٍ، أو يتوجع لألمٍ يخفيه عن الغرباء... الخ.

مجالات الاستئذان:

تعددت المجالات والمناسبات التي شُرع الاستئذان لها في الشريعة، فمن ذلك:

١.استئذان الجليسين جليسَهما الثالث ليتناجيا، ودليله ماثبت عن النبي ﷺ قال: «**إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجىٰ اثنان دون الثالث إلا بإذنه، فإن ذلك يُحْزِنه**»[(١)].

٢.الاستئذان عند الجلوس إلىٰ اثنين يتناجيان، قال النبي ﷺ: «**إذا تناجىٰ اثنان فلا تجلس إليهما حتىٰ تستأذنهما**»[(٢)].

٣.الاستئذان للجلوس بين شخصين، فقد قال النبي ﷺ: «**لا يحل لرجلٍ أن يفرِّق بين اثنين إلا بإذنهما**»[(٣)]، وإنما نهي عن ذلك وأمر بالاستئذان في هذا المقام؛

(١) أخرجه البخاري كتاب الاستئذان باب إذا كانوا أكثر من ثلاثة (٥٩٣٠)، ومسلم في السلام باب تحريم مناجاة الاثنين دون الثالث بغير رضاه (٢١٨٣).

(٢) أخرجه أحمد في المسند (٥٩٤٩) والبخاري في الأدب المفرد (١١٦٦)، وحسنه ابن حجر في الفتح (١١/ ٧٠) من رواية أحمد، وحسنه الأرناؤوط في تعليقه علىٰ المسند، وصححه الألباني في الصحيحة (١٣٩٥) وفي الأدب المفرد.

(٣) أخرجه أبو داود كتاب الأدب باب في الرجل يجلس بين الرجُلَين بغير إذنهما (٤٨٤٥)، والترمذي أبواب الأدب عن رسول الله ﷺ باب ما جاء في كراهية الجلوس بين الرجلين بغير إذنهما (٢٧٥٢)،=

لأنه قد يكون بينهما محبةٌ ومودةٌ وجريانُ سِرٍّ وأمانةٍ فيشق عليهما التفريق بجلوسه بينهما.

٤. الاستئذان في الإقران في أكل التمر، فعن جَبَلة قال: «كنا بالمدينة، فأصابتنا سنة، فكان ابن الزبير رضي الله عنهما يرزقنا التمر، وكان ابن عمر رضي الله عنهما يَمُرُّ بنا فيقول: لا تقرنوا، فإن النبي ﷺ **«نهىٰ عن الإقران، إلا أن يستأذن الرجل منكم أخاه»**»[١].
قال ابن الأثير في معنىٰ القِران: وهو أن يقرن بين التمرتين في الأكل[٢].

= والبخاري في الأدب المفرد (١١٤٢) وصححه الألباني.

(١) أخرجه البخاري كتاب المظالم باب إذا أذن إنسان لآخر شيئا جاز (٢٣٢٣)، ومسلم في الأشربة باب نهي الآكل مع جماعة عن قران تمرتين ونحوهما (٢٠٤٥).

(٢) النهاية في غريب الحديث (٤/ ٥٢).

المبحث الثاني

أحكام الاستئذان وآدابه

للاستئذان أحكام وآداب كثيرة يجب مراعاتها لتستقيم حياة الناس وتسموا أخلاقهم، ويمكن أن نجمل هذه الأحكام والآداب[١] في النقاط التالية:

١- اختيار الأوقات المناسبة:

قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَبۡلُغُواْ ٱلۡحُلُمَ مِنكُمۡ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٖۚ مِّن قَبۡلِ صَلَوٰةِ ٱلۡفَجۡرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعۡدِ صَلَوٰةِ ٱلۡعِشَآءِ﴾.

فإن هناك أوقاتًا لا يحب الناس أن يستأذن عليهم أحد فيها، كالوقت المتأخر من الليل، أو الصباح الباكر جدًا، أو عند وقت الظهيرة وغيرها من الأوقات التي تكون فيها الراحة غالبًا، أو الشغل، أو في ظروف خاصة في بيت المزار.

وفي وقتنا هذا تيسرت وسائل الاتصال، فيمكن للإنسان أن يتصل بالذي يريد زيارته قبل أن يأتيه وينبهه علىٰ أنه سيزوره في الوقت المحدد، أو أن يحدد له صاحب البيت الوقت المناسب للزيارة، لما فيه من منعٍ للإحراج وتحصيلٍ المنفعة.

٢- الاستئذان قبل الزيارة:

قال تعالىٰ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٢٧﴾. قال ابن عباس: الاستئناس هو الاستئذان[٢].

---

(١) لقد رجعت إلىٰ عدة كتب في الأخلاق والآداب لاستنباط تلك الآداب، وانظر بالأخص كتاب الآداب لفؤاد بن عبدالعزيز الشلهوب، وموسوعة الآداب الإسلامية لعبدالعزيز بن فتحي السيد نداء، وكتب التفسير للاستزادة.

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٦/ ٣٧).

ولفظ الآية يوحي بأن علىٰ القادم أن يتأكد من أن أهل البيت سيأنسون لوجوده، ولا ينزعجون؛ وذلك عن طريق الاستئذان، ولذلك قال الله تعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَـٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَـٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ﴾ [سورة الأحزاب ٥٣].

«فالاستئناس فيه إعلام أصحاب البيت وإشعارهم بالقدوم عليهم بأي وجهٍ ممكن، مع العلم أن إعلام أهل البيت بالقدوم لا يعد إذنًا له بالدخول ولكن لا بد من الاستئذان»[١].

وهذا الاستئذان خيرٌ للطرفين فلا يوقع الزائر في حرجٍ، وفي النظر إلىٰ ما حرم الله عليه، وهو خيرٌ لصاحب البيت للاستعداد والتهيئة لاستقبال الزائر، ولذا قال تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

٣- السنة السلام والاستئناس:

قال تعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾﴾. وقال تعالىٰ: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَـٰرَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾﴾.

وقد سئل النبي ﷺ علىٰ الاستئناس فقال: «**يتكلم الرجل بتسبيحة، وتحميدة، ويتنحنح فيأذن أهل البيت**»[٢]، فهذا دليلٌ علىٰ أن الاستئذان يختلف عن الاستئناس.

---

(١) من موضوعات سور القرآن (سورة النور) (ص٣٤).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٨/ ٦٠٧)، وابن ماجه كتاب الأدب باب الاستئذان (٣٧٠٧)، المعجم الكبير للطبراني (٤/ ١٧٨)، وضعفه الألباني في ضعيف سنن ابن ماجه (٣٧٠٧)، وقد أورده =

ومن الآية يُعلم أنه قبلَ أن يستأذن الزائر بالدخول علىٰ أحدٍ أن يسلم ثم يستأذن، ولما ورد عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ استأذن علىٰ النبي ﷺ فقال: «**السلام علىٰ رسول الله، السلام عليكم، أيدخل عمر؟**»[1]، فهنا بدأ بالسلام قبل الاستئذان.

وعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن رسول الله ﷺ استأذن علىٰ سعد بن عبادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقال: «**السلام عليكم ورحمة الله**». فقال سعد: وعليكم السلام ورحمة الله ولم يسمع النبي ﷺ حتىٰ سلم النبي ﷺ ثلاثا، ورد عليه سعد ثلاثا ولم يسمعه. فرجع النبي ﷺ، واتبعه سعد فقال: يا رسول الله بأبي أنت وأمي، ما سلمت تسليمة إلا وهي بأذني، ولقد رددت عليك ولم أُسْمِعْك، وأردت أن أستكثر من سلامك ومن البركة، ثم أدخله البيت، فقرَّب إليه زبيبًا، فأكل نبي الله ﷺ، فلما فرغ قال: «**أكل طعامكم الأبرار، وصلت عليكم الملائكة، وأفطر عندكم الصائمون**»[2].

٤- أن يقف المستأذن عن يمين أو شمال الباب:

وذلك حتىٰ لا يقع بصره علىٰ موضع لا يحل له النظر إليه، أو علىٰ شيءٍ يكره ربُّ الدار لأحدٍ رؤيته، فالاستئذان إنما شرع من أجل البصر، قال عليه الصلاة والسلام: «**إنما جعل الاستئذان من أجل البصر**»[3].

= ابن حجر في فتح الباري (١١/ ٨)، ولم يتكلم عليه فهو حسن عنده.

(١) الأدب المفرد باب كيف الاستئذان، قال الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ: صحيح الإسناد، صحيح الأدب المفرد (ص٤٢٠) (١٠٨٥).

(٢) أخرجه أبو داود كتاب الأطعمة باب ما جاء في الدعاء لرب الطعام إذا أُكل عنده (٣٨٥٤)، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه كتاب الصيام باب ثواب من فطر صائمًا (ح١٧٤٧).

(٣) أخرجه البخاري كتاب الاستئذان باب الاستئذان من أجل البصر (٦٢٤١). ومسلم كتاب الأب باب تحريم النظر في بيت غيره (٢١٥٦).

وعن عبدالله بن بسر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كان رسول الله ﷺ إذا أتىٰ باب قوم لم يستقبل الباب من تلقاء وجهه، ولكن من ركنه الأيمن أو الأيسر، ويقول: «**السلام عليكم**»، وذلك أن الدُور لم يكن عليها يومئذٍ ستورٌ[(١)].

فهذه علَّةٌ، والعلَّةُ الأخرىٰ ربما كان أهل البيت ينتظرون قدوم ربِّ الأسرة أو أحدهم فظنوه القادم ففتحوا من غير تحفظٍ ولا استعدادٍ فتنكشف عورات البيت من قِبَلِ القادم، بخلاف ما إذا راعىٰ الأدب النبوي فلم يواجه بوجهه باب المستأذن عليه.

٥- يحرم نظر الرجل في بيت غيره إلا بإذنه (غض البصر):

قال تعالىٰ ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ ...﴾... ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ....﴾.

وقد بيَّن النبي ﷺ تخصيص العقوبة عليه في البيوت، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ أنه قال: «**من اطلع في بيت قومٍ بغير إذنهم، فقد حَل لهم أن يفقئوا عينه**»[(٢)].

٦- الاستئذان ثلاثا:

عن أبي موسىٰ الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا استأذن أحدكم ثلاثا فلم يؤذن له فليرجع**»[(٣)]. ويدخل في ذلك دَقُّ الجرس ونحوه، مع مراعاة الفصل بين مرات القرع وذلك أدعىٰ للاستعداد وعدم الإزعاج.

ولكن هنا سؤال: إذا استأذن ثلاثا فلم يؤذن له، وظن أن استئذانه لم يسمع، فماذا يفعل المستأذن في هذه الحالة؟

(١) أخرجه أحمد في المسند (١٧٢٣٩)، والبخاري في الأدب المفرد مع اختلاف لفظه: (أن النبي إذا أتىٰ بابًا يريد أن يستأذن لم يستقبله، جاء يمينًا وشمالًا، فإن أُذن له وإلا انصرف) (١٠٧٨)، وصححه الألباني في صحيح الأدب (ص٤١٧) (١٠٧٨).

(٢) أخرجه مسلم كتاب الأب باب تحريم النظر في بيت غيره (٢١٥٨).

(٣) أخرجه مسلم كتاب الآداب باب الاستئذان (٢١٥٣).

الجواب: قال بعض العلماء: يرجع عملا بظاهر الحديث، وقال بعضهم: له أن يزيد حتىٰ يتحقق ويستيقن أن صوته سُمِعَ[(١)]، ولكن الأصل ألا يزيد علىٰ ثلاث، «فإذا لم يؤذن له بعد ثلاث ظهر أن رب المنزل لا يريد الإذن، أو لعله يمنعه من الجواب عذرٌ، فينبغي للمستأذن أن ينصرف لأن الزيادة علىٰ ذلك قد تقلق رب المنزل، وربما يضره الإلحاح[(٢)].

أما سنيَّة التسليمات الثلاث والرجوع بعد الثالثة، فقد وردت في حديث زيارة النبي ﷺ لسعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ المتقدم في أدب السلام وغيره.

٧- التعريف بنفسه بالاسم أو الكنية الصريحة المعروفة:

فلا يقل المستأذن: [أنا] إذا قيل من الطارق؟، وسبب ذلك أن قول المستأذن [أنا] ليس فيه تعريف بالمستأذن، فالجهالة باقية علىٰ حالها. فعن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: أتيت النبي ﷺ في دينٍ كان علىٰ أبي، فدققت الباب فقال: «من ذا؟» فقلت أنا. فقال: «**أنا.. أنا..!!**» كأنه كرهها[(٣)].

«وإنما كره ذلك لأن هذه اللفظة لا يُعرف صاحبها حتىٰ يُفصح باسمه أو كنيه التي هو مشهورٌ بها، وإلا فكلَّ أحدٍ يُعَبِّرُ عن نفسه بأنا، فلا يحصل بها المقصود من الاستئذان الذي هو الاستئناس المأمور به»[(٤)].

ولكن لا بأس أن يقول المستأذن: أنا فلان أو أبو فلان، إذا كان معروفًا مشتهرًا بكنيته، لأنه بذلك أزال الإبهام عن نفسه، ويذكر اسم أبيه إذا خشي وجود تشابه في الأسماء، ولم يحصل التميز بالصوت لكي يزيل الاشتباه.

---

(١) فتح الباري (١١/ ٢٩)، شرح حديث (٦٢٥٤).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (١٢/ ٢١٥).

(٣) أخرجه البخاري كتاب الاستئذان باب إذا قال: من ذا؟ فقال: أنا (٦٢٥٠)، ومسلم كتاب الآداب باب كراهية قول المستأذن أنا، إذا قيل من هذا (٢١٥٥).

(٤) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٦/ ٣٧).

٨- ينبغي للمستأذن ألا يدق الباب بعنف:

لما في ذلك من سوء الأدب، فعن أنس بن مالك أنه قال: «إن أبواب النبي ﷺ كانت تقرع بالأظافر»[١]. «وهذا محمول منهم علىٰ المبالغة في الأدب، وهو حسن لمن قرب محله من بابه، أما من بعد عن الباب بحيث لا يبلغه صوت القرع بالظفر فيستحب أن يقرع بما فوق ذلك بحسبه»[٢].

٩- إذا قال صاحب البيت للمستأذن ارجع فليرجع:

قال تعالىٰ: ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾. قال قتادة: «قال بعض المهاجرين: قد طلبت عمري كله هذه الآية فما أدركتها، أن أستأذن علىٰ بعض إخوتي فيقول لي ارجع فأرجع وأنا مغتبط»[٣] أي: فرحٌ مسرورٌ لاستجابة أمر الله.

«واستعمل القرآن كلمة ﴿ارْجِعُوا﴾ مع أنها قد لا تقال أبدًا للزائر، ولكن القرآن الكريم استعمل أبعد الاحتمالات حتىٰ لا يغضب المستأذن من أي كلمةٍ غيرها؛ كأن يقال: أنا مشغول ونحوها.»[٤].

ويجب علىٰ القادم أن يستقبل رد أخيه له بحسنِ نِيَّة، فقد يكون لا يستطيع أن يبدي للزائر سبب عدم استقباله. فالآية تعني: ارجعوا دون أن تجدوا في أنفسكم غضاضة، ودون أن تستشعروا من أهل البيت الإساءة عليكم أو النفرة منكم، فللناس أسرار وأعذار، ويجب أن يترك لهم وحدهم تقدير ظروفهم وملابساتهم في كل حين.

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (١٠٨٠). وقد أورده الحافظ بن حجر في فتح الباري (١١/ ٣٨). وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد (١٠٨٠).

(٢) فتح الباري (١١/ ٣٨)، شرح حديث (٦٢٥٠).

(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٦/ ٤١).

(٤) من لطائف التفسير (٢/ ٤١٩).

وهذا الأدب يكاد ينسىٰ حتىٰ بين الصالحين طلاب العلم!! فضلًا عن عامة الناس، بل ربما أثاروا المحاكمات والخصومات لأن فلانًا رَدَّ فلانًا أو لم يستقبله ووضع فيها أسوأ الاحتمالات والاتهامات، ولذا ساءت علاقة الناس ببعضهم وتفرق شمل كثير من الأسر والإخوان والأصدقاء بسبب ذلك!! حتىٰ غلب علىٰ الناس اليوم ترك هذا الأدب والمجاملة المقيتة مع النكد وعدم الاستئناس والانبساط للضيف، وانفجار الأمور لأتفه الأسباب وكل ذلك بسبب ترك الأمر ﴿ٱرْجِعُواْ﴾ ولذا فقدوا ما بعدها ﴿هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾ فتركنا الزكاء والخير الذي جاء به العليم بأحوال عباده.

وهكذا يسري الأدب المذكور في الآية علىٰ الهاتف والجوال، وركوب السيارة والانتفاع بالمتاع وغيرها مما يلزم فيه الاستئذان.

١٠- لا يدخل المستأذن الدار إن لم يكن بها أحد:

قال تعالىٰ: ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾. لأن ذلك تعدٍ علىٰ حقوق الآخرين «وذلك لما فيه من التصرف في ملك الغير بغير إذنه فإن شاء أذن وإن شاء لم يأذن»[(١)]. ثم ختم الله الآية بقوله: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ فهذا توعد لأهل التجسس علىٰ البيوت وطلب الدخول علىٰ غفلة[(٢)].

١١- جواز الدخول في البيوت التي ليس فيه أحد إذا كان له فيها متاع:

كالبيت المعد للضيف إذا أذن له فيه أول مرة، وقال بعض العلماء: هي بيوت التجارة ومنازل الأسفار[(٣)]. قال تعالىٰ: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَٰعٌ لَّكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾﴾.

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٦/ ٤١).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (١٢/ ٢٢٠).

(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٦/ ٤١)، وكانت تُسمىٰ بالخانات، واليوم يسمونها فنادق ومنازل المسافرين.

«فإذا كان لك بعض أغراض أو منافع في خربة[١] أو خان[٢] أو فندق أو رباط[٣] مخصص أو عام إذا كنت تستطيع أن تفتح وتدخل دون استئذان. لكن الآية قد ختمها الله بقوله ﴿لَّكُمْۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا تَكۡتُمُونَ ٢٩﴾ حتىٰ لا يستغل الناس دخول الأماكن الخربة والخانات والفنادق والأربطة استغلالا سيئا فيعصون الله فيها وهم يتظاهرون أنهم نزلاء.»[٤]، وذلك بشرط أن تكون مباحة مفتوحة، فأما إذا كانت ذات حارسٍ أو قيّمٍ أو ناظرٍ، أو الدار ذات سورٍ وأبوابٍ فلا إلا بإذن خاص لذلك.

١٢- الاستئذان عند إرادة القيام والانصراف من المجلس:

وهذا أدب نبوي رفيع، يوجه الزائر إلىٰ سلوك الأدب في الانصراف، فكما أن دخولك كان بالاستئذان فليكن انصرافك بالاستئذان أيضًا، ولعل العلة في ذلك - والله أعلم هو خشية وقوع البصر علىٰ شيء لا يحل النظر إليه، فعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا زار أحدكم أخاه فجلس عنده، فلا يقومن حتىٰ يستأذنه**»[٥].

وأيضًا أن ذلك فيه احترام لرب البيت لأن الزائر إذا خرج بدون استئذان فهذا يدل علىٰ عدم تقديره واهتمامه بصاحب البيت فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا انتهىٰ أحدكم إلىٰ المجلس فليسلم، فإذا أراد أن يقوم فليسلم، فليست الأولىٰ بأحق من الأخرىٰ**»[٦].

(١) الخربة: البيت المهجور.
(٢) خانٌ وفُنْدقٌ بلغة أهل الشام خان من هذه الخانات التي ينزلها الناس مما يكون في الطُّرُق والمَدَائن. انظر: اللسان (١٠/ ٣١٣).
(٣) رباط: هي الأوقاف.
(٤) من لطائف التفسير (٢/ ٤١٩).
(٥) رواه أبو الشيخ في تاريخ أصبهان (١١٣)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١/ ٣٠٤) (١٨٢).
(٦) أخرجه الترمذي كتاب الاستئذان باب التسليم عند القيام (٢٧٠٦)، وقال حديث حسن. وأبو داود كتاب الأدب باب في السلام إذا قام من المجلس (٥٢١٠)، وقال الألباني حسن صحيح، والبخاري في الأدب المفرد (١٠٠٨).

١٣- الاستئذان علىٰ الأم ومن في حكمها من المحارم:

كالأخت، والعمة، والخالة..... وذلك لكي لا يقع البصر علىٰ عورة، أو هيئة تكره النساء أن يراهنّ أحدٌ علىٰ تلك الحالة، فقد سأل رجل حذيفة بن اليمان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فقال: أأستأذن علىٰ أمي؟ فقال «إن لم تستأذن عليها رأيت ما تكره»[(١)].

ذكر ابن جرير: «وأخبرني ابن طاووس عن أبيه قال: ما من امرأة أكره إلي من أن أرىٰ عورتها من ذات محرم. قال: وكان يشدد في ذلك»[(٢)].

١٤- استحباب تنبيه الزوجة عند الدخول:

كي لا يرىٰ الزوج ما يبغضه من زوجته، أو تكون الزوجة علىٰ حال لا تود أن يراها زوجها وهي عليها، ولهذا جاء عن رسول الله ﷺ: «أنه كره أن يأتي الرجل أهله ليلا»[(٣)].

وفي الحديث الآخر: أن رسول الله قدم المدينة نهارا أناخ بظاهرها، وقال (انتظروا حتىٰ ندخل عشاء - يعني آخر النهار - حتىٰ تتمشط الشعثة وتستحد المغيبة)[(٤)].

١٥- استئذان أهل البيت علىٰ بعضهم:

قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَبۡلُغُواْ ٱلۡحُلُمَ مِنكُمۡ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٖۚ مِّن قَبۡلِ صَلَوٰةِ ٱلۡفَجۡرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعۡدِ صَلَوٰةِ ٱلۡعِشَآءِۚ ثَلَٰثُ عَوۡرَٰتٖ لَّكُمۡۚ لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ وَلَا عَلَيۡهِمۡ جُنَاحُۢ بَعۡدَهُنَّۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيۡكُم بَعۡضُكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٥٨ وَإِذَا بَلَغَ ٱلۡأَطۡفَٰلُ مِنكُمُ ٱلۡحُلُمَ فَلۡيَسۡتَـٔۡذِنُواْ كَمَا ٱسۡتَـٔۡذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٥٩﴾

---

(١) أخرجه البخاري الأدب المفرد (١٠٦٠)، وحسنه الألباني في صحيح الأدب المفرد (١٠٦٠).
(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٦/ ٣٩).
(٣) أخرجه البخاري كتاب النكاح باب لا يطرق أهله ليلاً إذا أطال الغيبة (٥٢٤٣).
(٤) أخرجه البخاري كتاب النكاح باب وتستحد المغيبة، تمشط الشعثة (٥٢٤٧).

«أمر الله تعالىٰ المؤمنين أن يستأذنهم خدمهم مما ملكت أيمانهم، وأطفالهم الذين لم يبلغوا الحلم تنبيها علىٰ أن من بلغ الحلم من باب أولىٰ أن يستأذن. وهذا الاستئذان يكون في ثلاث أحوال:

أ- قبل صلاة الفجر: لأن الناس يكونون نيامًا في فرشهم.

ب- في وقت القيلولة: لأن الإنسان قد يضع ثيابه في تلك الحال مع أهله.

ت- ومن بعد صلاة العشاء: لأنه وقت نوم»[١].

وسيأتي الكلام مفصلا علىٰ هذه الآية في موضوع (أحكام البيت المسلم).



(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٦/ ٨٣).

الفصل الثاني

غض البصر وحفظ الفرج

قال تعالىٰ ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا....﴾.

تبيَّن لنا فيما سبق أن الإسلام يهدف إلىٰ إقامة مجتمع نظيف، لا تُهاج فيه الشهوات، ولا تستثار فيه دفعات اللحم والدم، فعمليات الاستثارة المستمرة تنتهي إلىٰ سعار شهواني لا ينطفئ ولا يرتوي، والنظرة الخائنة، والحركة المثيرة، والزينة المتبرجة، والجسم العاري، كلها لا تصنع إلا أن تهيج ذلك السعار.

ومن إحدىٰ وسائل الإسلام في إنشاء مجتمع نظيف هي الحيلولة دون الاستثارة، وإبقاء الدافع الفطري العميق بين الجنسين سليما وبقوته الطبيعية دون استثارة مصطنعة.

ولذا جاء الأمر بغض البصر تحقيقا لقاعدة: [الوقاية خير من العلاج].

وإليك بيان ذلك من خلال دلالة الآيات الكريمة في هذه السورة:



المبحث الأول
الأمر بغض البصر

قال تعالىٰ ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ ...﴾.

وقال تعالىٰ.. ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ ...﴾.

غض البصر هو: «صرف المرء بصره عن التحديق وتثبيت النظر»[١].

«وهذا أمر من الله تعالىٰ لعباده المؤمنين أن يغضوا من أبصارهم عما حرم عليهم، وأن يغضوا أبصارهم عن المحرمات، فإن اتفق أن وقع البصر علىٰ محرم من غير قصد فليصرف بصره سريعا»[٢].

عن بريدة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ لعلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**لا تُتْبِع النظرة النظرة فإنما لك الأولىٰ وليست لك الآخرة**»[٣].

«وفي الأمر بغض البصر أدب شرعي عظيم؛ في مباعدة النفس عن التطلع إلىٰ ما عسىٰ أن يوقعها في الحرام، أو ما عسىٰ أن يكلفها صبرا شديدا عليها»[٤]، ولذلك قال الله تعالىٰ: ﴿أَزْكَىٰ لَهُمْ﴾ فهو أطهر لمشاعرهم، وأضمن لعدم تلوثها بالانفعالات الشهوانية في غير موضعها المشروع النظيف، وهو أطهر للأمة المسلمة وأصون لحرمتها وأعراضها.

---

(١) التحرير والتنوير (١٨/ ٢٠٤).

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٦/ ٤٢).

(٣) أخرجه أبو داود كتاب النكاح باب ما يؤمر به من غض البصر (٢١٤٨)، والترمذي كتاب الأدب باب ما جاء في نظر المفاجأة (٢٧٧٦). حسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي (٢٢٢٩)، وصحيح سنن أبي داود (١٨٦٥).

(٤) التحرير والتنوير (١٨/ ٢٠٤).

عن أبي أمامة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**ما من مسلم ينظر إلىٰ امرأة أول رمقه، ثم يغض بصره، إلا أحدث الله له عبادة يجد حلاوتها في قلبه**»[١].

ونهىٰ عن إطلاق البصر فعن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه: أن رجلا اطَّلَعَ في جُحْرٍ في باب رسول الله ﷺ، ومع رسول الله ﷺ مدرىٰ يحك به رأسه فلما رآه رسول الله ﷺ قال: «**لو أعلم أنك تنتظرني لطعنت به في عينك**»، وقال رسول الله ﷺ: «**إنما جعل الإذن من أجل البصر**»[٢].

ثم بعد ذلك جاء الأمر للمؤمنات بغض البصر أيضًا وحفظ الفرج فقال تعالىٰ: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ....﴾.

ذهب بعض العلماء إلىٰ أنه لا يجوز للمرأة أن تنظر إلىٰ الأجانب بشهوة أو بغير شهوة[٣] احتجاجا بهذه الآية، وبما ورد عن أم سلمة رضي الله عنها: أنها كانت عند رسول الله ﷺ وميمونة رضي الله عنها، قالت: فبينما نحن عنده أقبل ابن أم مكتوم رضي الله عنه، فدخل عليه، وذلك بعدما أمرنا بالحجاب، فقال رسول الله ﷺ: «**احتجبا منه**». فقلت يا رسول الله، أليس هو أعمىٰ لا يبصرنا ولا يعرفنا؟ فقال رسول الله ﷺ: «**أو عمياوان أنتما؟ ألستما تبصرانه**»[٤].

وذهب آخرون إلىٰ جواز نظرهن إلىٰ الأجانب بغير شهوة كما ثبت في الصحيح:

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٢٢٢٧٨)، والطبراني في الكبير (٧٨٤٢)، والبيهقي في الشعب (٥٤٣١). وفي إسناده ضعفٌ.

(٢) أخرجه البخاري كتاب اللباس باب الامتشاط (٥٥٨٠)، وفي كتاب الاستئذان باب الاستئذان من أجل البصر (٥٨٨٧)، و(٦٥٠٥)، ومسلم كتاب الآداب باب تحريم النظر في بيت غيره (٢١٥٦).

(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٦/ ٤٤).

(٤) أخرجه أبو داود كتاب اللباس باب قول الله تعالىٰ ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ﴾ (٤١١٢). والترمذي كتاب الأدب باب ما جاء في احتجاب النساء من الرجال (٢٧٧٨) وقال الترمذي حديث حسن صحيح. وضعفه الألباني في ضعيف الترمذي (٥٢٦)، وانظر الإرواء (٦/ ٢١١).

أن رسول الله ﷺ جعل ينظر إلىٰ الحبشة وهم يلعبون بحرابهم يوم العيد في المسجد، وعائشة أم المؤمنين تنظر إليهم من ورائه وهو يسترها منهم حتىٰ ملت ورجعت.

ويستدل علىٰ ذلك أيضا أن الله تعالىٰ «أردف أمر المؤمنين بأمر المؤمنات لأن الحكمة في الأمرين واحدة، وقد يظن أن الأمر خاص بالرجال لأنهم أكثر الناس ارتكابا لإطلاق البصر»[١].



(١) التحرير والتنوير (١٨/ ٢٠٥).

المبحث الثاني
فوائد غض البصر

هناك قاعدة جلية في شرعنا الحنيف وهي أن [من ترك شيء لله عوضه الله خيرًا منه][(١)]. ومن تطبيقاتها هنا أن الذي يغض بصره تحصل له فوائد كثيرة سواء في الدنيا أو الآخرة.

«والغض عن المحارم يوجب حلاوة الإيمان، ومن ترك شيئا لله عوضه الله خيرا منه، ومن أطلق لحظاته دامت حسراته؛ فإن النظر يولد **المحبة** في القلب، ثم تقوىٰ فتصير **صبابة** ينصب إليه القلب بكليته فيصير **غراما** يلزم القلب كلزوم الغريم، ثم يقوىٰ فيصير **عشقا**: وهو الحب المفرط، ثم يقوىٰ فيصير **شغفا**: وهو الحب الذي وصل إلىٰ شغاف للقلب ودواخله، ثم يقوىٰ فيصير **تتيما** والتتيم: التعبد، فيصير المتَتَيِّم عبدًا إلىٰ من لا يصلح أن يكون هو عبدًا له، فيقع القلب في **الأسر** فيصير أسيرا بعد ما كان أميرا ومسجونا بعد ما كان طليقا»[(٢)].

ويلخص فوائد غض البصر ابن تيمية وتلميذه رحمهما الله تعالىٰ: «جعل الله الزكاة بغض البصر وحفظ الفرج ولهذا كان غض البصر يوجب فوائد:

١- **حلاوة الإيمان ولذته.**

٢- **نور القلب وصحته وفراسته:** فالإنسان كما أمسك نور بصره عن المحرمات أطلق الله نور بصيرته وقلبه، فرأىٰ به ما لم يره من أطلق بصره ولم يغضه عن محارم الله.

---

(١) فتح الباري (٣/ ١٧١) و(٩/ ٢٣٥)، وشعب الإيمان للبيهقي (٥/ ٥٣). وفيض القدير (١/ ٥٣٠).

(٢) فيض القدير (١/ ٥٣٠).



٣- **قوة القلب وثباته وشجاعته:** ولهذا وجد المتبع هواه من ذل النفس وضعفها ومهانتها ما لا يلقاه من يصبر علىٰ ذلك، فإن الله سبحانه جعل العزة لمن أطاعه، والذلة لمن عصاه»[١].

٤- «**غض البصر هو امتثال لأمر الله تعالىٰ.**

٥- غض البصر **يخلص القلب من ألم الحسرة**، فمن أطلق بصره دامت حسرته.

٦- **يفرغ القلب للتفكر** في مصالحه والاشتغال بها وإطلاق البصر يشتت عليه ذلك»[٢].



(١) مجموع الفتاوىٰ لابن تيمية (١٥/ ٤٢٠-٤٢٦)، وإغاثة اللهفان (١/ ٤٨) ملخصًا.

(٢) انظر: مجموع الفتاوىٰ لابن تيمية (١٥/ ٤٢٠)، وروضة المحبين لابن القيم (٩٠-١٠٢)، والجواب الكافي (٢٠٥-٢٠٨).

المبحث الثالث

الأمر بحفظ الفروج

قوله تعالىٰ في الآية: ﴿وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ وقوله تعالىٰ: ﴿وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾:

«حفظ الفرج تارة يكون **بمنعه من الزنا** كما قال تعالىٰ: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٣١﴾﴾ [سورة المعارج ٢٩-٣١].

وتارة يكون حفظ الفرج **من النظر إليه** كما جاء في السنة من حديث معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن قال: قال رسول الله ﷺ: «**احفظ عورتك إلا من زوجتك أو ما ملكت يمينك**»[(١)]»[(٢)].

بل ونهىٰ النبي ﷺ عن النظر في بيوت الآخرين بغير إذنهم من أجل حفظ العورات عن الأعين أولًا فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ أنه قال: «**من اطلع في بيت قوم بغير إذنهم، فقد حل لهم أن يفقئوا عينه**»[(٣)]. وأمر الله تعالىٰ المؤمنين أن يستأذنهم خدمهم مما ملكت أيمانهم، وأطفالهم الذين لم يبلغوا الحلم تنبيها علىٰ أهمية حفظ العورات عمومًا.

ولا شك أن الحفظ هنا يشمل المعنيين، فيجب علىٰ الإنسان أن يحفظ فرجه عن الفواحش، وأن يحفظه من أن يراه أحد غير زوجته وما ملكت يمينه.

«والأمر بحفظ الفروج عقب الأمر بالغض من الأبصار لأن النظر رائد الزنا، فلما

---

(١) أخرجه أبو داود كتاب الحمام باب ما جاء في التعري (٤٠١٧)، وابن ماجه كتاب النكاح باب التستر عند الجماع (١٩٢٠). حسنه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (١٩٢٠).

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٦/ ٤٢).

(٣) أخرجه مسلم كتاب الأدب باب تحريم النظر في بيت غيره (٢١٥٨).

كان ذريعة له قصد المتذرع إليه بالحفظ تنبيها على المبالغة في غض الأبصار»[١].

وهنا **لطيفة جميلة** ذكرها العلماء في سبب زيادة: (من) في قوله تعالىٰ: ﴿يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ﴾، دون قوله تعالىٰ: ﴿وَيَحۡفَظُواْ فُرُوجَهُمۡۚ﴾:

«ذلك لأن غض البصر فيه سعة إذ يمكن أن يغض الإنسان بصره عن بعض النساء، وقد يرسله إلىٰ بعض آخر ممن يحرمن عليه، أما حفظ الفرج فالأمر فيه صارم وضيق، إذ الإنسان المؤمن يحفظ فرجه عن كل النساء إلا زوجته وما ملكت يمينه»[٢].

وكذلك غض البصر يكون عن ما يفتن ويجلب الشهوة، وليس المراد إغماض العين عن كل شيء ولذا جاء الإذن والاستثناء ﴿وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوۡ ءَابَآئِهِنَّ أَوۡ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوۡ أَبۡنَآئِهِنَّ أَوۡ أَبۡنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوۡ إِخۡوَٰنِهِنَّ أَوۡ بَنِيٓ إِخۡوَٰنِهِنَّ أَوۡ بَنِيٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوۡ نِسَآئِهِنَّ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيۡرِ أُوْلِي ٱلۡإِرۡبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفۡلِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يَظۡهَرُواْ عَلَىٰ عَوۡرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾ بخلاف حفظ الفروج فإنه أمر بحجبها بالكامل إلا عمن استثنىٰ الله ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ ۝٣٠ فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ ۝٣١﴾ [سورة المعارج ٣٠-٣١].

وغض النظر إنقاص للنظر والتحديق أو التدقيق، فبقاء شيء من النظر لا بد منه لكن مع حجب المؤثر فيه عن جرير بن عبدالله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: سألت رسول الله ﷺ عن نظر الفجاءة؟ فأمرني أن أصرف بصري)[٣]، فلا إثم عليه في أول ذلك فيجب عليه أن يصرف بصره في الحال فإن صرف في الحال فلا إثم عليه وإن استدام النظر أثم - ويجب علىٰ الرجال غض البصر عنها في جميع الأحوال.

(١) التحرير والتنوير (١٨/ ٢٠٤).

(٢) من لطائف التفسير (٤٢٥).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الآداب باب نظر الفجأة (٢١٥٩). و(نظر الفجاءة) ويقال بفتح الفاء وإسكان الجيم والقصر الفجأة لغتان؛ هي: البغتة. ومعنىٰ نظر الفجأة: أن يقع نظره علىٰ الأجنبية من غير قصد.

وأما الفروج فحفظها لا يتجزأ، ولذا ألحق الإمام الشافعي وغيره الاستمناء بهذه الآية في الحكم ﴿فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ ٣١﴾[1] والله تعالىٰ أعلم.

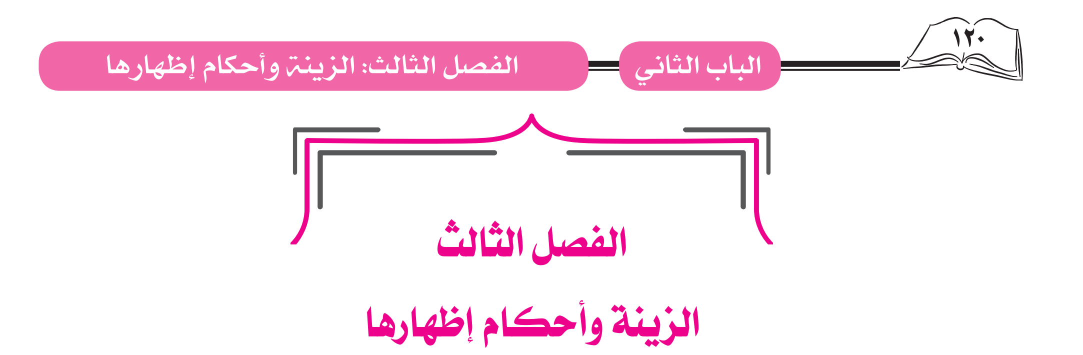
وقوله تعالىٰ ﴿وَيَحۡفَظۡنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ أي: يحفظنها كالرجال بعدم ارتكاب الفواحش، وأيضًا من أن يراها أحد غير أزواجهن، كما في الحديث: «**ولكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحدًا تكرهونه**»[2].

وختم الله الآية الأولىٰ فقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ٣٠﴾ أي: إن الله تعالىٰ لا تخفىٰ عليه خافية من أمر الناس وما يدور في قلوبهم قال تعالىٰ: ﴿يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ ١٩﴾ [سورة غافر ١٩].

فإذا أطلق الإنسان بصره ولم يراه أحد فإن الله سبحانه خبير بهذه النظرة الخائنة، ولو أباح فرجه لغير من تحل له فإنَّ الله مطلع عليه بل هو سبحانه أخبر به من المخلوقات كلها، لأنه يعلم ما توسوس به نفسه ويتردد في خياله قبل أن يتحول منه لهمسٍ أو قولٍ أو إشارةٍ بغمزةِ عينٍ أو عملٍ مهما دقَّ وخفي عن الخلق.



(١) أخرجه مسلم كتاب الحج باب حجة النبي ﷺ (١٢١٨) من حديث جابر بن عبدالله في حجة الوداع.
(٢) الأم (٥/ ١٣٧و٢١٤)، والمهذب (٣/ ٣٣٤)، وسنن البيهقي (٧/ ١٩٩)، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١٢/ ٩٧-٩٨ و٢٢١)، وبدائع الفوائد (٤/ ٩٠٥).



الفصل الثالث

الزينة وأحكام إظهارها

قال تعالىٰ: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾.

هذه الآية أدب من آداب الإسلام الإجتماعية الوقائية التي يحفظ الله بها المجتمع من الوقوع في براثن الرذيلة والفاحشة، وهذا الأدب الوقائي يتجه بالحديث إلىٰ المرأة التي هي مصدر تهييج الغرائز، بأمرها بالحفاظ علىٰ زينتها أن لا تبدوا أمام غير المحارم فقال تعالىٰ:

﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ أي: «ولا يظهرن شيئًا من الزينة للأجانب إلا مالا يمكن إخفائه»[١].

والكلام علىٰ الزينة يتشعب بنا إلىٰ ثلاثة مباحث: أهميتها، أحكامها، وخطر الاختلاط بالرجال. وتفصيلها فيما يلي:



(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٦/ ٤٥).

المبحث الأول
أهمية الزينة في حياة المرأة

لقد جاء الإسلام برفع ذوق المجتمع المسلم، وزاد من إحساسه بالجمال، وارتقى بالمسلم والمسلمة من الطابع الحيواني للجمال إلى الطابع الإنساني المهذب، ولذا فإن كشف الجسد جمال حيواني، وأما جمال الحشمة فهو الجمال النظيف الذي يرفع الذوق الجمالي وينميه عند الإنسان، ويحيطه بالنظافة والطهارة في الواقع وفي الحس وفي الخيال.

ولذا أمر الشارع بستر العورات والتجمال بالزينة فقال تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ﴾ إلى أن قال سبحانه: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ٣١ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ٣٢﴾ [الأعراف:٢٦-٣٢].

وامتنَّ عليهم بأنواع الحلي فقال تعالى: ﴿ٱبۡتِغَآءَ حِلۡيَةٍ﴾ [الرعد:١٧]، ﴿وَتَسۡتَخۡرِجُواْ مِنۡهُ حِلۡيَةٗ﴾ [النحل:١٤]، ﴿وَتَسۡتَخۡرِجُونَ حِلۡيَةٗ تَلۡبَسُونَهَاۖ﴾ [فاطر:١٢]، قال السعدي: «فتزيدكم جمالًا وحسنًا إلى حسنكم»[(١)]، وقال المفسرون: «وتستخرجوا منه زينة تلبسونها وتلبسها نساؤكم»[(٢)]، وقال الزمخشري: «المراد بلبسهم: لبس نسائهم؛ لأنهن من جملتهم، ولأنهن إنما يتزيَّن بها من أجلهم فكأنها زينتهم ولبساهم»[(٣)].

فالزينة من الأفعال المحمودة بل هي من الأفعال التي حث عليها شرعنا الحنيف

---

(١) تيسير الرحمن، للسعدي (ص٤٣٧).

(٢) المختصر في التفسير (ص٢٦٨).

(٣) الكشاف (٢/ ٥٩٨)، وانظر: أنوار التنزيل، للبيضاوي (٣/ ٢٢٢)، والبحر المحيط (٥/ ٤٦٥).

فقد ثبت عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**إن الله جميل يحب الجمال**»(١)، فالإسلام يحث علىٰ الزينة سواء للرجال أو النساء، ولكن الزينة في جانب النساء خاصة جبلة وطبعًا، ولذا خصت النساء بهذه الأحكام دون الرجال حسب الغالب تنظيمًا وضبطًا لها لا منعًا لها، وإن كان مقصود الشارع دفع الفتنة فلو تزين الرجل قصد فتنة النساء به فإنه يحرم عليه ذلك بلا خلاف.

والزينة هي حليةُ المرأة، جعلها الله تلبيةً لفطرتها وجِبِلَّتها ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ﴾ [الزخرف: ١٨]

فكل أنثىٰ مولعةٌ بأن تكون جميلةً، وأن تبدوا بزينتها، والإسلام لم يقاوم هذه الفطرة، ولكنه نظمها وضبطها، وجعلها تتبلور في الاتجاه بها إلىٰ رجلٍ واحدٍ هو زوجها؛ فيطَّلِع منها علىٰ مالا يطَّلِع أحد سواه. ويشترك معه في الاطِّلاع علىٰ بعض تلك الزينة المحارمُ، والذكور الذين بيَّنهم الشارع، ممن لا يثير شهواتهم ذلك الاطلاع.

وجمال الحشمة هو الجمال النظيف الذي يرفع الذوق الجمالي، ويجعله لائقًا بالإنسان، ويحيطه بالنظافة والطهارة في الحس والخيال، وهذا التحشم وسيلةً من وسائل الوقاية للفرد والجماعة من الوقوع في الرذيلة والطابع الحيواني المقيت.

«والزينة علىٰ قسمين خَلقية ومُكتسبة؛ **فالخلقية**: وجهها فإنه أصل الزينة وجمال الخلقة، وأما **المكتسبة**: فهو ما تحاوله المرأة في تحسين خلقتها، كالثياب والحُليِّ والكُحل والخِضاب»(٢).



---

(١) أخرجه مسلم كتاب الإيمان باب تحريم الكبر وبيانه (٩١).
(٢) الجامع لأحكام القرآن (١٢/ ٢٢٩).

المبحث الثاني
أحكام إظهار الزينة

ذكرنا أن الزينة من الأمور المباحة للمرأة، وقد تصل إلىٰ حد الوجوب حين يحتاج الزوج من زوجته أن تتجمل وتتزين له[١]، وقد تضمنت الآية بعض الأمور والأحكام في إبداء تلك الزينة، ومنها:

المطلب الأول
الزينة التي يجوز إبدائها

اختلف العلماء في قوله تعالىٰ: ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ علىٰ أقوال كثيرة، ولكن مع كثرة الأقوال يمكن أن نخرج بمجمل القول في تلك المسألة وهو: «أن المرأة منهيةٌ عن إبداء زينتها مطلقًا، لكن ما ظهر من الزينة من غير قصدٍ لإظهاره فهو معفوٌ عنه»[٢].

وهذا القول رجحه ابن عطية حيث قال: «ويظهر لي أن المرأة مأمورة بأن لا تبدي وأن تجتهد في الإخفاء لكل ما هو زينة، ووقع الاستثناء فيما يظهر بحكم ضرورة حركة فيما لا بد منها أو إصلاح شأن ونحو ذلك»[٣].

ثم قال تعالىٰ: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾:

---

(١) فالمرأة مأمورة بطاعة زوجها وعدم معصية أمرة والأدلة في ذلك كثيرة، فإذا أمرها بالتزين له فقد وجب عليها ذلك، ولكن إن أمرها أن تتزين لتستقبل أصحابه أو يحرج بها إلىٰ خارج البيت يرها كل الناس فهذا مملا لا يجوز لها أن تطيعه فيه. والله أعلم.

(٢) نقلا عن كتاب تفسير سورة النور – د. ناصر بن محمد الحميد.

(٣) المحرر الوجيز (٤/ ١٧٨).

الخُمُر: «جمع خمار وهو ما تغطىٰ به الرأس، والجيوب: أي صدورهن»[(١)]. «أي ليشددن بخمرهن علىٰ النحر والصدر فلا يُرَىٰ منه شيء»[(٢)].

وقد ورد عن أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أنها قالت: يرحم الله نساء المهاجرات الأول لما أنزل الله: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ شققن مروطهن فاختمرن بها[(٣)].



(١) الجامع لأحكام القرآن (١٢/ ٢٣٠).

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٦/ ٤٦)، وهذا القول مروي عن سعيد بن جبير رَحِمَهُ اللهُ.

(٣) أخرجه البخاري كتاب التفسير باب قول الله تعالىٰ: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ (٤٧٥٨).

المطلب الثاني
من يجوز للمرأة أن تبدي زينتها عنده

ثم شرع الله ﷻ في ذكر من يجوز للمرأة أن تبدي زينتها عنده على الأولوية، فقال تعالى: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ﴾.

هذا الاستثناء في الآية لبيان الحصر لما هو خلاف الأصل، وأنه لا يجوز الترخص فيه لغير من رخص الله له، فأول المستثنين هو الزوج: ﴿إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾: البعل هو الزوج في كلام العرب»[(١)].

«وإنما سمي زوج المرأة بَعْلًا لأنه سيدها ومالكها، وتَبَعَّلَت المرأةُ أطاعت بَعْلَها، وتَبَعَّلَت له تزينتْ، وامرأة حَسَنَة التَّبَعُّل: إذا كانت مُطاوِعة لزوجها مُحِبَّة له، والبَعْل والتَّبَعُّل: حُسْن العِشْرة من الزوجين والبِعال: حديث العَرُوسَيْن، والتَّباعل والبِعال: ملاعبة المرءِ أَهلَه، وقيل البِعال: النكاح، والمـُباعَلة: المـُباشَرة، ويقال للمرأة هي تُباعِل زَوْجَها بِعالًا ومُباعَلة أَي: تُلاعبه»[(٢)].

«فالزوج يرى الزينة من المرأة وأكثر من الزينة إذ كل محل من بدنها حلال له لذة ونظرًا، ولهذا المعنى أيضًا بدأ بالبعولة، لأن اطلاعهم يقع على أعظم من هذا»[(٣)]، يقول الشوكاني: «وقدم البعولة لأنهم المقصودون بالزينة ولأن كل بدن الزوجة والسرية حلال لهم»[(٤)].

(١) فتح القدير (٥/ ٢٠٩).
(٢) لسان العرب (١١/ ٥٧).
(٣) الجامع لأحكام القرآن (١٢/ ٢٣١) مختصرًا.
(٤) فتح القدير (٥/ ٢٠٩).

فالزوجة مطالبة بأن تبدي زينتها لزوجها وأن تتزين له بما يلفت نظره إليها بأي أنواع الزينة بشرط ألا تكون محرمة، وقد أمرها النبي ﷺ بذلك فقال: «**خير النساء التي تسره إذا نظر، وتطيعه إذا أمر، ولا تخالفه في نفسها ولا مالها بما يكره**»[(١)].

ثم قال: ﴿ءَابَآئِهِنَّ أَوۡ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوۡ أَبۡنَآئِهِنَّ أَوۡ أَبۡنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوۡ إِخۡوَٰنِهِنَّ أَوۡ بَنِيٓ إِخۡوَٰنِهِنَّ أَوۡ بَنِيٓ أَخَوَٰتِهِنَّ﴾ أي: الأب، وأبو الزوج، والأبناء، وأولاد الأزواج من زوجة أخرىٰ، والإخوة، وأبناء الإخوة وأبناء الأخوات.

ولم يذكر هنا العم والخال لأنهما قد يصفانهن لأبنائهم، كما ورد ذلك عن الشعبي وعكرمة[(٢)]، وقد يكون لغير ذلك مما لا نعلمه.

«والظاهر أن سكوت الآية عن العم والخال ليس لمخالفة حكمهما حكم بقية المحارم ولكنه اقتصار علىٰ الذين يكثر دخولهم بيت المرأة، وأيضا يلحق بهؤلاء القرابة من كان في مراتبهم من الرضاعة لقول النبي ﷺ: «**يحرم من الرضاعة ما يحرم من الولادة**»[(٣)]»[(٤)].

﴿أَوۡ نِسَآئِهِنَّ﴾ أي: «تظهر زينتها للنساء المسلمات دون نساء أهل الذمة لئلا تصفنهن لرجالهن من بني دينهن، لأنهن لا يمنعهن من ذلك مانع، وأما المسلمة فهي تعلم أن ذلك حرام فتنزجر عنه، فقد قال رسول الله ﷺ: «**لا تباشر المرأةُ المرأةَ، تنعتها**

---

(١) أخرجه أحمد (١٢/ ٣٨٣) (٧٤٢١) و(٩٥٨٧، ٩٦٥٨)، والنسائي كتاب النكاح باب أي النساء خير (٦/ ٦٨) (٣٢٣١)، والحاكم في المستدرك (٢/ ١٦٢)، وصححه الألباني في النسائي، وصحيح الجامع (٣٢٩٨).

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٦/ ٤٧).

(٣) أخرجه البخاري كتاب النكاح باب يحرم من الرضاعة ما يحرم من النسب (٥٠٩٩). ومسلم كتاب الرضاعة باب يحرم من الرضاعة ما يحرم من الولادة (١٤٤٤).

(٤) التحرير والتنوير (١٨/ ٢١٣).

لزوجها كأنه ينظر إليها»[١]»[٢].

﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾ أي المملوك يجوز أن ينظر لسيدته. «وظاهر الآية يشمل العبيد والإماء، المسلمات والكتابيات»[٣].

﴿أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُوْلِي ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ﴾ أي الذين ليس لهم حاجة في النساء، فالإربة: هي الحاجة. وقد اختلف العلماء في من هم أولي الإربة؟ فقيل: المجنون والمخصي[٤]، والمُخَنَّثُ[٥]، والعِنِّينُ[٦]، وكل هذه الصفات تجتمع في أنه لا همة له إلىٰ أمر النساء[٧].

﴿أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُواْ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾: يعني لصغرهم لا يفهمون أحوال النساء وعوراتهن، من فهم كلامهن الرخيم وحركاتهن، فإذا كان الطفل لا يفهم ذلك فلا بأس بدخوله علىٰ النساء، فأما إن كان مراهقًا أو قريبًا من المراهقة فلا يجوز له أن يدخل علىٰ النساء.

قال ﷺ: «**إياكم والدخول علىٰ النساء**» قالوا يا رسول الله، أرأيت الحمو؟ قال: «**الحمو الموت**»[٨].

---

(١) أخرجه البخاري كتاب النكاح باب: لا تباشر المرأة المرأة فتنعتها لزوجها (٥٢٤١).
(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٦/ ٤٧).
(٣) الجامع لأحكام القرآن (١٢/ ٢٣٣).
(٤) المخصي: خَصَيْتُ الفَحْلَ أَخْصِيه إذا سَلَلْتَ الخصاء: خصيت الفحل خِصَاءً بالكسر والمَدّ: إذا سللت خُصْيَيْه وهي أنثييه أو قطعتهما، فهو خصي. انظر: مختار الصحاح (١٨٨)، ومعجم لغة الفقهاء (١٩٦)، والمخصص (١/ ١١٨).
(٥) الـمُخنث: الخُنْثَىٰ الذي لا يَخْلُصُ لِذَكَرٍ ولا أُنثىٰ والخُنْثَىٰ الذي له ما للرجال والنساء جميعًا. اللسان (٢/ ١٤٥).
(٦) العنين: رجل عنينٌ لا يقدر علىٰ إتيانِ النِّسَاء أو لا يشتهي النِّساء وامرَأَةٌ عِنِّينَةٌ لا تشتهي الرجال. انظر: المصباح المنير (٦/ ٣٩٢)، والمخصص (١/ ٤٤٤)، والمحكم المحيط (١/ ٣٠).
(٧) الجامع لأحكام القرآن (١٢/ ٢٣٤) بتصرف.
(٨) أخرجه البخاري كتاب النكاح باب لا يخلوا رجل بامرأة إلا ذوا محرم (٥٢٣٢). ومسلم كتاب=

فهؤلاء الذين يجوز للمرأة إظهار زينتها أمامهم، لقلة توقع الفتنة منهم في الأصل.

وقد نبه الإمام القرطبي إلىٰ أمر مهم جدا وهو: «أن هؤلاء المحارم وإن سوىّٰ الله سبحانه بينهم في إبداء الزينة، ولكن تختلف مراتبهم بحسب ما في نفوس البشر، فلا مرية أن كشف الأب والأخ علىٰ المرأة أحوط من كشف ولد زوجها، وتختلف مراتب ما يُبدىٰ لهم، فَيُبدىٰ للأب ما لا يجوز إبداؤه لولد الزوج»[(١)].

= السلام باب تحريم الخلوة بالأجنبية والدخول عليها (٢١٧٢).

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٢/ ٢٣٢).

المطلب الثالث

البعد عن دواعي إبداء الزينة لغير المحارم

ثم قال تعالىٰ: ﴿وَلَا يَضۡرِبۡنَ بِأَرۡجُلِهِنَّ لِيُعۡلَمَ مَا يُخۡفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾: «أي لا تضرب المرأة برجلها لتسمع صوت خلخالها فإسماع صوت الزينة كإبداء الزينة وأشد»[١].

«وفي النهىٰ عن إبداء صوت الحلىٰ بعد النهىٰ عن إبداء عينها من المبالغة في الزجر عن إبداء موضعها مالا يخفىٰ»[٢].

«ولما كانت الوقاية هي المقصود بهذا الإجراء الوقائي من منع كشف الزينة لغير المحارم، فقد مضت الآية تنهي المؤمنات عن الحركات التي تعلن عن الزينة المستورة، وتهيج الشهوات الكامنة.

فإن الخيال ليكون أحيانا أقوىٰ في إثارة الشهوات من العيان، وكثيرون تثير شهواتهم رؤية حذاء امرأة أو ثوبها أو حليها، أكثر مما تثيرها رؤية جسد المرأة ذاته، وسماع وسوسة الحلي أو شمام رائحة العطر من بعيد قد يثير حواس رجال كثيرين، ويهيج أعصابهم، ويفتنهم فتنة جارفة لا يملكون لها ردا»[٣].

ولهذا جاء النهي من الله تعالىٰ لأنه هو الذي خلق تلك النفس ويعلم ضعفها وما يُؤَثِّر فيها.

فإن ذلك يورث ميلا في الرجال، وهو أبلغ من النهي عن إظهار الزينة وأدل علىٰ المنع من رفع الصوت[٤].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٢/ ٢٣٧).
(٢) إرشاد العقل السليم -أبو السعود (٦/ ١٧١).
(٣) انظر: روح المعاني- الألوسي (١٨/ ١٤٦) بتصرف.
(٤) انظر: أنوار التنزيل البيضاوي (١/ ١٨٣)، إرشاد العقل السليم -أبو السعود (٦/ ١٧١).

و«مما يلحق بالزينة المنهي عن إبدائها:

١- ما يلبسه أكثر مترفات النساء في زماننا فوق ثيابهن ويتسترن به إذا خرجن من بيوتهن وهو غطاء منسوج من حرير ذي عدة ألوان وفيه من النقوش الذهبية أو الفضية ما يبهر العيون، وأرىٰ أن تمكين أزواجهن ونحوهم- من أوليائهن- لهن من الخروج بذلك ومشيهن به بين الأجانب من قلة الغيرة وقد عمت البلوىٰ بذلك»[(١)].

٢-«ومن ذلك أنها تُنهىٰ عن التعطر والتطيب عند خروجها من بيتها لِيَشْتَمَّ الرجال طيبها»[(٢)]، وقد نهىٰ النبي ﷺ عن أن تخرج المرأة متعطرة، فقال ﷺ: «**والمرأة إذا استعطرت، فمرت بالمجلس فهي كذا وكذا**» يعني زانية[(٣)]، فكل ما كان سببًا في لفت الأنظار وإظهار الزينة فهو منهي عنه شرعا.

٣- ومن ذلك رقص النساء في مجالس الرجال... وقد أومأ إلىٰ علة ذلك قوله تعالىٰ: ﴿لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾[(٤)].

٤- وقد لعن النبي ﷺ المستوشمات والمتفلجات للحسن، عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: «**لعن الله الواشمات والمستوشمات والمتنمصات والمتفلجات للحسن المغيرات خلق الله تعالىٰ**»؛ ما لي لا ألعن من لعن النبي ﷺ!! وهو في كتاب الله: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾.. إلىٰ ﴿فَٱنتَهُوا۟﴾[(٥)] [سورة الحشر: ٧].

---

(١) روح المعاني- الألوسي (١٨/ ١٤٦).
(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٦/ ٤٩).
(٣) أخرجه الترمذي كتاب الأدب باب ما جاء في كراهية خروج المرأة متعطرة (٢٧٨٦)، من حديث أبي هريرة. وقال الترمذي هذا حديث حسن صحيح. وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (٢٢٣٨).
(٤) التحرير والتنوير (١٨/ ٢١٤).
(٥) أخرجه البخاري كتاب التفسير باب ماآتاكم الرسول (٤٦٠٤)، وكتاب اللباس باب المتفلجات للحسن (٥٥٨٧ و٥٥٩٩ و٥٦٠٤)، ومسلم كتاب اللباس والزينة باب تحريم فعل الواصلة (٢١٢٥).

٥- «وعلىٰ هذا فيحرم رفع صوت المرأة بالغناء إذا سمعها الأجانب، سواء أكان الغناء علىٰ آلة لهو أو كان بغيرها، وتزيد الحرمة إذا كان الغناء مشتملا علىٰ أوصاف مهيجة للشهوة كذكر الحب والغرام وأوصاف النساء والدعوة إلىٰ الفجور وغير ذلك»[١].

٦- وأمر النساء بعدم إبداء الزينة إلا لمن استثنىٰ؛ يشير إلىٰ أنه لا ينبغي لمن تزينت بزينة يُسَرُّ بها أن تُظهرها بالحديث والوصف أو الصورة لغير المحارم، أولمن لا يسترها -من المحارم- عن الأجانب، وأنه لا يجوز لزوجها -وغيره من باب أولىٰ- إظهارها كذلك لعموم الآية ونهي النبي ﷺ كما في حديث: «**لا تباشر المرأة المرأة فتنعتها لزوجها كأنه ينظر إليها**»[٢]، وحديث: «**إن من أعظم الأمانة عند الله يوم القيامة الرجل يفضي إلىٰ امرأته وتفضي إليه ثم ينشر سرها**»[٣].

«قال القابسي هذا أصل لمالك في سد الذرائع فإن الحكمة في هذا النهي خشية أن يعجب الزوج الوصف المذكور فيفضي ذلك إلىٰ تطليق الواصفة أو الافتتان بالموصوفة»[٤].

٧- ومن إبداء ما خفي من الزينة الحسية والمعنوية ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ [سورة الأحزاب ٣٣]، وهو: التبختر والتكسر في الحركة والمشية كما نص عليه السلف رحمهم الله تعالىٰ[٥].

٨- ومنه لبس المرأة الملابس الضيقة التي تبدي مفاتنها، وأشد منه أن تلبس

(١) الفقه علىٰ المذاهب الأربعة (٥/ ٢٦).
(٢) أخرجه البخاري كتاب النكاح باب لا تباشر المرأة المرأة فتنعتها (٥٢٤٠ و٥٢٤١).
(٣) أخرجه مسلم كتاب النكاح باب تحريم إفشاء سر المرأة (١٤٣٧).
(٤) فتح الباري (٩/ ٢٥٠).
(٥) جامع البيان لابن جرير (١٩/ ٩٧)، وزاد المسير (٦/ ٣٨٠)، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير (٦/ ٤١٠).

المرأة الملابس التي يبدوا فيها شيء من جسدها كالظهر والبطن، والفخذين وجزءًا من الصدر[١].

٩- ومنه التبرج بالزينة: التحلي بما ليس من العادة التحلي به في الظاهر من تحمير وتبييض وكذلك الألوان النادرة[٢].

والحاصل:

أن الآية عامّة للنساء وفي كل ما يُظهر الزينة عمدًا ولأيِّ علةٍ كانت، وللرجال أيضًا، وإن اختلف إثم كل مسألةٍ بحسبها فـ«من فعل ذلك منهن فرحًا بحليهن فهو مكروه، ومن فعل ذلك منهن تبرجًا وتعرضًا للرجال فهو حرام مذموم، وكذلك من ضرب بنعله من الرجال إن فعل ذلك تعجبًا حرم، فإن العجب كبيرة، وإن فعل ذلك تبرجًا لم يجز»[٣]. وسواء كان الإظهار بالرؤية أو السماع أو غيرهما «نهىٰ الله تعالىٰ عما يوجب العلم بالزينة الخفية بالسمع أو غيره»[٤].

ثم يختم الله تعالىٰ هذا التوجيه بقوله: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾ أي: «افعلوا ما أمركم الله به من هذه الصفات الجميلة والأخلاق الجلية، فإن الفلاح في فعل ما أمر الله به ورسوله وترك ما نهيا عنه»[٥].

«والمراد بالتوبة علىٰ هذا: التوبة عمَّا في الحال، وعن ابن عباس رضي الله تعالىٰ عنهما أن المراد: التوبة عما كانوا يفعلونه قبل من إرسال النظر، وغير ذلك. وهو وإن جُبَّ بالإسلام لكنه يلزم الندم عليه، والعزم علىٰ الكف عنه، كلما يُتَذَكَّر. وقد قالوا:

---

(١) للاستزادة أنظر: أحكام الحجاب من موضوعات سورة الأحزاب للباحث.
(٢) التحرير والتنوير (١٨/ ٢٩٨).
(٣) الجامع لأحكام القرآن (١٢/ ٢٠٥).
(٤) مجموع الفتاوىٰ (١٥/ ٣٧٢).
(٥) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٦/ ٥٠).

إن هذا يلزم كل تائبٍ عن خطيئةٍ إذا تذكرها. ومنه يُعلم أن ما يفعله كثير ممن يزعمون التوبة من نقل ما فعلوه من الذنوب علىٰ وجه التبجح والاستلذاذ؛ عن عدم صدق توبتهم»[(١)].

يقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «إن أمره لجميع المؤمنين بالتوبة في هذا السياق: تنبيهٌ علىٰ أنه لا يخلو مؤمن من بعض الذنوب؛ التي هي ترك غض البصر، وحفظ الفرج، وترك إبداء الزينة، وما يتبع ذلك. فعن النبي ﷺ أنه قال: «**كل ابن آدم خطّاءٌ وخير الخطاءين التوابون**»[(٢)].

وعن أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «**يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار، وأنا أغفر الذنوب جميعا، فاستغفروني أغفر لكم**»[(٣)]»[(٤)].

وعن الأغرِّ رضي الله تعالىٰ عنه: قال سمعت رسول الله صلىٰ الله تعالىٰ عليه وسلم يقول: «**يا أيها الناس توبوا إلىٰ الله فإني أتوب إليه كل يوم مائة مرة**»[(٥)].

«وفي الأمر بالتوبة تنبيه علىٰ أن أهل الفواحش الذين لم يغضوا أبصارهم ولم يحفظوا فروجهم مأمورون بالتوبة، وإنما أمروا بالتوبة لتقبل منهم، فالتوبة مقبولة منهم ومن سائر المذنبين، قال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾﴾ [سورة التوبة ١٠٤]»[(٦)].

---

(١) روح المعاني -الألوسي (١٨/ ١٤٦).

(٢) أخرجه الترمذي كتاب صفة القيامة باب (٤٩) (٢٤٩٩). وابن ماجه كتاب الزهد باب ذكر التوبة (٤٢٥١). وحسنه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (٤٢٥١).

(٣) أخرجه مسلم كتاب البر والصلة والآداب باب تحريم الظلم (٢٥٧٧).

(٤) مجموع فتاوىٰ شيخ الإسلام ابن تيمية (١٥/ ٤٠٣-٤٠٩) مختصرا.

(٥) أخرجه مسلم كتاب الذكر والدعاء والاستغفار باب استحباب الاستغفار (٢٧٠٢)، والبخاري كتاب الدعوات باب استغفار النبي ﷺ في اليوم والليلة (٥٩٤٨) بلفظ: (والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة).

(٦) مجموع فتاوىٰ شيخ الإسلام ابن تيمية (١٥/ ٤٠٣).

ويلاحظ في أسلوب الآية «تلوين للخطاب وصرف له عن رسول الله ﷺ إلىٰ الكل بطريق التغليب لإبراز كمال العناية بما في حيزه من أمر التوبة وأنها من معظمات المهمات الحقيقية بأن يكون سبحانه وتعالى الآمر بها لما أنه لا يكاد يخلو أحد من المكلفين عن نوع تفريط في إقامة مواجب التكاليف كما ينبغي لا سيما في الكف عن الشهوات

وفي تكرير الخطاب بقوله تعالىٰ ﴿أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ تأكيد للإيجاب وإيذان بأن وصف الإيمان موجب للامتثال حتما»[(١)].



(١) روح المعاني -الألوسي (١٨/ ١٤٦).

المطلب الرابع

تحريم زينة القول

قال تعالىٰ: ﴿وَلَا يَضۡرِبۡنَ بِأَرۡجُلِهِنَّ لِيُعۡلَمَ مَا يُخۡفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾: هذه الآية ليست مقتصرة علىٰ إبداء الزينة عن طريق المشي فقط فإبداء الزينة للمرأة يكون بأمور كثيرة ذكرناها سابقًا، ولكن هناك أمر تساهل فيه الكثير وهو صوت المرأة.

فالمرأة من طبيعتها أن صوتها جميل وملفت لأسماع وقلوب الرجال، ولكن الله تعالىٰ لم ينه المرأة عن الحديث، لأن فيه تعطيلًا للمصالح، والصوت هو لغة التخاطب بين الناس، ولكن الله ﷻ أمر النساء أن لا يكون كلامهن فيه ليونة وميوعة فقد قال الله تعالىٰ يوصي نساء النبي ﷺ: ﴿فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٌ﴾ [سورة الأحزاب ٣٢].

«**فالخضوع بالقول هو**: ترقيق الكلام إذا خاطبن الرجال»[(١)].

ولكن من هن اللواتي يحذرهن الله هذا التحذير؟!!

إنهن أزواج النبي ﷺ، وأمهات المؤمنين، اللواتي لا يَطْمعُ فيهن طامعٌ، ولا يخطرُ عليهن خاطرٌ مريض.

وفي أي عهدٍ يكون هذا التحذير؟!!

إنه في عهد النبي ﷺ، في عهد الصفوة المختارة من البشرية.

فالله سبحانه خالق الرجال والنساء، فيعلم أن في صوت المرأة حين تخضع بالقول ما يثير الطمع في القلوب، ويثير الفتنة في القلوب، وأن القلوب المريضة التي تَطمع

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٦/ ٤٠٩).

وتُثار موجودةٌ في كل عهدٍ وفي كل بيئةٍ، وتجاه كل امرأةٍ، ولو كانت هي زوج النبي الكريم ﷺ، وأنه لا طهارة من الدنس، ولا تخلص من الرجس؛ حتىٰ تمتنع الأسباب المثيرة من الأساس.

فكيف حال المجتمع الذي نعيش فيه اليوم!! وهو عصرٌ غلب فيه الدنس وكثر الكلام الهابط، وتنوعت أساليب تهييج الفتن فيه، وتثوير الشهوات، وطغت فيه الأطماع؟ كيف بنا في هذا الزمان الذي سهُل فيه الضياع، فنساء يتكسَّرن في نبراتهن، ويتميَّعن في أصواتهن، ويجمعن كل فتنة الأنوثة، وكل هتافٍ للشهوات، وكل سعارٍ محموم، ثم يطلقنه في نبرات ونغمات، فأين هن من الطهارة؟! وكيف يحصل الطهر في هذا الجو الملوث؟! وهنَّ بذواتهن وحركاتهن وأصواتهن يجلبن ذلك الرجس الذي يريد الله أن يُذْهِبه عن عباده المسلمين.

ثم يأمر الله تعالىٰ النساء إذا احتجن إلىٰ الحديث مع الرجال للضرورة أن يتكلمن بالمعروف، فقال تعالىٰ: ﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۝٣٢﴾ [سورة الأحزاب ٣٢]: «قولا حسنا جميلا معروفا في الخير»[(١)]، «فلا تقلن قولاً غليظًا ولا جافٍ كما أنه ليس بلينٍ خاضعٍ»[(٢)].

والله أعلم.

فائدة لطيفة:

«قال مكي رحمه الله تعالىٰ: ليس في كتاب الله تعالىٰ آية أكثر ضمائر من هذه، جمعت خمسة وعشرين ضميرًا للمؤمنات من مخفوض ومرفوع»[(٣)].



---

(١) المصدر السابق.
(٢) تيسير الكريم الرحمن للسعدي (٦١١).
(٣) الجامع لأحكام القرآن (١٢/ ٢٣٨).

المبحث الثالث

خطورة الاختلاط

إن الاختلاط من الأمور التي نبهنا الله تعالىٰ علىٰ حرمتها، حيث أنه من أهم الأسباب الميسرة للفاحشة، فقد قال رسول الله ﷺ: «**إياكم والدخول علىٰ النساء**» قالوا يا رسول الله، أرأيت الحمو؟ قال: «**الحمو الموت**»[١].

هذا التحريم في جهة الأقارب، فما بالك بغيرهم من الناس الذين ليسوا من العائلة!! إن التحريم يكون أشد بلا شك.

ومعنىٰ الحمو الموت: «أن الخوف منه أكثر من غيره، والفتنة أكبر، لتمكنه من الوصول إلىٰ المرأة والخلوة بها، من غير أن ينكر عليه أحد، بخلاف الأجنبي، وكذلك قد تتساهل المرأة بكشف زينتها أمامه وإبداء مفاتنها له، مما يؤدي إلىٰ الفتنة والهلاك في الدين فجعله عليه الصلاة والسلام كهلاك الموت»[٢].

وهذا الحديث مفسر للآية وهو أصل في النهي عن الاختلاط بالرجال الأجانب عمومًا، وخصوصًا الأقارب منهم الذين لا يتصور منهم ذلك الفساد والشر غالبًا، لأن كثرة المخالطة والمجالسة تدعوا لنزع الهيبة واجتراء المحرمات المنهي عنها في الآيات، فيكثر إطلاق البصر، ورؤية الزينة، بل والخضوع في القول ولين الكلام، ناهيك عما يحصل من المجاملة والمضاحكة والتكسر واستجلاب الزينة في الملبس والحركات والروائح، وهذا هو المشاهد الحاصل اليوم، نسأل الله العفو والعافية.

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) موضوعات سور القرآن- سورة النور (ص٥٤).

ومن تأمل الواقع عرف مدىٰ ما تدل عليه آيات الله من الحكمة وأنها أصلح للعباد والبلاد، وأن لا حكم أحسن من حكم الله: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [سورة المائدة ٥٠].

والاختلاط تتنوع صوره في هذا الوقت فمن هذه الصور علىٰ سبيل المثال:

- اتخاذ الخدم والسائقين الذين نراهم يخدمون ويروحون ويعيشون ويختلطون بأهل البيت كأنهم منهم، وما يحصل في هذا من الخلوة مع السائق أو الخادمة، والرسول ﷺ يقول: «**لا يخلو رجل بامرأة إلا كان الشيطان ثالثهما**»[(١)].
- الاختلاط في الأسواق والأماكن العامة مثل الحدائق والمنتزهات والحفلات العامة والعائلية والخاصة، وخلوة بعضهم بقصد وبلا قصد، وتكشف العورات والزينة من النساء للرجال بحجة الترفيه، أو عدم تقييد الحريات، ومشاركة الفرحة والمناسبة السعيدة،.. الخ، وهذا بلا شك ميدان يلعب فيه الشيطان وتكثر العجائب والتأويلات.

نعم، نحن بحاجة إلىٰ الأسواق والحدائق ولكن بلا اختلاط بين الرجال والنساء، وبلا تداخل في الكلام والمناقشات دون حاجة، وبلا مزاحمة أو خلوة، وربنا يقول: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ۚ﴾ هذا في حق أمهات المؤمنين فما بالكم بمن هنَّ دونهن!.

نعم، ونحن نحب المشاركة في الفرحة والمناسبات السعيدة، ونرغب في إدخال السرور علىٰ المسلم والمسلمة، ولكن بحدود يرضاها الله عَزَّ وَجَلَّ، ولا تتعدىٰ حدوده،

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (١/ ١٨) (١٤٤)، وإسناده صحيح ورجاله رجال الشيخين. الموسوعة الحديثية (١/ ٢٦٩). والترمذي كتاب الفتن باب لزوم الجماعة (٢١٦٥)، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (١٧٥٨).

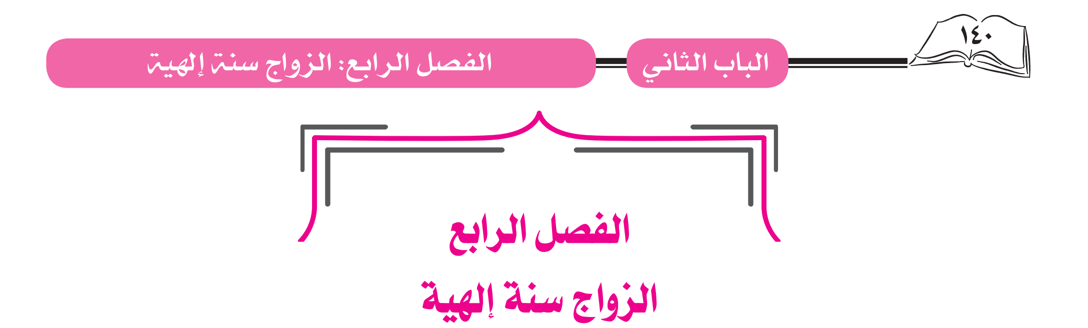
وبدون انتهاك حرمات المسلمين والمسلمات، فيسعنا ما وسع النبي ﷺ وصحبه الكرام البررة في ذلك.

- الاختلاط القائم بين أفراد العائلة فمثلا يدخل الرجل علىٰ ابنة عمه أو ابنة خاله، أو يدخل الرجل علىٰ زوجة أخيه، أو يدخل الزوج علىٰ أخت زوجته وغيرها.
- الاختلاط في العمل والمكاتب والمستشفيات، وهذا قد عمت به البلوىٰ بصورة غير مستنكرة، فتجد الطبيب يخلوا بالممرضة- إلا من رحم الله، وتجد المدير يخلوا بمنسقة أعماله - السكرتيرة - إلا من رحم الله، وتجد الغرفة الواحدة في المكاتب يوجد بها عدد من الموظفين والموظفات...
- الاختلاط في المصالح العامة والخاصة، ومزاحمة الرجال للنساء ولو في المساجد ونحوها وقد بيَّن النبي الكريم ذلك فقال: «**خير صفوف الرجال أولها وشرها آخرها وخير صفوف النساء آخرها وشرها أولها**»[(١)].

إلىٰ غير ذلك من مظاهر وصور الاختلاط. والله المستعان وهو حسبنا ونعم الوكيل.



(١) أخرجه مسلم كتاب الصلاة باب تسوية الصفوف.. (٤٤٠).



الفصل الرابع
الزواج سنة إلهية

قال تعالىٰ: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾ وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ۚ وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾﴾.

بعد أن ذكر الله تعالىٰ بعض الحلول الوقائية لعدم الوقوع في جريمة الزنا وضع حلا عمليا آخر تضبط فيه الشهوة وتصرف في مكانها الصحيح وهو الزواج.

إنَّ الزواج هو الطريق الطبيعي لمواجهة الميول الجنسية الفطرية، وهو الغاية النظيفة لهذه الميول العميقة، فيجب أن تزول العقبات من طريق الزواج، لتجري الحياة علىٰ طبيعتها وبساطتها، والعقبة المالية هي العقبة الأولىٰ في طريق بناء البيوت، وتحصين النفوس.

والإسلام نظام متكامل؛ فهو لا يفرض العفة إلا وقد هيَّأ لها أسبابها، وجعلها ميسرة للأفراد الأسوياء، فلا يلجأ إلىٰ الفاحشة إذا إلا الذي يعدل عن الطريق النظيف الميسور عامدًا غير مضطر.

ويتبين معنىٰ الآيات الكريمة من خلال النظر في المسائل التالية: **حكم الزواج، والحكمة منه، وبدائله والمعينات عليه**، وإليك بيان ذلك من خلال المباحث التالية:

المبحث الأول

الأمر بالزواج والحث عليه

قال تعالىٰ: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾﴾، وقال تعالىٰ في سورة النساء: ﴿فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ [سورة النساء ٣]

هذه الآيات فيها الأمر بالزواج، و«أمر بالتزويج، وقد ذهب طائفة من العلماء إلىٰ وجوبه علىٰ كل قادر عليه»(١)، والخطاب هنا للأولياء أن يزوجوا الحرائر والأحرار(٢).

والأيامىٰ: جمع أَيِّمٍ، والأيم كل من لا زوج له من الرجال والنساء سواء كان بكرًا أم ثيِّبًا(٣).

أما قوله: ﴿وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ﴾ «أي: زوجوا أيضا الصالحين من عبادكم وإمائكم، فالزواج حق الإنسان سواء كان حرا أو عبدا، ذكرا أو أنثىٰ»(٤).

وقد ورد في الحث علىٰ الزواج أحاديث كثيرة ومنها: حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء**»(٥).

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٦/ ٥١).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (١٢/ ٢٣٩-٢٤٠) بتصرف.

(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٦/ ٥١).

(٤) موضوعات القرآن - سورة النور (٥٦).

(٥) أخرجه البخاري كتاب الصيام باب الصوم لمن خاف علىٰ نفسه العزوبة (١٩٠٥). ومسلم كتاب=

والله تعالىٰ رتب الأجر والثواب علىٰ الزواج كما ثبت من حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وفيه قول النبي ﷺ: «**وفي بضع أحدكم صدقة**»، قالوا يا رسول الله: أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «**أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه وزر؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر**»(١). وقال النبي ﷺ: «**أما إني والله لأخشاكم لله واتقاكم له لكني أصوم وأفطر، أصلي وأرقد وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني**»(٢)، ونهىٰ ﷺ عن التبتل فعن سعد بن أبي وقاص قال «**رد رسول الله ﷺ علىٰ عثمان بن مظعون التبتل ولو أذن له لاختصينا**»(٣).

ومن الحث علىٰ الزواج قوله تعالىٰ: ﴿إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾﴾. أي: أنه لا ينبغي أن يكون فقر الذي يريد الزواج، أو التي تريد الزواج، هو المانع من الزواج، فإن فضل الله تعالىٰ واسع، وهذا وعدٌ منه بتوسيع الرزق علىٰ من يريد الزواج، وكان كثيرٌ من السلف يرون أن الزواج سببٌ في توسيع الرزق. فعن عبدالله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال «التمسوا الغنىٰ في النكاح»(٤). وهذا هو مقتضىٰ الآية وحديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**ثلاثة حق علىٰ الله عونهم: المجاهد في سبيل الله، والمكاتب الذي يريد الأداء، والناكح الذي يريد العفاف**»(٥).

= النكاح باب استحباب النكاح (١٤٠٠).

(١) أخرجه مسلم كتاب الزكاة باب اسم الصدقة يقع علىٰ كل نوع من المعروف (١٠٠٦).

(٢) أخرجه البخاري كتاب النكاح باب الترغيب في النكاح (٥٠٦٣).

(٣) أخرجه البخاري كتاب النكاح باب ما يكره من التبتل والخصاء (٤٧٨٦) ومسلم كتاب النكاح باب استحباب النكاح لمن تاقت إليه نفسه (١٤٠٢). التبتل: الانقطاع عن النساء وترك الأزواج. لاختصينا: من الخصاء. وهو قطع الخصيتين اللتين بهما قوام النسل، أو تعطيلهما عن عملهما.

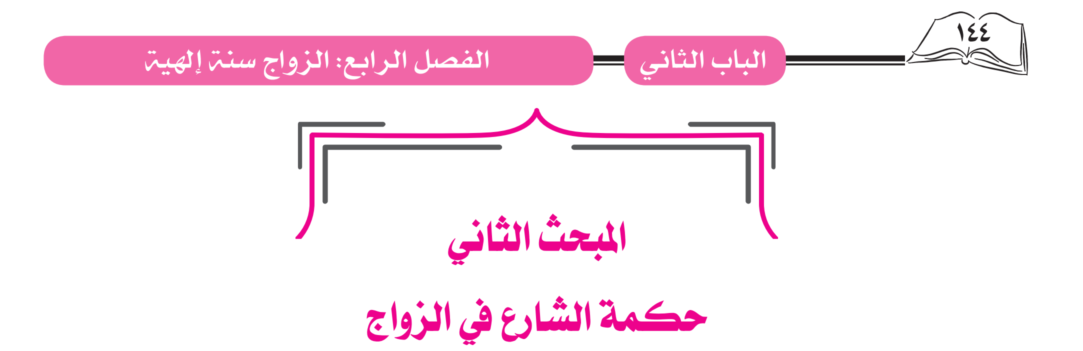
(٤) أخرجه ابن جرير الطبري (١٧/ ٢٧٥)، والسيوطي في الدر المنثور (١١/ ٤٢).

(٥) أخرجه الترمذي كتاب فضائل الجهاد باب ما جاء في المجاهد والمكاتب والناكح (١٦٥٥)، والنسائي =

﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ۝٣٢﴾ أي: أن الله تعالىٰ فضله واسع، وهو أعلم بأحوالكم وما يصلح حالكم وما تحتاجون إليه.



= في السنن الكبرىٰ باب المكاتب (٤٩٩٥)، وابن ماجه كتاب العتق باب المكاتب (٢٥١٨). أحمد في المسند (٢/ ٢٥١) (٧٤١٠، ٩٦٢٦)، حسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي (١٣٥٢). وصحيح سنن ابن ماجه (٢٥١٨)، والأرنؤوط في تعليق المسند.



المبحث الثاني

حكمة الشارع في الزواج

شرع الله سبحانه الزواج لأسبابٍ وحكمٍ كثيرةٍ جدًا منها ما علمناها ومنها ما لم نعلمها، وقد اجتهد العلماء في استنباط حكم الزواج من القرآن والسنة والواقع الذي نعيشه، ويمكن أن نجمل هذه الحِكَم في النقاط التالية:

١- المحافظة على النوع الإنساني:

فمن البديهيات التي لا تقبل الجدل أن الزواج أفضل طريق إلى تكاثر النسل الإنساني، وعامل أساسي في استمراره وبقائه إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، ولقد نوه القرآن الكريم عن هذه الحكمة الاجتماعية البالغة حين قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗ﴾ [سورة النساء ١]، وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةٗ﴾ [سورة النحل٧٢]. ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَجَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا لِيَسۡكُنَ إِلَيۡهَاۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتۡ حَمۡلًا خَفِيفٗا فَمَرَّتۡ بِهِۦۖ فَلَمَّآ أَثۡقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنۡ ءَاتَيۡتَنَا صَٰلِحٗا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ١٨٩﴾ [سورة الاعراف١٨٩].

وفي كثرة النسل من المصالح العمة والمنافع الخاصة مما جعل النبي ﷺ يقول: «**تزوجوا الودود الولود فإني مكاثر بكم الأمم يوم القيامة**»[1].

(١) أخرجه أبو داود كتاب النكاح باب من تزوج الودود (٢٠٥٠)، والنسائي في الكبرى (٥٣٢٣)، وابن حبان في صحيحه (٤٠٦٥) و(٤٠٥٧)، وأحمد في المسند (٣/ ١٥٨) (١٢٦٣٤)، وحسّنه الهيثمي في المجمع (٤/ ٢٥٨). وعلق الأرنؤوط: صحيح لغيره وهذا إسناد قوي، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (١٨٠٥).

٢- إشباع الغريزة الجنسية:

«الغريزة الجنسية من أقوىٰ الغرائز وأعنفها، وهي تلح علىٰ صاحبها دائمًا في إيجاد مجال لها: فما لم يكن ثَمَّة ما يشبعها انتاب الانسان الكثير من القلق والاضطراب ونزعت به إلىٰ شر كبير، والزواج هو أحسن وضع طبيعي، وانسب مجال حيوي لإرواء الغريزة وإشباعها»[1]، قال تعالىٰ: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ۖ فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [سورة البقرة ١٨٧]. ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَـٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾﴾ [سورة الأعراف ١٨٩].

٣- السكن الروحي والنفسي:

فإذا حصل إشباع الغريزة الجنسية هدأ البدن من الاضطراب، وسكنت النفس عن الصراع، وكفَّ النظر عن التطلع إلىٰ الحرام، واطمأنت العاطفة إلىٰ ما أحل الله، وهذا الذي أشار إليه قوله تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [سورة الأعراف ١٨٩]. وقوله: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [سورة الروم ٢١].

٤- المحافظة علىٰ الأنساب:

وبالزواج يفتخر الأبناء بانتسابهم إلىٰ آبائهم لأن في هذا النسب اعتبارهم الذاتي وكرامتهم الإنسانية وسعادتهم النفسية.

قال الله تعالىٰ ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّـٰٓـِٔى تُظَـٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَـٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى

(١) فقه السنة (٢/ ١٣٩).

ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾ ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ هُوَ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِۚ فَإِن لَّمۡ تَعۡلَمُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمۡۚ﴾. [سورة الأحزاب ٤-٥].

٥- سلامة المجتمع من الإمراض الخبيثة المترتبة على الانحلال الخلقي:

قال رسول الله ﷺ: «**يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء**»(١)، وجعل العفاف غايةً محمودة عند الله والناس عندما يُسعى لها «**ثلاث حق على الله عونهم.. الناكح يريد العفاف..**» الحديث(٢).

وحذّر رسول الله ﷺ من ذلك: «**لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا**»(٣).

وقال تعالى في قصة نبيه لوط عليه السلام: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ فِي ضَيۡفِيٓۖ أَلَيۡسَ مِنكُمۡ رَجُلٞ رَّشِيدٞ ﴿٧٨﴾﴾ [سورة هود ٧٨].

٦- تنمية عاطفة الأمومة والأبوة:

إن غريزة الأبوة والأمومة تنمو وتتكامل في ظلال الطفولة، وتنمو مشاعر العطف والود والحنان، وهي فضائل لا تكمل إنسانية إنسان بدونها، قال الله تعالى ﴿وَأَصۡبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًاۖ إِن كَادَتۡ لَتُبۡدِي بِهِۦ لَوۡلَآ أَن رَّبَطۡنَا عَلَىٰ قَلۡبِهَا﴾ [سورة القصص ١٠].

وقال عن نبيه عيسى عليه السلام: ﴿وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمۡ يَجۡعَلۡنِي جَبَّارٗا شَقِيّٗا ﴿٣٢﴾﴾ [سورة مريم ٣٢]، وقال سبحانه: ﴿ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ هُوَ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ [سورة الأحزاب-٥].

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) أخرجه ابن ماجه كتاب الفتن باب العقوبات (٤٠١٩). وحسنه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (١٠٦).

٧- تقوية ملكات الفرد ومواهبه فيما ينفع أمته ومجتمعه:

فإن الشعور بتبعة الزواج، ورعاية الأولاد يبعث علىٰ النشاط وبذل الوسع في تقوية ملكات الفرد ومواهبه، فينطلق إلىٰ العمل من أجل النهوض بأعبائه، والقيام بواجبه.

فيكثر الاستغلال وأسباب الاستثمار مما يزيد في تنمية الثروة وكثرة الإنتاج، ويدفع إلىٰ استخراج خيرات الله من الكون وما أودع فيه من أشياء ومنافع للناس.

قال الله تعالىٰ عن دعاء نبيه زكريا عليه السلام: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۝٢ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ۝٣ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۝٤ وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۝٦ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ۝٧﴾ [سورة مريم ٢-٧].

٨- تنظيم مسؤوليات الرجل والمرأة بتكوين الأسرة وتربية الأولاد:

وذلك توزيع الأعمال توزيعًا ينتظم به شأن البيت من جهة، كما ينتظم به العمل خارجه من جهة أخرىٰ، مع تحديد مسؤولية كل من الرجل والمرأة فيما يناط به من أعمال.

فالمرأة تقوم علىٰ رعاية البيت وتدبير المنزل، وتربية الأولاد، وتهيئة الجو الصالح للرجل ليستريح فيه ويجد ما يذهب بعنائه، ويجدد نشاطه، بينما يسعىٰ الرجل وينهض بالكسب، وما يحتاج إليه البيت من مال ونفقات، وبهذا التوزيع العادل يؤدي كل منهما وظائفه الطبيعية علىٰ الوجه الذي يرضاه الله ويحمده الناس، ويثمر الثمار المباركة.

قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُواْ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ وَسْـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ۝٣٢﴾ [سورة النساء ٣٢].

٩- ترابط المجتمع المبني علىٰ ترابط الأسرة:

علىٰ أن ما يثمره الزواج من ترابط الأسر، وتقوية أواصر المحبة بين العائلات، وتوكيد الصلات الاجتماعية مما يباركه الإسلام ويعضده ويسانده، فإن المجتمع المترابط المتحاب هو المجتمع القوي السعيد[١].



(١) وللاستزادة أنظر: فقه السنة (٢/ ١٣٩-١٤١)، وعقبات الزواج وطرق معالجتها علىٰ ضوء الإسلام (ص١١-١٧).



المبحث الثالث

من لم يستطيع الزواج

قال تعالىٰ ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾.

«هذا حكم العاجز عن الزواج أمره الله تعالىٰ أن يستعف أي: يكف عن المحرم، ويفعل الأسباب التي تكفه عنه، ووعد الله المستعفف أن يغنيه من فضله وييسر له أمره»[١].

ولكن ما هي الأمور العملية التي يجب علىٰ كل من لا يستطيع الزواج أن يفعلها ليعف نفسه؟

يمكن أن نجمل ذلك في الأمور التالية:

١- الصبر:

وهذه وصية ربنا سبحانه، قال تعالىٰ: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا﴾ فالله تعالىٰ أمر بالعفاف والصبر علىٰ الشهوة ودواعيها، وحث علىٰ الصبر وحفظ الفروج، قال تعالىٰ: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٣١﴾﴾ [سورة المعارج٢٩-٣١]. والله تعالىٰ وعد الصابرين بالأجر العظيم فقال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾ [سورة الزمر ١٠].

٢- الصيام:

وهو وصية الرسول ﷺ للشباب الأعزب خاصة، ومن يريد الزواج ولا يستطيعه عامة، وذلك كما قال رسول الله ﷺ: «**يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج**

---

(١) تيسير الكريم الرحمن للسعدي (٥١٦).

فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء»[(١)]، فالصوم يقلل من سعار الشهوة ويحفظ جوارح الإنسان عن دواعيها، ويضيق مجرىٰ الشيطان ويدفع وسوسته.

٣- الابتعاد عن مثيرات الشهوة:

وجماعها في غض البصر لأن إطلاق البصر هو أول خطوة من خطوات الشيطان في إثارة الشهوة، وغض البصر أطهر وأزكىٰ لقلب المؤمن قال تعالىٰ: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ....﴾، وكذلك ترك التخيلات وقطع أسبابها من مسرحيات أو حكايات من لا يتأدبون بآداب الشارع في هذا الباب فيصفون النساء أو ما يحصل بين المرأة وزوجها ونحو ذلك مما يزيد الخيالات والصور الشيطانية التي يشغل بها ويفتن من خلالها عباد الله الغافلين.

٤- الاستعانة بالله وكثرة الدعاء والعبادة:

فالدعاء هو سلاح المؤمن، والله تعالىٰ يستجيب دعوة المضطر إذا دعاه قال تعالىٰ: ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ [سورة النمل ٦٢] وقال ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [سورة غافر ٦٠]. ومن استعان بالله كفاه، وأعانه علىٰ كبح جمح شهوته، ورزقه الغنىٰ في قلبه بذكر الله وشكره وعبادته، وانشغل عن ما هو مهيج لتلك الغريزة، وحرك دواعي الخوف من الله في قلبه، فلا يشغله تزيين الشيطان للنساء ولا لسماع الغناء وغيره مما يثير الشهوة. وقد كان من دعاء النبي ﷺ: **«اللهم إني أسالك الهدىٰ والتقىٰ والعفاف والغنىٰ»**[(٢)].

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه مسلم باب التعوذ من شر ما علم ومن شار ما لم يعلم (٢٧٢١).

٥- الاشتغال في البحث عن العمل وعدم الاتكال:

فعلىٰ الشاب أن يأخذ بالأسباب المادية أيضا مع توكله علىٰ الله والإيمان بوعد الله، ولا ينتظر أن تأتي له الأموال إلىٰ مكانه، ولا يترفع عن أي عمل كان بحجة أنه لا يناسب وضعه العلمي والاجتماعي، فالعبد مأمور بالعمل طالما هذا العمل مباح ليعف نفسه عن أكل الحرام وارتكاب الحرام.

والتواكل هذا من أهم الأسباب في تأخر كثير من الشباب عن الزواج فهو ينتظر أن يزوجه أبوه أو يساعده المجتمع أو أن يتزوج من غير أعباء مادية، وكل هذا صعب جدا خصوصا في هذا الوقت الذي قلّ فيه المحسنون الذين يسعون في حاجة الناس، وقلّ فيه من يلتزم بهدي النبي في الزواج والتيسير فيه، وكثرت فيه البطالة وغيرها من مشكلات المجتمع.

فعلىٰ الشاب أن يستعين بالله ويبحث عن عمل ويعمل، ويسأل الله العون والتيسير والتوفيق.

٦- عدم التطلع إلىٰ الدنيا والمستوىٰ الراقي في الحياة:

وعلىٰ من يريد الزواج أن يعرف مستواه المادي وموقعه الاجتماعي الذي قدره الله له في هذه الدنيا، فلا يتطلع إلىٰ حياةٍ أكبر من حجمه، يتطلع أن يتزوج أجمل النساء، ويسكن في أفخم البيوت، ويفعل حفل زواج من أكبر وأفضل الحفلات، ولكن عليه أن يتوسط في كل شيء وأن يطلب الوسطية في كل شيء حسب مستواه ويحيا في حياته الدنيا ببساطة إلىٰ أن يلقىٰ الله تعالىٰ صابرًا شاكرًا عفيفًا مُتقيًا، ويجد عنده كل ما حُرِمَ منه في الدنيا ممّا تشتهيه نفسه، وتلذ به عينه، ممَّا لا عينٌ رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر علىٰ قلب بشرٍ.

وأن يختار زوجةً تناسب مستواه المادي والاجتماعي، فلا يتطلع الشاب إلىٰ الزواج من بنات أصحاب الأموال أو الجاه، وهو فقير، لأن هذا عادة يعطله عن الزواج إلىٰ أن يصل إلىٰ هذا المستوىٰ - ما لم يكونوا أهل فقه في دين الله، والخير له أن يتزوج من بنات واقعه الصالحات حتىٰ ولو كن فقيرات أو لسن علىٰ قدر كبير من الجمال، فإن الله يبارك فيهن أكثر من غيرهن.

وقد أرشد إلىٰ هذا الرحيم بأمته فقال ﷺ: «**المتشبع بما لم يعطي كلابس ثوبي زور**»[١].

٧- ممارسة الرياضة والاشتغال بما يحب الشاب من هوايات:

وهذه من الأمور التي تساعد الشاب في عدم التفكير في الشهوة لأنه يصرف طاقة الشباب فيما ينفعه، لأن الشباب قوة تحتاج إلىٰ استغلال فإذا صرفت هذه القوة فيما ينفع انصرفت عن ما لا ينفع من الفواحش والملهيات، والشباب أيضا فترة بناء وإعداد فيجب علىٰ الشاب أن يصرف كل جهده في بناء نفسه سواء جسميًا أو علميًا أو غيرها من الأمور التي تحتاجها الأمة، فعن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «**المؤمن القوي خير وأحب إلىٰ الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير احرص علىٰ ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز**»[٢]. وعن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه قال: مر النبي ﷺ علىٰ نفر من أسلم ينتضلون فقال رسول الله ﷺ: «**ارموا بني إسماعيل فإن أباكم كان راميا**»[٣].

٨- مجالسة الصالحين:

فالصالحين هم صمام الأمان لهذه الأمة، حولهم يجتمع الناس يذكرونهم بالله،

---

(١) أخرجه البخاري كتاب باب المتشبع (٤٩٢١)، ومسلم في اللباس والزينة باب النهي عن التزوير في اللباس وغيره.. (٢١٣٠).

(٢) أخرجه مسلم كتاب القدر والزينة باب في الأمر بالقوة وترك العجز.. (٢٦٦٤).

(٣) أخرجه البخاري كتاب الجهاد والسير باب التحريض علىٰ الرمي (٢٧٤٣ و٣٣١٦ و٣١٩٣).

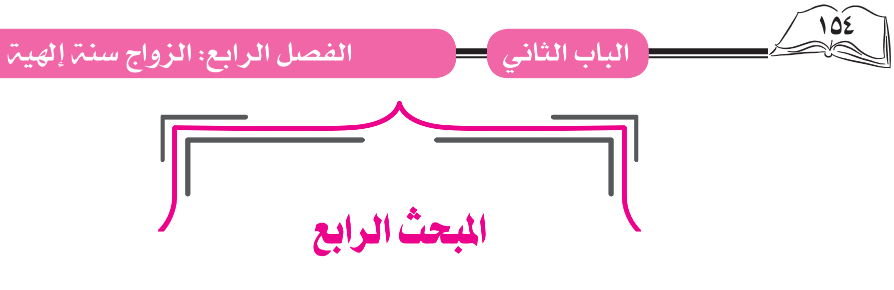
ويبعدونهم على وساوس الشيطان، ويعينونهم على الصبر على مشاق وصعوبات هذه الدنيا الفانية فالإنسان ضعيف بنفسه قوي بإخوانه الصالحين.

وبهذا وصى الحبيب المصطفى فعن أبي سعيد أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**لا تصاحب إلا مؤمنًا ولا يأكل طعامك إلا تقي**»[(١)].

والله أعلم.



(١) أخرجه أبوداود كتاب الأدب باب من يؤمر أن يجالس (٤٨٣٢)، والترمذي كتاب الزهد باب ما جاء في صحبة المؤمن (٢٣٩٥)، وابن حبان (٢/ ٣١٤) (٥٥٤)، وغيرهم، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٧٣٤١)، والأرنؤوط في تعليقه على ابن حبان.



المبحث الرابع

تيسير الحياة السعيدة لفئات المجتمع

«كما شجعت الآيات علىٰ تيسير سبل الزواج لمريده؛ شجعت أيضا علىٰ تيسير سبل الحياة الكريمة الحرة للأرقاء الذين يتطلعون إلىٰ الحرية، فشرعت عقد المكاتبة بين العبد وسيده، يسمح فيه للعبد بالاكتساب، حتىٰ يؤدي مبلغا معينا لسيده فيصبح حرًا»[1].

وهذه الحرية تساعده علىٰ ممارسة الحياة الطبيعية بشكلها الذي أراده الله تعالىٰ، فلا يحرم أي إنسان من الحياة الطيبة المستقرة في ظلال أسرة هو سيدها ولا يوجد سلطان عليه من الخارج يتحكم فيه وفي ذريته، أو يمنعه من مارست حقه الإنساني والشرعي، فالزاوج ليس مقصورًا علىٰ الأحرار فقط، ولكنه للأحرار والعبيد، ولكن العبودية تمنع من ذلك الزواج بأحكامه وغايته إذًا لا بد من حل لهذه المشكلة، فيأتي الإسلام ممثلًا في منهجه القرآني يعطينا المرجعية والحل في مثل تلك المشكلات.

قال تعالىٰ ﴿وَٱلَّذِينَ يَبۡتَغُونَ ٱلۡكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ فَكَاتِبُوهُمۡ إِنۡ عَلِمۡتُمۡ فِيهِمۡ خَيۡرٗاۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ ءَاتَىٰكُمۡۚ﴾ أي: «من ابتغىٰ وطلب منكم الكتابة وأن يشتري نفسه من عبيد وإماء فأجيبوا إلىٰ طلبه إذا علمتم منه قدرة علىٰ التكسب وصلاحًا»[2].

﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ ءَاتَىٰكُمۡۚ﴾: هذه وصية من الله للأسياد ولكل من عنده مال أن يعينوا عبيدهم علىٰ الحرية وذلك بإعطائهم من مال الزكاة، فقد شرع الله تعالىٰ

(١) موضوعات القرآن –سورة النور (٥٧).

(٢) تيسير الكريم الرحمن للسعدي (٥١٦).

من مصارف الزكاة فك الرقاب قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٦٠﴾ [سورة التوبة ٦٠]

ومن باب توفير الحياة السعيدة لفئات المجتمع والحفاظ علىٰ المجتمع من الضياع، فقد كانت آية المكاتبة تمهيد للحديث علىٰ عدم إكراه الإماء والعبيد علىٰ الزنا ونشره في المجتمع للكسب من ذلك العمل المشين فقال تعالىٰ: ﴿وَلَا تُكۡرِهُواْ فَتَيَٰتِكُمۡ عَلَى ٱلۡبِغَآءِ إِنۡ أَرَدۡنَ تَحَصُّنٗا لِّتَبۡتَغُواْ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَمَن يُكۡرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعۡدِ إِكۡرَٰهِهِنَّ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣٣﴾.

«فقد كان أهل الجاهلية إذا كان لأحدهم أمة، أرسلها تزني، وجعل عليها ضريبة يأخذها منها كل وقت، فلما جاء الإسلام نهي الله المسلمين عن ذلك»[(١)].

﴿وَمَن يُكۡرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعۡدِ إِكۡرَٰهِهِنَّ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣٣﴾: قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «فإن فعلتم ذلك، فإن الله غفور رحيم لهن، وإثمهن علىٰ من أكرههن»[(٢)]. وفي الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «**إن الله تجاوز عن أمتي الخطأ والنسيان، وما استكرهوا عليه**»[(٣)].

وفي التعقب بهذه الآية بعد ذكر النكاح فيه دلالة شرعية وفقهية وتربوية حيث أن «النهي عن إكراه الفتيات علىٰ البغاء وهن يردن العفة ابتغاء المال الرخيص كان جزءًا من تطهير البيئة الإسلامية، وإغلاق السبل القذرة للتصرف الجنسي، وذلك أن

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٦/ ٥٤).
(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٦/ ٥٦).
(٣) أخرجه ابن ماجه كتاب الطلاق باب طلاق المكره والناسي (٢٠٤٣)، والطحاوي في شرح معاني الآثار (٣/ ٩٥)، وابن حبان (٧٢١٩)، والطبراني في الصغير (٧٦٥)، والدارقطني في السنن (٤٣٥١)، والحاكم (٢/ ١٩٨)، والبيهقي (٧/ ٣٥٦). وسكت عنه ابن حجر في الفتح (٩/ ٣٩٠)، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه والمشكاة (٦٢٨٤)، الإرواء (٨٢)، والأرنؤوط في تعليقه علىٰ ابن ماجه وابن حبان.

وجود البغاء يُغري الكثيرين لسهولته، ولو لم يجدوه لانصرفوا إلىٰ طلب هذه المتعة في محلها الكريم النظيف.

وذكر الإكراه للإماء لا يعني إباحته، فذلك قلبٌ للأسباب والنتائج، **فالميل الجنسي يجب أن يظل نظيفًا** موجهًا إلىٰ امتداد الحياة بالأجيال الجديدة، وعلىٰ المجتمع المسلم أن يصلح نظمه الاقتصادية، وأن يتعاون المجتمع مع بعضه ليكون كل فرد في ذلك المجتمع في مستوىٰ يُعينه علىٰ الزواج، فإن وجدت بعد ذلك حالات شاذة عولجت تلك الحالات علاجًا خاصًا، وبذلك ينقطع البغاء والفاحشة، بإذن الله.



الفصل الخامس

آداب داخل البيت المسلم

تمهيد:

قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُواْ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِۚ ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾ وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُواْ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾ وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍۖ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُواْ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُواْ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًاۚ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةًۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾﴾.

هذه الآيات تبين لنا شمولية الإسلام لكل أمور الحياة، فإن الله تعالىٰ وضع قواعد يجب علىٰ الناس أن يلتزموا بها مع بعضهم، حماية لهم من الوقوع في الرذائل والموبقات، فهذه الآيات من الله لينظم أحوال الناس داخل بيوتهم، والعلاقة التي يجب

أن يكونوا عليها مع بعضهم، حماية لهم من الوقوع في الحرج، ومن دخول الشيطان بينهم فتحصل بينهم أمور لا ينبغي أن تكون بين أهل البيت الواحد أو الأسرة الواحدة.

ومن هذه الأمور التي نبه الله عليها في هذه الآيات، عدة أمور خاصة من أحكام البيت المسلم التي يجب أن يتحلىٰ بها أصحاب ذلك البيت، وهي: **أحكام الاستئذان داخل البيت الواحد، وأحكام زينة القواعد من النساء، وأحكام الأقارب والأصدقاء وما لهم وما عليهم في البيت. وإليك بيانها:**



المبحث الأول
الاستئذان داخل البيت

قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُواْ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ۚ ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ ۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾﴾.

لقد سبق الحديث عن أحكام الاستئذان علىٰ البيوت، وفي هذه الآيات بيان أحكام الاستئذان **داخل البيت المسلم** وهي كما يلي:

أولا: يجب علىٰ الأطفال المميزين غير البالغين والخدم والعبيد: إذا كانوا في البيت أن يستأذنوا في ثلاث أوقات تكشف فيها العورات وهي:

١- قبل صلاة الفجر.

٢- ووقت الظهيرة عند القيلولة.

٣- ومن بعد صلاة العشاء.

ومعنىٰ وضع الثياب هنا: عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «إذا خلا الرجل بأهله بعد صلاة العشاء فلا يدخل عليه خادم ولا صبي إلا بإذن، حتىٰ يصلىٰ الغداة، فإذا خلا بأهله عند صلاة الظهر فمثل ذلك»[(١)].

ولو اعتاد الناس وضع الثياب في وقت غير هذه الأوقات المذكورة كنوم الضحىٰ، لمن عمله بالليل مثلًا، فهذا حكه حكم الأوقات المذكورة في الآية، لأن العلة موجودة

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان (١٧/ ٣٥٣)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٨/ ٢٦٣٤، ٢٦٣٥).

وهي تكشف العورات في هذه الأوقات، ويؤخذ هذا من دلالة الآية، وقول ابن عباس المتقدم وفيه: «فإذا خلا بأهله عند صلاة الظهر فمثل ذلك»، فهذه الأوقات الثلاث تنكشف فيها العورات، فالنهي جاء لكي لا تقع أنظار هؤلاء علىٰ عورات أهليهم.

فهذه «الأوقات يتجرد فيها أهل البيت من ثيابهم فكان من القبيح أن يرىٰ مماليكهم وأطفالهم عوراتهم، لأن ذلك منظر يخجل منه المملوك، وينطبع في نفس الطفل لأنه لم يعتد رؤيته، ولأنه يجب أن ينشأ الأطفال علىٰ ستر العورة حتىٰ يكون كالسجية فيه إذا كبروا»[(١)].

وهو أدب يغفل عنه الكثير في الحياة المنزلية، مستهينين بآثاره النفسية والعصبية والخلقية، ظانين أن الخدم لا تمتد أعينهم إلىٰ عورات السادة، وأن الصغار قبل البلوغ لا ينتبهون لهذه المناظر، بينما يقرر النفسيون اليوم بعد تقدم العلوم النفسية أن بعض المشاهد التي تقع علىٰ أنظار الأطفال في صغرهم هي التي تؤثر في حياتهم كلها، وقد تصيبهم بأمراض نفسية وعصبية يصعب شفائهم منها. والعليم الخبير يؤدب المؤمنين بهذه الآداب، ويبني أمةً سليمة الأعصاب، سليمة الصدور، مهذبة المشاعر، طاهرة القلوب، نظيفة التصورات.

وهذا الاستئذان ليس في كل حين وكل وقت، وإنما هو خاص في الأوقات الثلاث المذكورة وما في حكمها فقط، وذلك منعا للحرج، لأن هؤلاء يكثر منهم الدخول علىٰ أهليهم لصغر سنهم، أو قيامهم بالخدمة ولذلك قال الله تعالىٰ: ﴿ثَلَٰثُ عَوۡرَٰتٖ لَّكُمۡۚ لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ وَلَا عَلَيۡهِمۡ جُنَاحُۢ بَعۡدَهُنَّۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيۡكُم بَعۡضُكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾ أي: «إذا دخلوا في حال غير هذه الأحوال فلا جناح عليكم في تمكينكم إياهم من ذلك، ولا عليهم إذا رأوا شيئا في غير تلك الأحوال لأنهم قد أذن لهم في الهجوم لأنهم طوافون عليكم في الخدمة

---

(١) التحرير والتنوير (١٨/ ٢٩٢).

وغير ذلك، ويغتفر في الطوافين ما لا يغتفر في غيرهم»[(١)]، وهي أوقات ليست مظنة العورة غالبًا، ويسهل علىٰ الأبوين أخذ الحيطة فيها بخلاف الأوقات الثلاث، والعلة في الإذن لهم حاجتكم وحاجتهم إلىٰ التطواف والخدمة وقضاء الحاجات فسبحان العليم الحكيم.

ثانيا: أما الذين بلغوا الحلم لهم حكم آخر وهو:

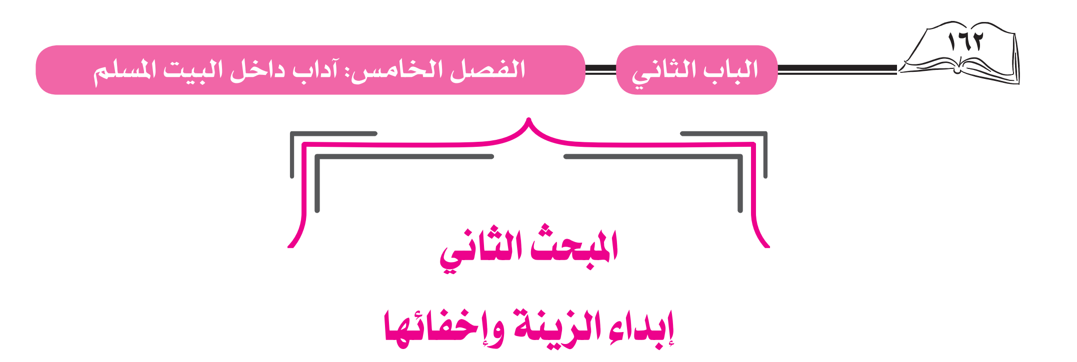
قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَـٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾﴾ أي: إن الأطفال إذا دخلوا في سن البلوغ عليهم أن يستأذنوا في كل وقت: ﴿كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: «كاستئذان الكبار من ولد الرجل وأقاربه»[(٢)]، وقد سبقت الإشارة إلىٰ أحكام استئذانهم في الفصل الأول من الباب الثاني: أدب الاستئذان.



---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٦/ ٨٢).

(٢) المصدر السابق.



المبحث الثاني

إبداء الزينة وإخفائها

قال تعالىٰ: ﴿وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ ۖ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾﴾

«**المرأة القاعدة:** هي التي انقطع عنها الحيض ويئست من الولد، ﴿لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا﴾ أي: لم يبق لهن تشوف إلىٰ التزويج»[١].

وضع الثياب هنا: هو وضع الرداء أو الجلباب في الدار والحجرة، من غير أن تظهر محاسنها[٢].

فهذه الآية خاصة بالنساء اللاتي كَبُرَ بهنَّ السن ولم يبقَ لهنَّ تطلع إلىٰ النكاح، يرفع الله تعالىٰ الحرج عليهنَّ بأنهنَّ ليس عليهنَّ من الحرج في التستر كما علىٰ غيرها من النساء، ولكن بشرط عدم التبرج، بأي نوع من أنواع التبرج كان سواء باللباس أو الكلام أو التعطر أو المشية والحلي، **والعفة خيرٌ لهنَّ** ولذا قال تعالىٰ: ﴿وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾﴾ أي: وترك وضعهن لثيابهنَّ وإن كان جائز لهنَّ خير وأفضل لهنَّ[٣].

والناظر إلىٰ الآية يرى أن النهي جاء للقاعدة بعدم إبداء الزينة والتبرج، فغيرها من الفتيات والنساء غير القاعدات من باب أولىٰ.

---

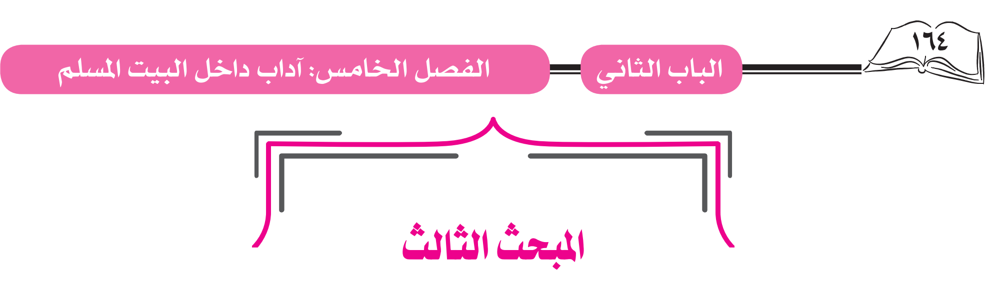
(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٦/ ٨٣).

(٢) جامع البيان- الطبري (١٧/ ٣٦٠-٣٦٤).

(٣) جامع البيان- الطبري (١٧/ ٣٦٤).

وهذه الآية تبين لنا رحمة الله برفع الحرج عند المشقة، فهذه المرأة الكبيرة في السن قد يصعب عليها المبالغة في الاحتشام كما هو مطلوب من الفتاة أو النساء اللاتي لم يصلن إلىٰ هذا السن الكبير، فلهذا يسر الله عليها ووسع عليها ولكن هي مطالبة بالاستعفاف والمحافظة علىٰ الحشمة قدر المستطاع. والله أعلم.





المبحث الثالث

العلاقة بين أهل البيت والأقارب والأصدقاء

قال تعالىٰ: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾﴾.

أول شيء جاء التنبيه عليه في الآية هو رفع الحرج عن الأعمىٰ والمريض والأعرج، قال مجاهد: «كان الرجل يذهب بالأعمىٰ أو الأعرج أو المريض إلىٰ بيت أبيه أو بيت أخيه أو بيت أخته.... فكان هؤلاء المرضىٰ يتحرجون من ذلك، ويقولون إنما يذهبون بنا إلىٰ بيوت غيرهم، فنزلت هذه الآية رخصة لهم أن يأكلوا في هذه البيوت»[١].

وفي الآية رفع الحرج عن القريب أن يأكل من بيت قريبه، وأن يصطحب معه مثل هؤلاء المحتاجين، إذا كان صاحب البيت لا يتضرر من هذا، والسبب في رفع ذلك الحرج: «أن هؤلاء أصحاب الأعذار لا يستطيعون التكسب، وكان التكسب زمانهم بعمل الأبدان، فرخِّصَ لهؤلاء أن يدخلوا بيوت المسلمين لشبع بطونهم»[٢].

ثم يأتي التنبيه علىٰ البيوت التي يجوز الأكل منها علىٰ الترتيب حسب الأولوية في

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٦/ ٨٥).
(٢) التحرير والتنوير (١٨/ ٣٠٠).

القرابة وهي: بيوتكم - أي بيت الزوج وبيوت الأبناء- لأن بيت الزوج بيت لزوجته وبيت الابن بيت لأبيه، ثم بيوت الآباء والأمهات، ثم بيت الإخوة، ثم الأخوات، ثم الأعمام، ثم العمات، ثم الأخوال، ثم الخالات.

ثم يذكر من في حكم الأقارب: ﴿أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾ أي: بيوت الذين تملكون مفاتح بيوتهم يجوز لكم أن تأكلوا من تلك البيوت، كالخدم ونحوهم الذين يملكون مفاتيح بيوت أسيادهم فيجوز لهم أن يأكلوا من بيوت من يملكون مفاتح بيته. وأيضا بيوت الأصحاب والأصدقاء لا حرج من الأكل فيها إذا علم أن ذلك لا يشق علىٰ أهل الدار وأنهم لا يكرهون ذلك[١].

ثم يبين الله تعالىٰ الحالة التي يجوز عليها الأكل وهي: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾: فعن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنه قال: «.. وكانوا أيضا - أي المسلمون - يأنفون ويتحرجون أن يأكل الرجل الطعام وحده حتىٰ يكون معه غيره، فرخص الله لهم في ذلك»[٢] أي: أن يأكلوا مجتمعين أو كل واحد وحده، ولكن الأفضل أن يأكلوا مجتمعين لما فيه من الأفضلية والبركة، فقد ورد أن رجلًا قال للنبي ﷺ: إنا نأكل ولا نشبع؟!! فقال رسول الله ﷺ: «**اجتمعوا علىٰ طعامكم، واذكروا اسم ربكم يبارك لكم فيه**»[٣].

ثم يبين الله تعالىٰ أدبًا من آداب دخول البيوت وهو: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً﴾ فهذه الآية تذكير بآداب الاستئذان، أولها وهو أدب السلام سواء علىٰ الأقارب أو غيرهم، لأنه قد يظن ظان أنه مع كثرة الدخول علىٰ الأقارب لا داعي للسلام، والسلام هذا يختص بالغريب الذي يأتي من الخارج أما

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٦/ ٨٦) بتصرف.
(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٦/ ٨٦).
(٣) أخرجه أبو داود كتاب الأطعمة باب الاجتماع علىٰ الطعام (٣٧٦٤)، وابن ماجه كتاب الأطعمة باب الاجتماع علىٰ الطعام (٣٢٨٦). وحسنه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (٣٢٨٦).

أهل الدار ومن في حكمهم فلا، فهذه الآية ترد علىٰ هذا الظن، فإن السلام بين الأقارب مأمور به، كما أن السلام من قبل غير الأقارب مأمور به، ولذا قال تعالىٰ: ﴿فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ وهو تعبير لطيف يدل عن قوة الرابطة بين المذكورين في الآية، فالذي يسلم منهم علىٰ قريبه أو صديقه يسلم علىٰ نفسه، والتحية التي يلقيها عليه، هي تحية من عند الله مباركة طيبة. ويدل التعبير علىٰ أن ارتباط السلام بالدخول حتىٰ لو ظن أنه لا أحد في الدار، فالسلام نسب إلىٰ النفس، وفي ذلك رفع حرج ومشقة المفاجئة حتىٰ علىٰ المأذون في الدخول عليهم بلا استئذان، وفيه تأكيد علىٰ التنبيه بالسلام والنحنحة وغيرهما مما يدل علىٰ دخوله في الأوقات المحددة، وغير المحددة.

ويختم الله تعالىٰ هذه الآداب وتلك الوصايا الجليلة بقوله تعالىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾﴾ أي: أن الله يبين لكم هذه الآيات المشتملة علىٰ تلك الأحكام والآداب العظيمة التي لا يمكن لبشر أن يأتي بها علىٰ هذا الوجه تكفل الحقوق لكل الناس، وتنظم أمور الناس بعضهم مع بعض من غير أن ينتقص من حق أحد، لعل الناس بعد معرفتهم بهذه الآداب والأحكام يعقلونها فيعملون بها ويطبقونها فيكون لهم الخير في الدنيا والآخرة لأن هذه الأحكام لم تنزل إلا من أجل صلاح حال البشرية في الدنيا الذي ينبني عليه صلاحهم في الآخرة.

ويدل هذا بمجمله علىٰ أن كمال العقل باتباع ما شرع الله عَزَّوَجَلَّ، وعلىٰ شدة تأثير الأمور الاجتماعية علىٰ نفسية الإنسان وعقله رشدا أو خلافه، وأن معظم مصائب المجتمعات النفسية والعقلية والعصبية بسبب عدم الالتزام بآداب الإسلام قال تعالىٰ: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾.

وبهذا نكون انهينا عرض الآداب الاجتماعية في السورة التي نسأل الله أن يلهمنا العمل بها لنفوز في الدارين.



الباب الثالث

تذكرة وذكرى لأولي الألباب

تضمن هذا الباب تذكير الله عَزَّوَجَلَّ لعباده الذين يعقلون أحكامه وينظرون معتبرين في آياته المتلوة والمشاهدة بعظمته، وعظمة خلقه، وعظمه وحيه وشرعه، فيعود ذلك عليهم بالترقي في درجات اليقين والقرب منه سبحانه.

ويشتمل هذا الباب علىٰ ثلاثة فصول، وكل فصلٍ له مباحثه:

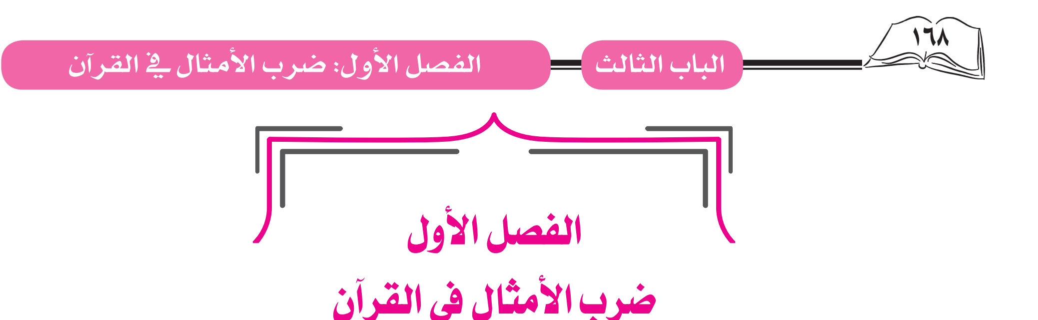
الفصل الأول: ضرب الأمثال في القرآن.

الفصل الثاني: بيوت الله.

الفصل الثالث: النظر في آيات الله.

وإليك بيانها:





الفصل الأول
ضرب الأمثال في القرآن

تمهيد:

قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾﴾.

«هذه الآيات الكريمات تحبها القلوب، وتطرب لها الأسماع، كيف لا وهي تضع المؤمن في هالة من نور الله، وتبشره أن إخلاصه العبادة لله وخلوص قلبه من الشرك والرياء وإيثاره طاعة الله علىٰ كل مصالح الدنيا، كل هذه قد جعلت لأعماله نورًا ينورها بالقبول والبركة وواسع المثوبة»[(١)].

ففي الآية الأولىٰ يمتن الله تعالىٰ علىٰ عباده بعد أن عرض عليهم تلك الأحكام والآداب بأنه سبحانه أنزل آياتٍ «واضحاتٍ الدلالة علىٰ كل أمر تحتاجون إليه من الأصول والفروع، بحيث لا يبقىٰ فيها إشكال ولا شبهة. وأنزل الله تعالىٰ أيضا مع هذه الأحكام والآداب مثلًا من أخبار الأولين الصالح منهم والطالح منهم، وَوَصْفِ أعمالهم، وما جري لهم، وجرىٰ عليهم، تجعلونه مثلًا ومعتبرًا، لمن فعل مثل أعمالهم أن يجازىٰ مثل ما جازوه. وأنزل الله تعالىٰ أيضًا في هذا الكتاب موعظةً للمتقين فيكفون عمَّا يكره الله إلىٰ ما يحبه الله»[(٢)].

(١) من لطائف التفسير (٤٢٩).
(٢) تيسير الكريم الرحمن-السعدي (٥١٧).

ولكن ونحن نقرأ هذه الآية يلفت انتباهنا كلمة: ﴿وَمَثَلًا﴾ حيث أن كتاب الله تعالىٰ كتاب بيان وهداية فهو يبين للناس الحق والباطل ويهديهم إلىٰ الحق عبر عدةِ وسائلَ لتقوم الحجة القولية والعقلية عليهم، ومن هذه الوسائل هي وسيلة (ضرب المثل).

نتناول ضرب الأمثال في القرآن من خلال هذه الآيات في الأمور التالية:

١- تعريف وبيان.

٢- مثل نور الإيمان.

٣- مثل ظلمات الكفر.

٤- فائدة ضرب الأمثال.





المبحث الأول
ضرب الأمثال في القرآن تعريف وبيان

أولًا: تعريف ضرب الأمثال:

- معنى المثل:

لغةً: المثل في الأصل هو الشبيه[١].

اصطلاحًا: لقد وردت للمثل معانٍ كثيرة ولكن من أوضحها: «عبارة عن قول في شيء يشبه قولًا في شيء آخر، بينهما مشابهة ليبين أحدهما الآخر ويصوره»[٢].

- أما ضرب المثل:

معنى الضرب هو: ضرب المثل للشيء تقديره له، كما أن القياس أصله تقدير الشيء بالشيء[٣].

أما ضرب المثل مُركبًا فمعناه: «جمعٌ بين علمين يُطلب منهما علمٌ ثالث»[٤].

ثانيًا: أنواع الأمثال في القرآن: نوعين:

١- **النوع الأول: ظاهرٌ مصرحٌ بالتشبيه فيه**، كقوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾﴾ [سورة البقرة ١٧].

٢- **النوع الثاني: كامنٌ لا ذكر للتشبيه فيه**، كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ

(١) انظر: اللسان (١١/ ٦١٠).
(٢) ضرب الأمثال في القرآن- عبدالمجيد البيانوني (١٥).
(٣) وانظر: القاموس المحيط (٧٣٣).
(٤) إعجاز القرآن عند شيخ الإسلام (٢٣٤).

فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ ﴿٧٣﴾ [سورة الحج ٧٣][(١)].

ثالثًا: مقاصد الأمثال القرآنية ومواطن العبرة فيها:

١- تقريب صورة الممثل له إلىٰ ذهن المخاطب.

٢- الإقناع بأمر من الأمور وقد يصل الإقناع إلىٰ حد إقامة الحجة.

٣- الترغيب والترهيب بذكر محاسن ما يرغب فيه ومساوئ ما ينفر منه.

٤- إثارة محور الطمع والرغبة أو محور الخوف والحذر لدىٰ المخاطب.

٥- مدح من يستحق المدح وذم من يستحق الذم بقصد التميز بين المصلح والمفسد.

٦- شحذ ذهن المخاطب، وتحريك طاقاته الفكرية، أو استحضار ذكائه لتوجيه عنايته حتىٰ يتأمل ويتفكر، ويصل إلىٰ إدراك المراد عن طريق التفكر[(٢)].

رابعًا: الفرق بين المثل القرآني والمثل العربي:

١) يستفاد من كليهما التعبير، واللغوي ليس دليلًا بخلاف القرآن فإن يفيد الحكم.

٢) المثل العربي يعبر به عن كل ما أشبه المعنىٰ الذي قيل فيه، وإن كان غير موضوع له، بخلاف القرآني، فإنه لا يقال إلا فيما وضع له.

٣) المتمثل بالمثل العربي هو مبين بعبارة دالة، سواء كانت حقًا أو باطلًا، أما المثل القرآني فلا بد من صحة المعنىٰ ودلالته علىٰ الحكم[(٣)].

والقرآن الكريم مليء بالآيات التي فيها الأمثال لكي تقرب المعنىٰ للناس وتقيم الحجة عليهم، وفي هذه السورة نموذج من نماذج ضرب الأمثال.

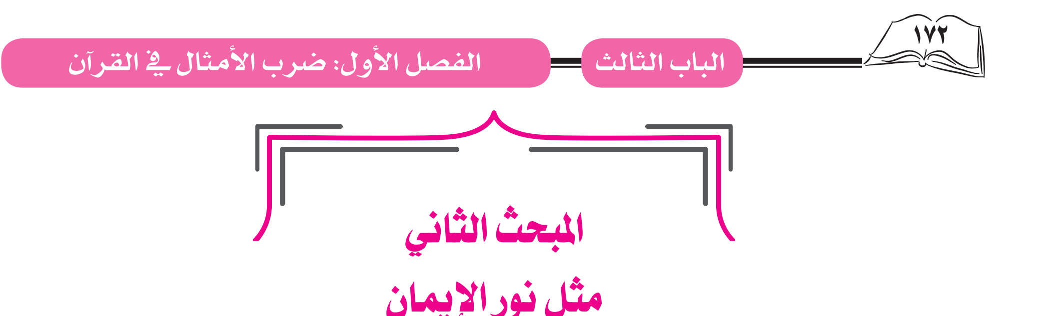


---

(١) انظر: إعجاز القرآن عند شيخ الإسلام (٢٣٥- ٢٣٧) باختصار.

(٢) دراسات في علوم القرآن (٣٥٤-٣٦١) مختصرًا.

(٣) انظر: إعجاز القرآن عند شيخ الإسلام (٢٤٠-٢٤٢).



المبحث الثاني
مثل نور الإيمان

قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾﴾.

قال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ: «نور السماوات والأرض الحسي والمعنوي: وذلك أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بذاته نور، وحجابه النور، لو كُشِف لأحرقت سبحات وجهه ما انتهىٰ إليه بصره من خلقه، وبه استنار العرش والكرسي، والشمس والقمر، وبه استنارت الجنة.

وكذلك المعنوي: فكتابه نور، وشرعه نور، والإيمان والمعرفة في قلوب رسله وعباده المؤمنين نور.

فلولا نوره لتراكمت الظلمات، ولهذا فكل محل يفقد نوره فثم الظلمة والحصر...»(١).

لقد أدرك الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عظم شأن نور الله تعالىٰ وذلك عند عودته من الطائف بعد أن حصلت له الأذية من أهل الطائف وهو يقول: «**أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة..**»(٢).

ولقد أدرك أيضًا عظم هذا النور في رحلة الإسراء والمعراج، حينما سألته عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: هل رأيت ربك؟ قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**نورٌ، أنىٰ أراه**»(٣).

(١) تيسير الكريم الرحمن-السعدي (٥١٧).
(٢) السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٤٢٠)، تفسير القرآن العظيم- ابن كثير (٦/ ٥٨)، مجمع الزوائد (٤/ ٣٩١)، كنز العمال (٢/ ١٧٥).
(٣) أخرجه مسلم كتاب الإيمان باب قول الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (نور أنىٰ أراه). (١٧٨).

وكان علىٰ معرفة بعظم ذلك النور وأثره دائمًا، فقد كان من دعاء النبي ﷺ وهو يتهجد من الليل: «.. **ولك الحمد أنت نور السماوات والأرض ومن فيهن...**»[(١)].

وكان ابن عباس يقول: «اللهم إني أسألك بنور وجهك الذي أشرقت له السماوات والأرض أن تجعلني في حرزك، وحفظك، وجوارك، وتحت كنفك»[(٢)].

والمثل المضروب هنا هو: «تشبيه نور الله الهادي إلىٰ الحق بنور المشكاة التي فيها مصباح قوي الإضاءة وسط مكان مظلم».

ومعنىٰ الآية: «﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ أي: مثل النور الذي يهدي إليه الله، وهو نور القرآن في قلوب المؤمنين، ﴿كَمِشْكَوٰةٍ﴾ أي: كوة، ﴿فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ لأن الكوة تجمع نور المصباح بحيث لا يتفرق. ﴿ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ﴾ وهذه الزجاجة من صفائها وبهائها: ﴿ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ﴾ أي: مضيء إضاءة الدُّر. وهذا المصباح الذي في تلك الزجاجة الدرية: ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ﴾ أي: يُوقد من زيت الزيتون، الذي ناره من أنور ما يكون. وصفة هذه الشجرة أنها: ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ وإذا انتفىٰ هذان الأمران، كانت تلك الشجرة متوسطة من الأرض، كزيتون الشام؛ تصيبه الشمس أول النهار وآخره، فيحسن ويطيب، ويكون أصفىٰ لزيتها، ولهذا قال: ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا﴾ من شدة صفائه، ﴿يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾، فإذا مسّته النار أضاء إضاءةً بليغة. ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ أي: نور النار ونور الزيت»[(٣)].

وجه المثل:

«ووجه هذا المثل، أن الله تعالىٰ يضرب المثل لحال المؤمن ونور الله في قلبه، بأن فطرته التي فطر عليها بمنزلة الزيت الصافي، ففطرته صافية، مستعدة للتعاليم الربانية،

(١) أخرجه البخاري كتاب التهجد باب التهجد بالليل (١١٢٠).
(٢) مصنف ابن أبي شيبة (٧/ ٨٧)، المعجم الكبير للطبراني (٩/ ٢٢) (١٠٤٥٣).
(٣) تيسير الكريم الرحمن-السعدي (٥٦٨-٥٦٩).

والعمل المشروع، فإذا وصل إليه العلم والإيمان اشتعل ذلك النور في قلبه، بمنزلة إشعال النار فتيلة ذلك المصباح، وهو صافي القلب من سوء القصد، وسوء الفهم عن الله. إذا وصل إليه الإيمان أضاء إضاءة عظيمة لصفائه من الكَدُرات- جمع كُدْرَة- وذلك بمنزلة صفاء الزجاجة الدرية، فيجتمع له، نور الفطرة ونور الإيمان، ونور العلم، وصفاء المعرفة، نورٌ علىٰ نورٍ.

ولما كان هذا النور من الله تعالىٰ؛ وليس كل أحد يصلح لذلك قال تعالىٰ: ﴿يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَ لِلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ٣٥﴾، ممن يعلم زكائه وطهارته، وأنه يزكىٰ معه وينمو»[١].



(١) تيسير الكريم الرحمن-السعدي (٥٦٩).

المبحث الثالث
مثل ظلمات الكفر

قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ٣٩ أَوۡ كَظُلُمَٰتٖ فِي بَحۡرٖ لُّجِّيّٖ يَغۡشَىٰهُ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ سَحَابٞۚ ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ٤٠﴾.

بعد أن ذكر الله في الآيات السابقة حال من حصلت له الهداية إلىٰ نوره الواضح الكبير ذكر في هاتين الآيتين مثالين لحال من لم يهتد إلىٰ ذلك النور، وهم الكفار الذين استمروا علىٰ الكفر.

فضرب الله لهم مثلين:

المطلب الأول
المثل الأول: أعمال الكفار لا قيمة لها يوم القيامة

قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ٣٩﴾.

أعمال الكفار المقصود بها هنا: «كل عملٍ يعملونه بقصد القربة إلىٰ الله مع ظنهم أنهم علىٰ شيء وأن عملهم مقبول عند الله ويرجون ثوابه، فيشمل هذا كل العبادات التي يتقربون بها إلىٰ الله؛ وهي خالية من التوحيد متلبسة بالشرك أو جارية علىٰ خلاف الشريعة»[١] وغيرها.

(١) الأمثال القرآنية (٢/ ٤٩١).

«**أما السراب:** فهو بخار رقيق يرتفع من قعور القيعان فإذا اتصل به ضوء الشمس أشبه من بعيد الماء الجاري. والقيعان: هي الأرض المنبسطة المستوية»[١].

والظمآن هو: العطشان[٢]، «وتخصيص الظمآن بأنه يظن السراب ماءً -مع أن الريان يتراءىٰ له السراب كأنه ماء- فيه إشارة إلىٰ أمرين:

الأمر الأول: أن الممثل به محتاج إلىٰ الماء حاجة شديدة لشدة عطشه، لدلالة لفظ صيغة المبالغة (ظمآن) علىٰ ذلك.

الأمر الثاني: وجود الدافع لطلب السراب عند الظمآن وهو الحاجة إلىٰ الماء»[٣].

قال ابن عباس: «هو مثل ضربه الله لرجل عطش فاشتد عطشه، فرأىٰ سرابا، فحسبه ماء فطلبه، فظن أنه قدر عليه حتىٰ أتاه، فلما أتاه لم يجده شيئا، وقبض عند ذلك. فعمل الكافر كذلك السراب يحسب أن عمله يغني عنه أو نافعة شيئا، ولا يكون علىٰ شيء حتىٰ يأتيه الموت، فأتاه الموت فلم يجد عمله أغنىٰ عنه من الله شيئا، ولم ينفعه إلا كما نفع العطشان المشتد إلىٰ السراب»[٤].

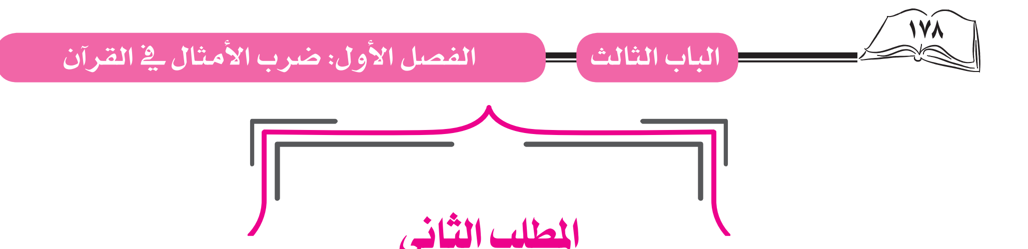
«فكذلك الكافر يحسب أنه قد عمل عملا، وأنه قد حَصَّلَ شيئًا، فإذا وافى الله يوم القيامة وحاسبه عليها، ونوقش علىٰ أفعاله، لم يجد له شيئا بالكلية قد قبل كما قال تعالىٰ: ﴿وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٖ فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءٗ مَّنثُورًا ٢٣﴾ [سورة الفرقان ٢٣]»[٥]، «وهذا يوم القيامة يحاسب الله العباد علىٰ ما عملوه من الخير والشر، فأخبر أنه لا يحصل لهؤلاء المشركين من الأعمال التي ظنوا أنها منجاة لهم شيء، وذلك لأنها

(١) روح المعاني (١٨/ ١٨٠).
(٢) جامع البيان- الطبري (٩/ ٣٣٣).
(٣) الأمثال القرآنية (٢/ ٤٨٣).
(٤) جامع البيان- الطبري (١٧/ ٣٢٨)، الدر المنثور (١١/ ٨٨).
(٥) تفسير القرآن العظيم- ابن كثير (٦/ ٧١).

فقدت الشرط الشرعي إما الإخلاص فيها، وإما المتابعة لشرع الله، فكل عمل لا يكون خالصًا، وعلىٰ الشريعة المرضية فهو باطل، فأعمال الكفار لا تخلوا من واحد من هذين، وقد تجمعهما معا فتكون أبعد من القبول حينئذ قال تعالىٰ: ﴿قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا ١٠٣ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا ١٠٤﴾ [سورة الكهف١٠٣-١٠٤]»[1].



(١) تفسير القرآن العظيم- ابن كثير (٦/ ١٠٣).



المطلب الثاني

المثل الثاني: شدة ظلمة الكفر

قال تعالىٰ: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾

في هذا المثل يبين الله ﷻ شدة الظلمة التي يقع فيها الكفار حين انحرفوا عن نور الله تعالىٰ، والوصف هنا وصف عظيم لشدة الظلمة فقد ذكر الله سبحانه أنها: ﴿ظُلُمَٰتٌ﴾ وأن هذه الظلمات ﴿فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ﴾ أي: في بحر عميق كثير الماء[1].

ثم هذا البحر العميق ليس ساكنا في هذه الظلمة ولكنه ﴿يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ﴾ أي: أن الموج مع كثرته وشدته كأنه فوق بعض من علوه، والأمواج إذا تراكمت اشتدت ظلمة البحر واسوداده والعياذ بالله.

ولم تقف الظلمة والشدة عند هذا الحد، ففي هذه الحال يأتي السحاب يحجب النجوم والقمر ويكون فوق ذلك الموج: ﴿مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ﴾ وهذه غاية في شدة تراكم الموج فوق بعض حتىٰ أنه كاد يصل إلىٰ السحاب[2].

ثم يصف الله هذه الظلمة بأنَّها: ﴿ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾ أي: هذا بيان لكمال شدة الظلمة، كما وصف كمال النور بقوله: ﴿نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾.

ثم يصف الحالة التي يكون عليها الذي يكون في تلك الظلمة، للتأكيد علىٰ شدة الظلمة أيضا: ﴿إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا﴾ فلا يري من في داخل تلك الظلمة أقرب

(١) روح المعاني (١٨/ ١٨٢)، وانظر: المفردات في غريب القرآن (٣٧).
(٢) روح المعاني (١٨/ ١٨٣).

الأشياء إليه، يده التي من أقرب الأشياء إليه لا يكاد يراها.

وكذلك الكفار تراكمت علىٰ قلوبهم الظلمات، قال أبي بن كعب: «الكافر يتقلب في خمس من الظلمات: كلامه ظلمة، وعمله ظلمة، ومدخله ظلمة، ومخرجه ظلمة، ومصيره يوم القيامة إلىٰ الظلمات في النار وبئس المصير»[(١)].

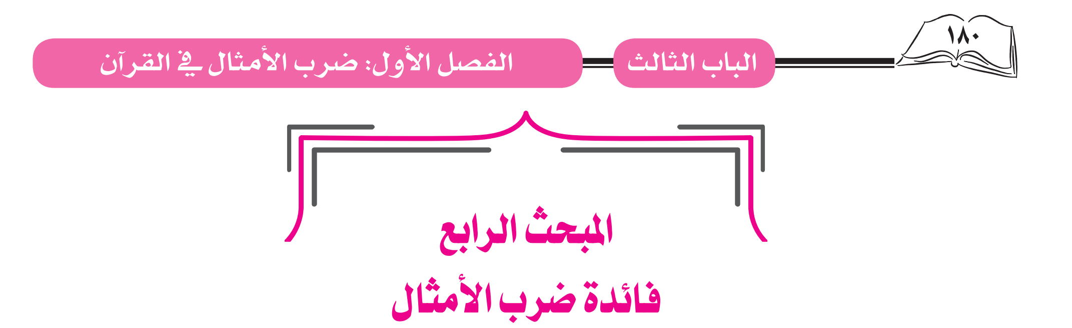
ثم يعقب الله تعالىٰ علىٰ هذه الصورة الشديدة وهذا المثل -شديد الظلمة- بقوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾: أي من لم يهده الله تعالىٰ فلا هادي له، كما قرر ذلك في آيات كثيرة، ومنها: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾﴾ [سورة الكهف ١٧].

«وهذا الختام خاص بالممثل له، إلا أنه يدل علىٰ فائدة في صورة الممثل به وهو التأكيد علىٰ أن الكائن في ذلك المكان لم يصله نور البتة، وأنه لا طريق له إلىٰ النور مع وجود تلك الحجب، ما دام في هذا الوضع وذلك المكان»[(٢)].

«إنه مثال رائع لحياة وأعمال أولئك الذين سلخوا أنفسهم عن الشعور بالمسئولية أمام الله تعالىٰ، فهم يعيشون في حيرة وقلق واضطراب، وظلمة تغلف عقولهم ونفوسهم، تتقاذفهم أمواج شهواتهم المضطرمة في نفوسهم، وإن هذا المثال ليبين شدة افتقار الإنسان إلىٰ هداية الله تعالىٰ وأحكام شريعته»[(٣)].



(١) الجامع لأحكام القرآن (١٢/ ٢٨٥).
(٢) الأمثال القرآنية (٢/ ٥٩٨).
(٣) موضوعات سور القرآن-سورة النور (٧٤).



المبحث الرابع
فائدة ضرب الأمثال

يختتم الله تعالىٰ هذا المثل بذكر الحكمة من ضرب الأمثال فقال تعالىٰ: ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾﴾؛ «ليعقلوا عنه، ويفهموا، لطفًا منه بهم، وإحسانًا إليهم، وليتضح الحق من الباطل، فإن الأمثال تقرب المعاني المعقولة من المحسوسة فيعلمها العباد علمًا واضحًا.

﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾﴾ أي: إن علم الله محيطٌ بجميع الأشياء، فلتعلموا أن ضربه الأمثال، ضرب من يعلم حقائق الأشياء وتفصيلاتها وأنها مصلحة للعباد، فليكن انشغالكم بتدبرها وتعقلها لا بالاعتراض عليها، ولا بمعارضتها فإنه يعلم وأنتم لا تعلمون»[(١)].

ومن الأمور التي ينبغي أن تعلم أن غاية المثل القرآني: «إصلاح النفوس، وصقل الضمائر، وتهذيب الأخلاق، وتقويم المسالك، وتصحيح العقائد، وتنوير البصائر، والهداية إلىٰ ما فيه خير الفرد وصلاح الجماعة، والتنبيه إلىٰ المساوئ لتجتنب، وإلىٰ المحاسن لتقبل عليها النفوس الطيبة والقلوب الزكية»[(٢)].

«فالأمثال تسهم في إبراز الحقائق الإيمانية من خلال أسلوبها المتميز الفعال في تشخيص الحقائق والإقناع، والفصل عند الاشتباه والخلاف.

وقد أشاد الله ﷻ بأمثال القرآن مبينًا أنه اشتمل علىٰ كل مثل من الحق يحتاجه الناس وأن السبيل قد استبان بتلك الأمثال، وما بقي علىٰ الناس إلا أن يتفكروا بها

---

(١) تيسير الكريم الرحمن-السعدي (٥١٧).
(٢) أمثال ونماذج بشرية من القرآن (١/ ١٠٤).

ويتذكروا قال تعالىٰ ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾﴾ [سورة الكهف٥٤]، وقال: ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [سورة إبراهيم ٢٥].

وبين الله تبارك وتعالىٰ أن الأمثال المضروبة في القرآن من أسباب الهداية وأن الله سبحانه يهدي بها كثيرًا ممن تدبروها ويضل كثيرًا ممن أعرض عنها فقال تعالىٰ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [سورة البقرة ٢٦]»[١].

وقال بعض العلماء في الحكمة من ضرب الأمثال: «ضرب الأمثال في القرآن يستفاد منه أمور كثيرة: كالتذكير، والوعظ، والحث، والزجر، وأخذ العبرة، وتقريب المراد للعقل، وتصويره بصورة المحسوس، فإن الأمثال تصور المعاني بصورة الأشخاص، لأنها أثبت في الأذهان، ومن ثم كان الغرض من المثل تشبيه الخفي بالجلي، والغيب بالمشاهد...»[٢].

والداعية إلىٰ الله عليه أن يستفيد من الأمثال القرآنية من حيث استخدام تلك الأمثال في تقريب المعاني للمدعوين وتذكيرهم ووعظهم، ومع نفسه بالامتثال والتفكر والاعتبار والتأمل فيها فإنها من خير ما يعين علىٰ مواصلة الطريق.

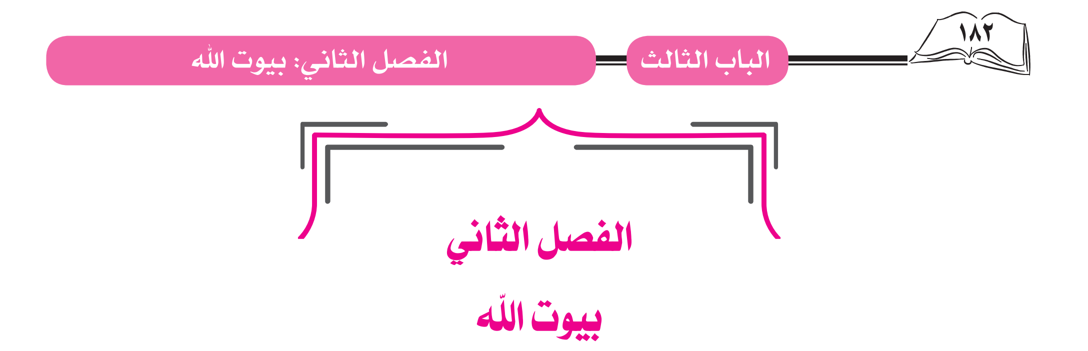
وأيضا أن يحاول أن يورد أمثلة واقعية لمجتمعه يعرضها عليهم ليقرب لهم ما يريده الله منهم من عقائد وعبادات وأخلاق كما كان المصطفىٰ ﷺ يفعل والأحاديث في ذلك كثيرة.



---

(١) الأمثال القرآنية (١/ ١١-١٥) مختصرًا.

(٢) الإتقان في علوم القرآن (٢/ ١٣١).



الفصل الثاني

بيوت الله

قال تعالىٰ: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾﴾

بعد ذكر الله ﷻ نور الهداية الذي يهدي به عباده المؤمنين وشبهه بالمشكاة، بين سبحانه أن هذا النور منبعه يكون من المساجد فقال تعالىٰ: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ﴾.

ومن هذه الآيات يتبين لنا ما للمسجد من أهمية كبيرة في حياة الفرد والمجتمع وما لها من الفضل الكبير عند الله تعالىٰ وما لها من الآثار الطيبة في الدنيا والآخرة، ولذا كان لا بد من التنبيه علىٰ معنىٰ الآيات إجمالًا، وبيان بعض الأمور التي لها اتصال بجانب المساجد وفضلها وآدابها وأحكامها وآثار تلك المساجد علىٰ الفرد والمجتمع.

وذلك في المباحث التالية:



المبحث الأول

تحليل معنى الآيات إجمالا

«أمر الله تعالىٰ برفع المساجد وتطهيرها من الدنس والأفعال والأقوال التي لا تليق فيها»[(١)]. فالإذن هنا معناه الأمر والقضاء[(٢)]، أي أمر الله ﷻ وقضىٰ أن تبنىٰ مساجده، وذلك كقوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾﴾ [سورة البقرة ١٢٧]، وأيضا أن تطهر تلك المساجد وتنظف ويزال عنها الدنس.

وأيضا ﴿وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ يتلىٰ فيها كتابه[(٣)]، ونحو ذلك من الذكر المشروع.

﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴿٣٦﴾﴾ قال القرطبي: «أراد الصلاة المفروضة، فالغدو صلاة الصبح، والآصال صلاة الظهر والعصر والعشاءين لأن اسم الآصال يجمعها، وعلىٰ هذا أكثر المفسرين»[(٤)]. ولا يمنع ذلك من إرادة الذين يسبحون الله تعالىٰ في كل وقت.

﴿رِجَالٌ﴾ هذا وصفٌ «فيه إشعار بهممهم السامية، ونياتهم وعزائمهم العالية، التي بها صاروا عمارًا للمساجد، التي هي بيوت الله في أرضه، ومواطن عبادته وشكره، وتوحيده وتنزيهه»[(٥)]. وهؤلاء الرجال الذين يعمرون المساجد يصفهم الله بأنهم:

---

(١) تفسير القرآن العظيم - ابن كثير (٦/ ٦٢).
(٢) الجامع لأحكام القرآن (١٢/ ٢٦٦).
(٣) تفسير القرآن العظيم - ابن كثير (٦/ ٦٦).
(٤) الجامع لأحكام القرآن (١٢/ ٢٧٦).
(٥) تفسير القرآن العظيم - ابن كثير (٦/ ٦٧).

﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ﴾ أي: «لا تشغلهم، وخص التجارة بالذكر لأنها أعظم ما يشتغل به الإنسان عن الصلاة.

فإن قيل لماذا كرر ذكر البيع، والتجارة تشمله؟ قيل: أراد بالتجارة الشراء نظير قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا ۚ قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ ۚ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١﴾﴾ [سورة الجمعة ١١]»[١]، أو لأن الحرص علىٰ البيع أشد لأنه مظنة الكسب وفواته مظنة الخسارة وليس الشراء كذلك.

فهؤلاء مدحهم الله بأنهم لا تلهيهم الدنيا عن الله سبحانه وتعالى وعن ذكره وأوقات فرائضه، قال مطر الوراق: «كانوا يبيعون ويشترون، ولكن كان أحدهم إذا سمع النداء وميزانه في يده خفضه وأقبل إلىٰ الصلاة»[٢].

وفي مقابل ذلك يقول علىٰ رضي الله عنه: «يأتي علىٰ الناس زمان لا يبقىٰ من الإسلام إلا اسمه، ولا من القرآن إلا رسمه، يعمرون مساجدهم وهي من ذكر الله خراب، شر أهل ذلك الزمان علمائهم، منهم تخرج الفتنة، وإليهم تعود»[٣].

وقال تعالىٰ أيضًا في صفة هؤلاء الرجال ولماذا يفعلون ذلك: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴿٣٧﴾﴾: فهم يؤمنون بيوم القيامة وما فيه من حساب وجزاء، فهم يخافون من هذا اليوم الذي تضطرب فيه القلوب والأبصار، من شدة أهوال ذلك اليوم.

فهم يخافون من ذلك اليوم، ولا ينشغلون عن ذكر الله ولا تلهيهم الدنيا عن ذكر الله، فما جزاءهم؟

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (٦/ ٢٧٩).

(٢) تفسير القرآن العظيم- ابن كثير (٦/ ٦٩)، الجامع لأحكام القرآن (١٢/ ٢٥٧).

(٣) أخرجه البخاري في خلق أفعال العباد (١/ ٦٧) (١١٧)، والبيهقي في الشعب موقوفًا عن علي (٢/ ٣٣١) (١٩٠٨)، وقال الألباني في السلسلة الضعيفة: ضعيف جدًا بالرفع، ولم يذكره موقوفًا (١٩٣٦).

﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ أي: «ليجزيهم الله علىٰ أحسن شيء عملوه لأنهم قد عملوا أمورًا مباحةً كثيرةً، ولكن الجزاء سيكون علىٰ الحسن منها، مع الزيادة الكثيرة عن الجزاء المقابل لأعمالهم»(١)، أي: هم فعلوا ذلك ابتغاء مرضات الله، لأن ربهم رحيم كريم يعطيهم الجزاء علىٰ القليل من أعمالهم.

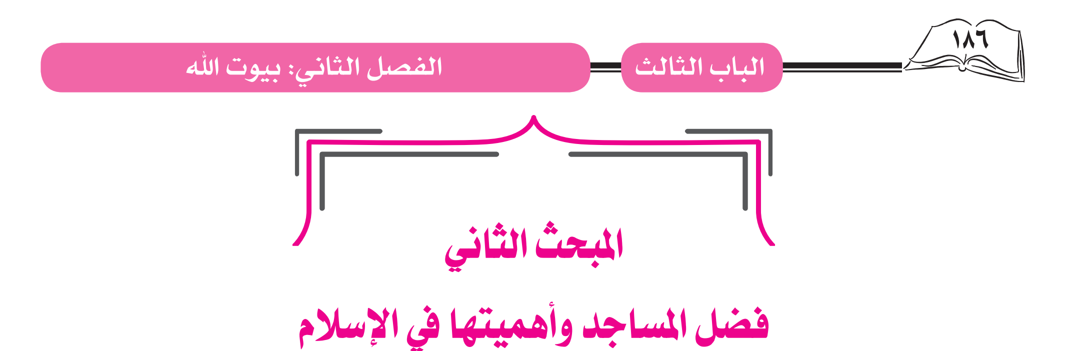
وعلَّق الحسن بالعمل لأنه مناط الابتلاء في الحياة الدنيا، قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [سورة الملك ٢]، ولأن العمل صفة لازمة للإنسان ولكن المحك في حسنه قال تعالىٰ: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ﴿٤﴾﴾ [سورة البلد ٤]، وقال رسول الله ﷺ: «**أصدق الأسماء همَّامٌ وحارث**»(٢).

ثم يعقب الله تعالىٰ علىٰ ذلك الفضل وذلك الإحسان لمن التزم أمره ولم تشغله أي شاغلة عن ذكر الله: ﴿وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾﴾، وهذا فيه فضل كبير من الله تعالىٰ أنه يرزق من يشاء بغير حساب، ولكن أين المتذكرون!



(١) تيسير الكريم الرحمن-السعدي (٥١٨).

(٢) أخرجه ابن وهب في الجامع (٤٤)، والطبراني في المعجم الأوسط (١/ ٢١٤) (٦٩٤)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٠٤٠)، وفي صحيح الترغيب والترهيب (١٩٧٧)، وهذا الاسمان من أصدق الأسماء لأن الحارث هو: الكاسب، والهمام هو: الذي يهم مرة بعد أخرىٰ، وكل إنسان لا ينفك عن هذين الوصفين.



المبحث الثاني

فضل المساجد وأهميتها في الإسلام

للمسجد في الإسلام أهميته الكبرىٰ وأعماله العظمي، ولا أدل علىٰ ذلك من ذكر الله له في القرآن بعد مثل نور الإيمان وقبل مثل ظلمة الكفر، قال تعالىٰ: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْأَصَالِ ﴿٣٦﴾﴾ فالله تعالىٰ بعد ذكره للنور؛ ذكر المكان الذي يشع منه النور ومدح هذه الأماكن ورفع شأنها وأمر بالذكر والتسبيح والعبادة فيها، أمرًا من منه سبحانه، وبعد أن ذكر المسجد الذي هو مكان انبثاق النور والهداية، ذكر مثلًا لظلمات الكفر إشارة إلىٰ أنه من لم يرض بنور الله الموجود داخل المساجد، فسيكون حاله كما في الأمثلة لأصحاب الظلمات.

وأيضًا من الأدلة علىٰ أهمية المسجد وفضله: أن النبي ﷺ قبل أن يدخل المدينة في حادثة الهجرة نزل في قباء وأول ما نزل بنىٰ مسجد قباء فكان أول مسجد يبنىٰ في الإسلام[(١)].

وبعد ذلك عندما دخل المدينة وكان يمر علىٰ بيوت الأنصار رضي الله عنهم جميعا، وكان كل واحد منهم يريد أن ينزل رسول الله عنده، ولكن رسول الله يقول لهم: «**دعوها فإنها مأمورة**»[(٢)] أي الناقة. ولكن بماذا يا رسول الله هي مأمورة؟!!

تأتي الإجابة العملية علىٰ السؤال الذي يدور في الذهن فتبرك الناقة!! ويأمر الرسول ﷺ ببناء مسجده علىٰ الأرض التي بركت فيها الناقة، واشترىٰ رسول الله ﷺ

---

(١) فتح الباري (٧/ ٢٨٨)، والسيرة النبوية لابن هشام (١/ ٤٩٢).

(٢) فتح الباري (٧/ ٢٨٩)، والسير النبوية لابن هشام (١/ ٤٩٤).

الأرض[١] وبنى المسجد، وهذا أول عمل عمله رسول الله ﷺ عندما وصل المدينة.

ومن هذه الحادثة وغيرها يعلم أنّ للمسجد في الإسلام مكانته الكبيرة، ولذلك فقد فضله الله تعالىٰ بعدة فضائل يجمع الله بها المسلمين لكي يحققوا الهدف المرجو من وجود المسجد، وهنا سنذكر بعض الفضائل التي فضل الله بها المسجد - بيت الله - عن سائر البيوت تحفيزا للمسلمين للارتباط بالمسجد، **ومن هذه الفضائل:**

١) المسجد أحب الأماكن إلىٰ الله:

قال رسول الله ﷺ: «**أحب البلاد إلىٰ الله مساجدها، وأبغض البلاد إلىٰ الله أسواقها**»[٢].

٢) رتب الله الأجر الكبير علىٰ بناء المساجد:

ووعد النبي ﷺ من بنىٰ المسجد ببيت في الجنة، فعن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من بنىٰ مسجدا يبتغي به وجه الله، بنىٰ الله له مثله في الجنة**»[٣].

والله سبحانه وتعالى أثنىٰ ووعد بالجزاء وشهد بالإيمان لمن عني بعمارة المساجد فقال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾﴾ [سورة التوبة ١٨].

٣) رتب الله سبحانه وتعالى الأجر الكبير علىٰ الصلاة مع الجماعة في المسجد:

قال رسول الله ﷺ: «**من توضأ للصلاة فأسبغ الوضوء ثم مشىٰ إلىٰ الصلاة المكتوبة فصلاها مع الناس أو مع الجماعة في المسجد غَفر الله له ذنوبه**»[٤].

---

(١) فتح الباري (٧/ ٢٩٠).
(٢) أخرجه مسلم كتاب المساجد باب فضل الجلوس في مصلاه وفضل المساجد (٦٧١).
(٣) أخرجه البخاري كتاب الصلاة باب من بنىٰ مسجدًا (٤٥٠). ومسلم كتاب المساجد باب فضل بناء المساجد والحث عليها (٥٣٣).
(٤) أخرجه مسلم كتاب الطهارة باب فضل الوضوء والصلاة عقبه (٢٣٢).

وقال ﷺ: «**صلاة الجماعة أفضل من صلاة الفذ بسبع وعشرين درجة**»[(١)].

٤) وأيضا رتب الله علىٰ القعود في المسجد الأجر العظيم:

هذا من رحمة الله بعباده وكرمه عليهم، حيث رتَّب علىٰ الجلوس في المسجد وانتظار الصلاة كأجر المصلي، ثم جعل ملائكته يدعون لمنتظر الصلاة في المسجد بالرحمة والمغفرة والتوبة، وذلك بانتظار الصلاة بعد الصلاة؛ كما قال عليه الصلاة والسلام: «**ألا أدلكم علىٰ ما يمحو الله به الخطايا ويرفع الله به الدرجات؟ قالوا: بلىٰ يا رسول الله. قال: إسباغ الوضوء علىٰ المكاره، وكثرة الخطىٰ إلىٰ المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة؛ فذلكم الرباط، فذلكم الرباط**»[(٢)].

ويدخل في هذا تعلق القلب بالمسجد في كل وقت، فقد ورد من السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: «**ورجلٌ قلبه معلقٌ بالمساجد**»[(٣)].

٥) فضل المشي إلىٰ المساجد:

من الأدلة أيضا علىٰ فضل المساجد أن الله تعالىٰ جعل الأجر علىٰ المشي إليها، وحثَّ علىٰ ذلك، فقال ﷺ: «**من تطهر في بيته ثم مضىٰ إلىٰ بيت من بيوت الله؛ ليقضي فريضة من فرائض الله، كانت خطواته إحداها تحط خطيئة، والأخرىٰ ترفع درجة**»[(٤)].

٦) فضل التبكير إلىٰ المساجد والصلاة في الصفوف الأُوَل:

قال ﷺ: «**لو يعلم الناس ما في النداء والصف الأول، ثم لم يجدوا إلا أن يستهموا عليه لاستهموا عليه**»[(٥)].

---

(١) أخرجه البخاري كتاب الأذان باب فضل صلاة الجماعة (٦٤٥)، ومسلم كتاب المساجد باب فضل صلاة الجماعة (٦٥٠).

(٢) أخرجه مسلم كتاب الطهارة باب تبلغ الحلية حيث يبلغ الوضوء (٢٥١).

(٣) أخرجه البخاري كتاب الزكاة باب الصدقة باليمين (١٤٢٣). ومسلم كتاب الزكاة باب فضل إخفاء الصدقة (١٠٣١).

(٤) أخرجه مسلم كتاب المساجد باب المشي إلىٰ الصلاة تمحا به الخطايا وترفع به الدرجات (٦٦٦).

(٥) أخرجه البخاري كتاب الأذان باب الاستهام في الأذان (٦١٥). ومسلم كتاب الصلاة باب تسوية=

٧) فضل الاجتماع في المسجد علىٰ الذكر:

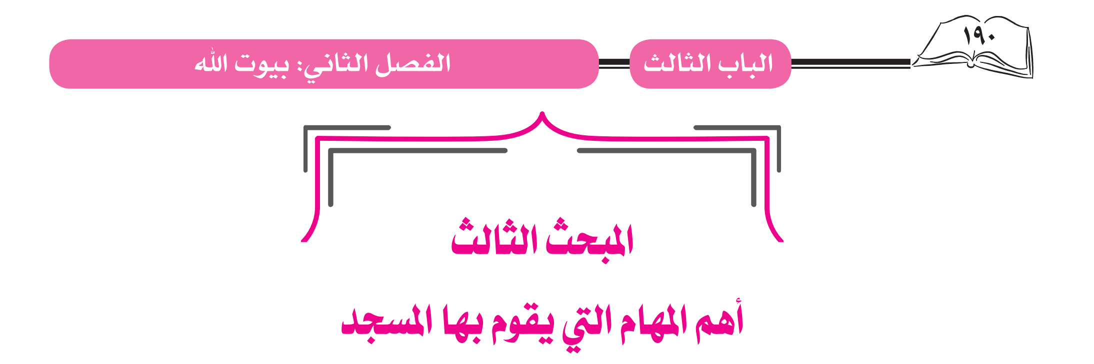
قال رسول الله ﷺ: «**ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتابه، ويتدارسونه فيما بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده**»[١].

بهذه الفضائل يريد الله ﷻ أن نرتبط بقوةٍ في المسجد، وينبهنا علىٰ أهميته لكي يحصل لنا ما حصل للجيل الأول؛ الذين كان المسجد هو نقطة الانطلاق لديهم، فإنهم فتحوا العالم انطلاقا من التربية التي تلقوها في المسجد، وتلك ثمرةٌ لصلاة الجماعة في المساجد، وحضور حِلَق العلم والذكر التي أعطتهم القوة العقدية الإيمانية، فأدخلوا بها الإسلام إلىٰ كُلّ بيتٍ، وكلّ قطرٍ وصلوا إليه، وبلغوا رسالة الله للعالمين.



= الصفوف وإقامتها وفضل الأول فالأول منها، والازدحام علىٰ الصف (٤٣٧).

(١) أخرجه مسلم كتاب الذكر والدعاء باب فضل الاجتماع علىٰ تلاوة القرآن وعلىٰ الذكر (٢٦٩٩).



المبحث الثالث

أهم المهام التي يقوم بها المسجد

ولكن لماذا كان للمسجد هذا الفضل الكبير وهذه العناية العظيمة، ولِمَ كان أول عمل فعله الرسول ﷺ عند وصوله بناء المسجد؟

إن المسجد له خاصية كبيرة في المجتمع المسلم، فهو مصدر إشعاع نور تربوي هام، كما أن له في حياة المسلم منزلة ترتبط ارتباطا وثيقا بحياته الروحية والبدنية.

وعلىٰ هذا فإن للمسجد في الإسلام رسالةً كبيرةً جدًا، فليست رسالة المسجد هي الصلاة والعبادة فقط، ولكن المسجد له مهمته الكبيرة في حياة الأمة الإسلامية، وهذه المهام قد غفل عنها كثير من الناس في هذا الوقت حيث أنهم ظنوا أن الإسلام في المسجد فقط، أما خارج المسجد فلا دخل للإسلام في ذلك، كأنهم نسوا أو تناسوا أن المسجد الذي يمثل الإسلام، خرجت منه الأحكام التي تنظم حال الناس داخل المسجد وخارج المسجد، فمن هنا وجب علينا أن نبين أهمية المسجد والمهام التي قام بها المسجد والتي يجب أن يقوم بها في واقع الحياة.

ومن أهم هذه المهام:

١- إقامة شعائر الله تعالىٰ:

من الصلاة، والدعاء، والذكر، والجمعة والجماعة، والدعوة إلىٰ الله، والاعتكاف والأعياد... وغيرها من شعائر الله.

٢- إشاعة روح المحبة والأخوة بين المسلمين:

فالمسجد هو المكان الذي تنصهر فيه قلوب المسلمين، حتىٰ يكونوا إخوةً في الله يجتمعون خمس مرات في كل يوم وليلة؛ علىٰ عبادة الله تعالىٰ، ولذا كان رسول الله ﷺ حريصًا علىٰ أن يقوي الأخوة بين الصحابة، فيقول عند الوقوف للصلاة: «**أقيموا الصفوف، وحاذوا بين المناكب، وسدوا الخلل، لِيْنُوا بأيدي إخوانكم، لا تدعو فُرُجَاتٍ للشيطان**»[١]، وقال في لفظ آخر: «**استووا، ولا تختلفوا فتختلف قلوبكم**»[٢]، وذلك لكي لا يترك للشيطان مكانًا بين المسلمين، فيؤدي بذلك إلىٰ اختلاف قلوبهم لما يزرع بينها الشيطان من العداوة والأمراض الخبيثة، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾﴾ نسأل الله أن يجعلنا من عباده السعداء.

٣- إشاعة العدل والمساواة بين المسلمين:

فلا فرق لعربي علىٰ أعجمي ولا فرق لأسود علىٰ أبيض، فكل المسلمين سواءٌ غنيهم أو فقيرهم أبيضهم أو أسودهم، عربيهم أو أعجميهم، يقفون أمام الله تعالىٰ سواء، كلهم يركعون ويسجدون، ولكن المفارقة في درجة تعلقهم بالله تعالىٰ، المسجد لا يفرق بينهم لأنهم في حكم الله وشرعه سواسية.

---

(١) أخرجه أبوداود كتاب الصلاة باب تسوية الصفوف (٦٦٦)، والبيهقي في السنن (٣/ ١٠١) (٤٩٦٧)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٦٢٠).

(٢) أخرجه مسلم كتاب الصلاة باب تسوية الصفوف (٤٣٢).

فالإسلام مثلًا لم يجعل الصف الأول حكرا علىٰ أحد من الناس لتميزه في المال والجاه والنسب مثلًا، ولكن رسول الله ﷺ قال: «**لِيَلِني منكم أولوا الأحلام والنُهىٰ، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم**»(١)، فجعل من يليه منهم حسب وصف واعتبار مشاع يجوز أن يكون في فقيرهم وغنيهم.. وهكذا.

٤- وحدة الصف:

قال تعالىٰ: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ١٠٣﴾ [سورة آل عمران ١٠٣].

عندما يجتمع المسلمون في اليوم خمس مرات في أوقات محددة، ويصلون خلف إمام واحد في صفوف متلاحمة، كأنهم بنيان مرصوص، يدعون إلهًا واحدًا، في اتجاه واحد، لا يتحركون أي حركة إلا بعد أن يُتِمَّها الإمام. وفي جماعة واحدة، وجاء النهي عن الجماعتين في المسجد(٢)، وذلك توحيدًا للصف المسلم، لنشر دعوة الله، والحفاظ عليها من هجوم الأعداء وزعزعة صفوفهم.

٥- التعلم والتعليم:

المسجد مدرسة النبوة تخرج من هذه المدرسة رجال نشروا هذا الدين في كل بلاد العالم، وكان هذا الانطلاق من بدايته في المسجد، ومعظم السنة النبوية دروس من مسجد رسول الله ﷺ كان يعلم فيه الصحابة، وقد رغب الشارع بذلك فقال ﷺ: «**ومن سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا سهل الله له به طريقًا إلىٰ الجنة، وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم**

---

(١) أخرجه مسلم كتاب الصلاة باب تسوية الصفوف (٤٣٢).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٢/ ٧٨) و(٨/ ٢٥٧)، وفتاوىٰ الأزهر (٩/ ٨١و٨٢و١٤١).

الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده»[(١)].

٦- التكافل الاجتماعي والتعاون علىٰ البر والتقوىٰ:

في المسجد عبادات وإخاء وتجميع للصف، وهناك أمور تجلب هذه الوحدة وتأتي بهذا الإخاء، وهي الأعمال التي يستفيد فيها الأخ من أخيه، وهذه تتمثل في قضاء حوائج المسلمين ومساعدتهم، وحث الناس علىٰ مساعدتهم، كما في وفد مضر ووفد عبد القيس وغيرهم، فكان المحتاج في زمن النبي ﷺ يأوي إلىٰ المسجد لأنه يعلم أن في المسجد من سيبادر بالوقوف معه، والرجل الذي ليس عنده بيت يأوي إليه كان المسجد مأواه كما في حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وغيره، والزكاة كانت تجمع وتوزع في المسجد. وكان المسجد إيواء لمن لا بيت عنده من فقراء المسلمين وكان يطلق عليهم [أهل الصفة]، وكان غيرهم أيضا يبيت في المسجد أحيانًا لحاجة.

٧- النصيحة (الوعظ والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر):

في المسجد يجد الإنسان من ينصحه، وهو أيضا يقوم بنصح إخوانه وبذلك يشيع بين المسلمين المعروف وينمحي المنكر، وتقبل النصيحة في المسجد وأثرها أكبر لأن الإنسان يكون أقرب إلىٰ الله في المسجد، كما في حديث قصة مال البحرين وقصة الإفك وغيرها.

٨- حل المشكلات والصلح بين الناس:

ولا أدل علىٰ ذلك إلا سنة النبي ﷺ فقد كان المسجد المكان الذي تفصل فيه قضايا النزاع بين الناس، سواء كانت مشكلات كبيرة أو صغيرة فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال؛ قال النبي ﷺ: **«اشترىٰ رجلٌ من رجلٍ عقارًا له؛ فوجد الرجل الذي اشترىٰ العقار في عقاره جرةً فيها ذهبٍ، فقال له الذي اشترىٰ العقار: خذ ذهبك مني، إنما اشتريت منك الأرض ولم أبتع منك الذهب! وقال الذي له الأرض: إنما بعتك الأرض وما فيها!**

---

(١) أخرجه مسلم باب فضل الاجتماع علىٰ تلاوة القرآن والذكر (٢٦٩٩).

فتحاكما إلىٰ رجلٍ، فقال الذي تحاكما إليه: ألكما ولد؟ قال أحدهما: لي غلامٌ. وقال الآخر: لي جاريةٌ. قال: أنكحوا الغلام الجارية وأنفقوا علىٰ أنفسهما منه وتصدقا»[(١)].

فعلىٰ المسجد أن يقوم بهذا الدور وخاصة في هذا الوقت الذي كثرت فيه الخصومات بين المسلمين، فقد يكون أحدهم يصلىٰ بجوار شخص آخر في المسجد ولكن بينهما من التباغض والتفرق الشيء الكثير.

٩- مركز القيادة للدولة الإسلامية:

بحكم أن رسول الله ﷺ كان القائم علىٰ أمر المسلمين كان لا بد أن يكون له مكان للقيادة، ولكنه ﷺ، كان أيضا معلما، ومرشدا وداعية، ورجل تجتمع عنده الوفود وهو الذي يصلح بين الناس ويصلىٰ بهم، فلم يكن هناك مكان أفضل من المسجد يجلس فيه ليدير أمور أمته من المسجد كما في شأن قصة غزوة أحد، ويلتقي بكل الناس وفي أي وقت.

١٠- انطلاق الجيوش لفتح العالم كان من عند المسجد:

من المسجد كانت تخرج الجيوش لفتح العالم مثل ما حصل في غزوة أحد وتبوك، وبَعْثِ أسامة وغيرها، فهم خرجوا من المسجد بعد أن أصبحوا مهيئين لقيادة العالم، وبعد أن تربوا التربية الصحيحة في المسجد خرجوا لإدخال الناس في ذلك النور الموصل للنور التام يوم القيامة، وذلك من غير إكراه ولا اعتداء، فلم يعلم الناس فاتحًا رحيمًا علىٰ مدار التاريخ غير الإسلام.

وهناك أعمال أخرىٰ يقوم بها المسجد وأدوار مهمة يجب العناية بها، فليكن رجوعنا دائمًا إلىٰ بيوت الله إذ فيها النور الذي فيه صلاح كل أمورنا ومعاشنا ودنيانا وأخرانا.

---

(١) أخرجه البخاري كتاب أحاديث الأنبياء باب (٥٤) (٣٤٧٢)، ومسلم كتاب الاقضية باب استحباب إصلاح الحاكم بين الخصمين (١٧٢١).

المبحث الرابع
أحكام المساجد وآدابها

لبيوت الله ﷻ آداب وأحكام لا بد للمسلم أن يراعيها، لكي يكون من هؤلاء الرجال الذين امتدحهم الله في هذه الآيات، ولكي يقوم بحق هذه البيوت كما أمر الله تعالىٰ أن ترفع وتعظم.

وهنا سنعرض بعض الآداب والأحكام[١] ممَّا نحن مكلفون به وهي كما يأتي:

١- عدم بناء المساجد علىٰ القبور أو إدخال القبور فيها:

فقد وصف النبي ﷺ النصارىٰ بقوله: «**أولئك إذا كان فيهم الرجل الصالح فمات: بنو علىٰ قبره مسجدا، وصوروا فيه تلك الصور، فأولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة!**» يُحَذِّر ما صنعوا[٢].

٢- حسن الهيئة والتطيب والسواك للمسجد:

قال تعالىٰ: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾ [سورة الأعراف ٣١].

قال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «واعلم أن الصلاة في الثوب الحسن غير مكروه، إلا أن يخشىٰ منه الإلتهاء عن الصلاة أو حدوث الكبر، وقد كان لتميم الداري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ حُلَّةً اشتراها بألف درهم، يقوم بها الليل[٣]، وقد كان النبي ﷺ أحيانًا يلبس حللاً من حلل

---

(١) استفدتها من عدة كتب في الآداب وأكثرها: كتاب الآداب لفؤاد الشلهوب، وكتب التفسير التي نبهت علىٰ آداب المساجد وأحكامها عند تفسير هذه الآية، كتفسير القرآن العظيم لابن كثير، والسعدي، والجامع لأحكام القرآن، والبغوي...

(٢) أخرجه البخاري كتاب الصلاة باب هل تنبش قبور مشركي الجاهلية ويتخذ مكانها مساجد (٤٢٧). ومسلم كتاب المساجد باب النهي عن بناء المساجد علىٰ القبور (٥٢٨).

(٣) أخرجه أحمد في الزهد (١١١٧) ومختصر قيام الليل لمحمد بن نصر المروزي باب الاغتسال لقيام=

اليمن، وبرودًا حسنة، ولم ينقل عنه أنه كان يتجنب الصلاة فيها، وإنما ترك هذه الخميصة لما وقع له من تلك النظرة إلىٰ علمها، وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [سورة الأعراف ٣١]، وقول ابن عمر: «**الله أحق أن يتزين له**»[١]. وخرج أبو داود في مراسيله من حديث عبيدالله بن عتبة، قال: «**كان رسول الله ﷺ إذا قام إلىٰ الصلاة - مما تعجبه الثياب النقية الريح الطيبة**»[٢].

ولم يزل علماء السلف يلبسون الثياب الحسنة، ولا يعدون ذلك كِبرًا، وقد صح عن النبي ﷺ أنه سُئل عن الرجل يحب أن يكون ثوبه حينًا ونعله حسنًا؟ فقال: «**ليس ذلك من الكبر، أن الله جميل يحب الجمال**»[٣]»[٤].

٣- استحباب التبكير للمسجد:

عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «**لو يعلم الناس ما في النداء والصف الأول ثم لم يجدوا إلا أن يستهموا عليه لاستهموا عليه، ولو يعلمون ما في التهجير**[٥] **لاستبقوا إليه ولو يعلمون ما في العتمة**[٦] **والصبح لأتوهما ولو حبوًا**»[٧].

= الليل والتطيب ولبس الثياب الحسنة (١٠٨).

(١) أخرجه عبدالرزاق في مصنفه (١٣٩١) والطبراني في الكبير (٤٥٠) وفي الأوسط (٧٢٦٢) و(١١٤٢٤) وابن المنذر في الأوسط (٣٣٢٨) و(٣٣٣٥) قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٢/ ٥١) «رواه الطبراني في الكبير وإسناده حسن»، وصححه الألباني مرفوعًا في الصحيحة (٣/ ٣٥٦) (١٣٦٩).

(٢) مراسيل أبي داود كتاب من الصلاة باب ما جاء في الثياب (٢٨).

(٣) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه كتاب الإيمان باب تحريم الكبر وبيانه (١٣١).

(٤) فتح الباري لابن رجب (٣/ ٦٣)، كتاب الصلاة باب وجوب الصلاة في الثياب.

(٥) التَّهْجير: التَّبْكِيرُ إلىٰ كُلِّ شيء والمُبادَرَة إليه. يقال: هَجَّر يُهَجِّر تَهْجيرًا فهو مُهَجِّر وهي لُغَةٌ حجازِيَّة أرادَ المبادَرة إلىٰ أوَّلِ وقت الصلاة. أنظر النهاية في غريب الحديث (٥/ ٥٥٧).

(٦) والعَتَمَةُ مُحَرَّكَةً: ثُلُثُ اللَّيْلِ الأَوَّلُ بعد غَيْبُوبَةِ الشَّفَقِ أو وَقْتُ صَلاةِ العشاءِ الآخِرَةِ. القاموس المحيط (١٤٦٥).

(٧) تقدم تخريجه.

٤- النهي عن حضور المسجد لمن أكل ثومًا أو بصلًا ونحوهما:

فعن جابر بن عبدالله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: نهىٰ رسول الله عن أكل البصل والكراث، فغلبتنا الحاجة فأكلنا منها. فقال: «**من أكل من هذه المنتنة فلا يقربن مسجدنا، فإن الملائكة تتأذىٰ مما يتأذىٰ منه بنو آدم**»[(١)].

وأفاد الحديث النهي عن كل رائحة تؤذي المصلين كالدخان والروائح الكريهة التي تخرج من الجسد، أو الملابس النتنة، فعلىٰ المصلىٰ قبل أن يحضر للمسجد أن يتفقد نفسه حتىٰ لا يؤذي الملائكة والمصلين.

٥- المشي إلىٰ المسجد بخشوع وسكينة:

وذلك لأن من قدم إلىٰ صلاته وهو مطمئن فهذا أدعىٰ إلىٰ خشوعه في صلاته وإقباله عليها، فعن أبي قتادة قال: بينما نحن نصلي مع رسول الله ﷺ إذ سمع جلبة رجال فلما صلىٰ قال: «**ما شأنكم؟**» قالوا: استعجلنا إلىٰ الصلاة. قال: «**فلا تفعلوا، إذا أتيتم الصلاة فعليكم السكينة، فما أدركتم فصلوا وما فاتكم فأتموا**»[(٢)].

٦- ذكر دعاء الذهاب للمسجد:

فقد ثبت في الحديث من دعاء النبي ﷺ حين خروجه للمسجد: «**اللهم اجعل في قلبي نورا، واجعل في لساني نورا، واجعل في سمعي نورا، واجعل في بصري نورا، واجعل خلفي نورا، وأمامي نورا، واجعل من فوقي نورا، ومن تحتي نورا، اللهم أعظم لي نورا**»[(٣)]، وهو دعاء عظيم له أثر معنوي وحسي في النفس لا سيما مع استشعار عِظَم

---

(١) أخرجه البخاري كتاب الأذان باب ما جاء في الثوم والبصل والكراث (٨٥٤)، ومسلم كتاب المساجد باب النهي من أكل ثوم أو بصل أو كراث أو نحوها (٥٦٤).

(٢) أخرجه البخاري كتاب الأذان باب قول الرجل: فاتتنا الصلاة (٦٣٥). ومسلم كتاب المساجد باب إتيان الصلاة بوقار وسكينة والنهي عن إتيانها سعًا (٦٠٣).

(٣) أخرجه أبو داود كتاب التطوع باب صلاة الليل (١٣٥٣). وقال الألباني: «صحيح» (١٠٢٥).

المعبود، وعِظَم العبادة التي يقدم عليها، ومعاني هذه الألفاظ الواردة عن المصطفىٰ ﷺ وعظم حاجة العبد وافتقاره.

٧- دعاء دخول المسجد والخروج من المسجد:

فعن أبي حميد وأبي أسيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قالا؛ قال رسول الله ﷺ: «**إذا دخل أحدكم المسجد فليقل: اللهم افتح لي أبواب رحمتك. وإذا خرج فليقل: اللهم إني أسألك من فضلك**»[(١)].

٨- استحباب تقديم الرجل اليمنىٰ علىٰ اليسرىٰ في الدخول للمسجد:

وذلك لأن الرسول كان دائما يقدم اليمين في جميع الأمور الطيبة، وما أطيب وأشرف من المسجد أن تقدم فيه الرجل اليمنىٰ علىٰ اليسرىٰ، فعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: «كان رسول الله يعجبه التيمن في تنعله وترجله وطهوره، وفي شأنه كله»[(٢)].

٩- صلاة ركعتين تحية المسجد:

وهاتان الركعتان سنة مؤكدة عن رسول الله ﷺ، فقد ورد من حديث أبي قتادة السلمي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا دخل أحدك المسجد فليركع ركعتين قبل أن يجلس**»[(٣)]. قال القرطبي: «فجعل ﷺ للمسجد مزية يتميز بها عن سائر البيوت وهو ألا يجلس حتىٰ يركع، وعامة العلماء علىٰ أن الأمر بالركوع علىٰ الندب والترغيب»[(٤)]، ومن العلماء من نص علىٰ الوجوب[(٥)].

---

(١) أخرجه مسلم كتاب الصلاة باب ما يقول إذا دخل المسجد (٧١٣).

(٢) أخرجه البخاري كتاب الضوء باب التيمن في الوضوء والغسل (١٦٨). ومسلم كتاب الطهارة باب التيمن في الطهور وغيره (٢٦٨).

(٣) أخرجه البخاري كتاب الصلاة باب إذا دخل أحدكم المسجد فليركع ركعتين (٤٤٤). ومسلم كتاب الصلاة باب استحباب تحية المسجد بركعتين (٧١٤).

(٤) الجامع لأحكام القرآن (١٢/ ٢٧٤).

(٥) يمكن مراجعة المسألة في التمهيد لابن عبد البر (٢٠/ ١٠٠)، وفتح الباري (٢/ ١١)، وشرح النووي=

١٠-ظهور أثر الصلاة وارتياد المساجد علىٰ من يتردد علىٰ المسجد:

علىٰ من يتردد المسجد أن يصدق فعله مظهره، وكلامه مخبره، حتىٰ لا يخيب أمل الناس فيه، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾﴾ [سورة التوبة ١٨].

١١- تنزه المساجد عن البيع والشراء ونشْدَان الضَّالة والتحدُّث في الدنيا:

وذلك لأن المساجد لم تُنْشَأْ لهذا، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**إذا رأيتم من يبيع أو يبتاع في المسجد فقولوا: لا أربح الله تجارتك..**»[(١)]، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**من سمع رجلا ينشد ضالة في المسجد فليقل: لا ردها الله عليك، فإن المساجد لم تُبْنَ لهذا**»[(٢)].

١٢- إضاءة المساجد:

فقد فعل ذلك تميم الداري رضي الله عنه[(٣)]. «وقد كان السلف الصالح يوقدون آلآت الإنارة في المساجد»[(٤)].

= لمسلم (٦/ ١٦٤).

(١) أخرجه الترمذي كتاب البيوع باب النهي عن البيع في المسجد (١٣٢١) وقال حسن غريب. وصححه الألباني في صحيح الترمذي (١٠٦٦).

(٢) أخرجه مسلم كتاب المساجد باب النهي عن نشد الضالة في المسجد (٥٦٨).

(٣) ذكر ابن حجر في الإصابة (١/ ١٨٤) قال: «وهو أول من أسرج السراج في المسجد رواه الطبراني من حديث أبي هريرة»، المعجم الكبير (٢/ ٤٩) (١٢٤٧)، قال الهيثمي (٩/ ٦٥٤): «وفيه خالد بن إلياس وهو متروك». وأخرجه ابن ماجه من حديث أبي سعيد الخدري كتاب المساجد والجماعات باب تطهير المساجد وتطيبها (٧٦٠)، قال في مصباح الزجاجة (٢/ ٥١٤) «موقوف. وفي إسناده خالد بن إياس اتفقوا علىٰ ضعفه». قال الألباني في التعليق علىٰ ابن ماجه: «ضعيف جدا»، وفصَّل الكلام عليه في: الثمر المستطاب (ص٥٩٥-٦٠٠). وسكت عنه ابن حجر في الفتح (١٢/ ٤٦) والله أعلم.

(٤) عمارة المساجد في الشريعة الإسلامية (٢/ ١٠٨).

١٣- تعظيم المسجد:

بكل أنواع التعظيم فلا يتكلم فيه بصوت عال، ولا يجلس علىٰ هيئة المستهين بالمكان، ولا يضحك ويقهقه فيه، ولا يفرقع بين أصابعه، وألا يحمل في المسجد سلاحا، إلا لما فيه مصلحة وأن ينزه المسجد عن القاذورات والنجاسات. فلا يبصق ولا يتنخم.. الخ.

وهذه من تعظيم حرمات الله تعالىٰ، قال الله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾﴾ [سورة الحج ٣٢] ولما ورد من النهي عن ذلك[١].

ولا بأس من الكلام في أمور الدنيا المباحة في المسجد للحاجة، ولكن لا يكون ذلك دائما، ولا يكون فيه أذية للموجودين في المسجد، وأن يكون الكلام قليلًا، مع الحذر من رفع الصوت والكلام المحرم.

ولا بأس أيضا من الأكل والشرب وقول الشعر في المسجد، ولكن المهم ألا يكون ذلك مدعاة لامتهان المسجد، وهذه الأمور ورد أنها قد وقعت من رسول الله ﷺ، أو وقعت من الصحابة ولم ينكر عليهم رسول الله ﷺ.

١٤- أن لا يتخطىٰ الرقاب:

فلا يجوز للمسلم أن يتخطىٰ الرقاب من أجل الوصول للصف الأول، لأن هذا يؤذي المصلين وقد قال رسول الله ﷺ لمن فعلها: «**اجلس فقد آذيت**»[٢].

---

(١) أخرجه البخاري كتاب الصلاة باب حك البزاق باليد من المسجد (٣٩٧)، ومسلم كتاب المساجد باب النهي عن البصاق في المسجد (٥٥١).

(٢) أخرجه أبوداود كتاب الصلاة باب تخطي رقاب الناس يوم الجمعة (١١١٨)، صححه الألباني في صحيح أبي داود، وأخرجه الحاكم في المستدرك (١/ ٤٢٤) (١٠٦١)، وقال صحيح علىٰ شرط مسلم ولم يخرجاه.

١٥- ألا يضيق علىٰ أحد في الصف:

ولا أن يضيق علىٰ إخوانه المصلين في الصف بل عليه أن يصلىٰ حيث اتسع به المكان وانتهىٰ به المجلس. وألا ينازع أحدًا في المكان، وأن لا يحجز المكان لقوله ﷺ: «**لا يقيمن أحدكم أخاه يوم الجمعة ثم يخالف إلىٰ مقعده، ولكن يقول أفسحوا**»[(١)]. وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «**نهىٰ رسول الله ﷺ أن يُقيم الرجل أخاه من مقعده ويجلس فيه**»[(٢)].

وعن جابر بن سمرة قال: «**كنَّا إذا أتينا النبي ﷺ جلس أحدنا حيث ينتهي**»[(٣)].

١٦- ولا يمر بين أيدي المصلين:

قال رسول الله ﷺ: «**لو يعلم المار بين يدي المصلي ماذا عليه لكان أن يقف أربعين خيرا له من أن يمر بين يديه**» قال الراوي: لا أدري قال أربعين يوما أو أربعين شهرًا، أو أربعين سنة»[(٤)].

١٧- القيام بإزالة الأذىٰ من المسجد:

عن أنس بن مالكٍ قال قال رسول الله ﷺ: «**عُرِضت عليَّ أجور أمَّتي حتَّىٰ القَذَاة يُخرجُها الرَّجُلُ من المسجِدِ**»[(٥)]، قال ابن رجب: «وكنس المساجد وإزالة الأذىٰ عنها

---

(١) أخرجه مسلم كتاب السلام باب إذا قام من مجلسه ثم عاد فهو أحق به (٢١٧٨).
(٢) أخرجه البخاري كتاب الجمعة باب لا يقيم الرجل أخاه يوم الجمعة ويقعد في مكانه (٩١١).
(٣) أخرجه أبو داود كتاب الأدب باب في التحلق (٤٨٢٥)، وصححه الألباني في كتاب العلم (٤٢).
(٤) أخرجه البخاري كتاب الصلاة باب إثم المار بين يدي المصلي (٥١٠). ومسلم كتاب الصلاة باب سترة المصلي (٥٠٧).
(٥) أخرجه ابن أبي داود كتاب الصلاة والسير باب في كنس المسجد (٣٩٠). والترمذي كتاب فضائل القرآن باب ما جاء فيمن قرأ حرفًا (٢٨٤٠)، وقال: «هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه قال وذاكرت به محمد بن إسماعيل فلم يعرفه، واستغربه». وضعَّفه الألباني: ضعيف الجامع الصغير (٣٧٠٠)، والمشكاة (٧٢٠)، وضعيف سنن الترمذي (٥٥٨/ ٣٠٩٥).

فعلٌ شريفٌ، لا يأنفُ منه من يعلم آداب الشريعة، وخصوصًا المساجد الفاضلة»(١).

ورغب في إماطة الأذىٰ عامَّةً قال رسول الله ﷺ: «**وإماطة الأذىٰ عن الطريق صدقة**»(٢)، هذا في خارج المسجد، فما بالك بداخل المسجد ماذا يكون الأجر.

وقد بوب البخاري بابًا بعنوان: «باب كنس المسجد والتقاط الخِرَق والعيدان»، وذكر حديث المرأة السوداء التي كانت **تَقُمُّ**(٣) **المسجد** علىٰ عهد رسول الله- أو شابًا- ففقدها رسول الله ﷺ، فسأل عنها -أو عنه- فقالوا: مات. قال: «**أفلا كنتم آذنتموني؟**» قال: فكأنهم صغَّرُوا أمرها- أو أمره- فقال: «**دلوني علىٰ قبره؟**»، فدلوه فصلَّىٰ عليها، ثم قال: «**إن هذه القبور مملوءة ظلمةً علىٰ أهلها، وإن الله عَزَّوَجَلَّ ينوِّرُها لهم بصلاتي عليهم**»(٤)، قال ابن حجر تعليقًا علىٰ الحديث: «فيؤخذ من ذلك الترغيب في تنظيف المسجد»(٥).

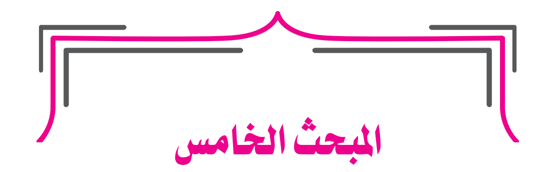
١٨- انتظار خروج النساء من المسجد:

وكان هذا فعل رسول الله ﷺ، فعن أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: «إن النساء في عهد رسول الله ﷺ كن إذا سلَّمْن من المكتوبةِ قُمْنَ، وثبت رسول الله ﷺ ومن صلىٰ من الرجال ما شاء الله، فإذا قام رسول الله ﷺ قام الرجال»(٦).



---

(١) فتح الباري لابن رجب (٢/ ٢٦١) عند حديث (٤٥٨).
(٢) أخرجه البخاري كتاب الجهاد والسير باب من اخذ بالركاب ونحوه (٢٩٨٩)، ومسلم كتاب الزكاة باب اسم الصدقة يقع علىٰ كل نوع من المعروف (١٠٠٩).
(٣) تقم: أي تجمع القمامة وهي الكناسة فتح الباري (١/ ٥٥٣).
(٤) أخرجه البخاري كتاب المساجد باب كنس المسجد والتقاط الخرق والعيدان (٤٤٨)، ومسلم كتاب الصلة باب الصلاة علىٰ القبر (٩٥٦).
(٥) فتح الباري (١/ ٥٥٣).
(٦) أخرجه البخاري كتاب الصلاة باب انتظار الناس قيام الإمام العالم (٨٢٨) و(٨٠٢، ٨١٢، ٨٣٢).



المبحث الخامس

تنبيهات خاصة لحضور النساء للمساجد

١- لا تمنع المرأة من شهود المساجد:

ولا ينبغي منعها منه، ما دامت أنها لم ترتكب محظورًا شرعيًا، فعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن النبي ﷺ أنه قال: «**إذا استأذنت امرأة أحدكم إلىٰ المسجد فلا يمنعها**»(١). وعنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تمنعوا إماء الله مساجد الله**»(٢).

ولكن صلاة المرأة في بيتها أفضل من صلاتها في المسجد لقوله ﷺ: «**لأن تصلي المرأة في بيتها خير لها من أن تصلي في حجرتها، ولأن تصلي في حجرتها خير لها من أن تصلي في الدار، ولأن تصلي في الدار خير لها من أن تصلي في المسجد**»(٣)، وذلك حتىٰ في الحرمين الشريفين؛ لأن هذه الأحاديث إنما كانت بالمدينة حيث مسجده ﷺ، وجاء لفظه صريحًا في رواية: عبدالله بن سويد الأنصاري، عن عمته، امرأة أبي حميد الساعدي أنها جاءت النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله ﷺ، إني أحب الصلاة معك، فقال: «**قد علمت أنك تحبين الصلاة معي، وصلاتك في بيتك خير من صلاتك في حجرتك، وصلاتك في حجرتك خير من صلاتك في دارك، وصلاتك في دارك خير من صلاتك في**

(١) أخرجه البخاري كتاب الأذان باب استئذان المرأة زوجها بالخروج إلىٰ المسجد (٥٢٣٨). ومسلم كتاب الصلاة باب خروج النساء إلىٰ المساجد (٤٤٢).

(٢) أخرجه البخاري كتاب الجمعة باب (١٣)، (٩٠٠). ومسلم كتاب الصلاة باب خروج النساء إلىٰ المساجد (٤٤٢).

(٣) البيهقي في السنن الكبرىٰ (٣/ ١٣٢) (٥١٤٨)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٥٠٣٩)، والصحيحة (٢١٤٢).

مسجد قومك، وصلاتك في مسجد قومك خير من صلاتك في مسجدي»[١]. وهذا دليلٌ علىٰ أن صلاة المرأة في بيتها أفضل من صلاتها في المسجد النبوي الشريف.

٢- أن لا تتطيب أو تتزين بما يظهر لونه أو ريحه، ويجلب النظر:

فقد ورد أن زينب امرأة عبدالله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: قال لنا رسول الله ﷺ: «**إذا شهدت إحداكن المسجد فلا تمس طيبا**»[٢]، وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «**أَيُّمَا امرأةٍ تطيبت ثم خرجت إلىٰ المسجد لم تُقبل لها صلاةٌ حتىٰ تغتسل**»[٣].

٣- لا تدخل الحائض والنفساء المسجد:

قال تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغۡتَسِلُواْ ﴾ [سورة النساء ٤٣].

فلا يجوز للحائض ولا والنفساء ولا الجنب أن يدخلوا المسجد وذلك لما روته عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: قال لي رسول الله ﷺ: «**ناوليني الخمرة من المسجد**»، قالت: فقلت إني حائض؟ فقال: «**إن حيضتك ليست في يدك**»[٤].. فقول عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا إني حائض دليل علىٰ أن الحائض لا تدخل المسجد.

٤- الصلاة خلف الرجال وعدم الاختلاط بهم:

فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**خير صفوف الرجال أولها وشرها**

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٢٧٠٩٠)، وابن خزيمة في صحيحه (١٦٨٩-١٦٩٠)، وابن حبان (٢٢١٧). وحسنه الأرنؤوط عند أحمد وابن حبان.

(٢) أخرجه مسلم كتاب الصلاة باب خروج النساء إلىٰ المساجد (٤٤٣).

(٣) أخرجه ابن ماجه كتاب الفتن باب فتنة النساء (٤٠٠٢)، وصححه الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في صحيح ابن ماجه (٣٢٣٣).

(٤) أخرجه مسلم كتاب الحيض باب جواز غسل الحائض رأس زوجها وترجله وطاهرة سؤرها والاتكاء في حجرها وقراءة القرآن فيه (٢٩٧).

آخرها، وخير صفوف النساء آخرها وشرها أولها»(١).

قال النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أمَّا صفوف الرجال فهي علىٰ عمومها فخيرها أولها أبدًا، وشرها آخرها أبدًا، أما صفوف النساء فالمراد بالحديث صفوف النساء اللواتي يصلين مع الرجال، وأما إذا صلين متميزات لا مع الرجال فهن كالرجال، خير صفوفهن أولها وشرها آخرها، والمراد بشر الصفوف في الرجال النساء: أقلُّها ثوابا وفضلا، وأبعدها من مطلوب الشرع، وخيرها بعكسه، وإنما فُضِّل آخر صفوف النساء الحاضرات مع الرجال: لبعدهن من مخالطة الرجال، ورؤيتهم، وتعلق القلب بهم عند رؤية حركاتهم، وسماع كلامهم ونحو ذلك، وذَمُّ أول صفوفهن لعكس ذلك. والله أعلم»(٢).

٥- خروجهن من المسجد:

علىٰ النساء أن لا يتأخرن في مصلاهن بعد انصراف الإمام، بل يخرجن سريعًا وينقلبن إلىٰ بيوتهن، ذلك خيرٌ لهن، لحديث أم سلمة المتقدم حيث أن رسول الله وأصحابه كانوا ينتظرون خروج النساء، ثم يخرجون هم. وذلك لمنع الاختلاط بالرجال.

٦- تصفيقهن إذا نابهن شيء:

قال رسول الله ﷺ: **«من نابه شيء في صلاته فليسبح فإنه إذا سبح التفت إليه، وإنما التصفيق للنساء»**(٣).

(١) أخرجه مسلم كتاب الصلاة باب تسوية وإقامتها وفضل الأول فالأول منها، والازدحام علىٰ الصف (٤٤٠).

(٢) شرح النووي علىٰ صحيح مسلم (٤/ ١٥٩) والمجموع (٤/ ٣٠١).

(٣) أخرجه البخاري كتاب الصلاة باب من دخل ليؤم الناس فجاء الإمام الأول فتأخر الآخر أو لم يتأخر جازت صلاته (٦٥٢).

٧- سيرهن في الطريق إلىٰ المسجد:

ومن حرص الشرع علىٰ تميز النساء عن الرجال وقطع كل طريق يؤدي إلىٰ الفتنة بهن، أن جعل حافة الطريق للنساء وأوسطه للرجال حتىٰ لا يختلط الرجال والنساء وتعظم الفتنة، فعن أبي أسيد الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول - وهو خارج من المسجد فاختلط الرجال مع النساء في الطريق - فقال رسول الله ﷺ: «**استأخرن فإنه ليس لكن أن تحققن الطريق**[1] **عليكن بحافة الطريق**»، فكانت المرأة تلتصق بالجدار حتىٰ إن ثوبها ليتعلق بالجدار من لصوقها به»[2].

٨- الالتزام بالحجاب الشرعي:

الذي يتصف بالساتر، ويكون غير ملفتٍ للنظر عند الذهاب للمسجد وغير المسجد، فعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: «كان رسول الله يصلىٰ الفجر، فيشهد معه نساء من المؤمنات متلفِّعَاتٍ بمروطهنَّ، ثم يخرجن إلىٰ بيوتهنَّ ما يعرفهنَّ أحدٌ من الغَلَس»[3]، متفق عليه.



(١) أن تحققن الطريق: وهو أن يركبن حُقَّها وهو وسطها، عون المعبود (١٤/ ١٢٧).
(٢) أخرجه أبو داود كتاب الأدب باب في مشي النساء مع الرجال في الطريق (٥٢٧٢)، وحسنه الألباني. وابن حبان في صحيحه (٥٦٠١)، والطبراني في الكبير (١٩/ ٢٦١) (٥٨٠)، والبيهقي في شعب الإيمان (٦/ ١٧٣) (٧٨٢٢).
(٣) أخرجه مسلم كتاب المساجد ومواضع الصلاة باب استحباب التبكير بالصبح في أول وقتها رقم (٦٤٥).

المبحث السادس

أثر المسجد على الفرد والمجتمع الإسلامي

ولا شك أن ما سبق بيانه من أحكام يدلنا علىٰ عظم أثر المسجد علىٰ الفرد والمجتمع الإسلامي، والآثار كثيرة جدًا ونجمل أهمها فيما يلي:

١- وجود جيل من المسلمين يرتبطون ارتباطا وثيقا بالله عن طريق تعلق قلوبهم بالمساجد.

٢- وجود جيل قادر علىٰ تفعيل دور المسجد في جميع شؤون الحياة العامة.

٣- تكوين طبقة من طلبة العلم الشرعي المؤصل من الكتاب والسنة مع الفهم الشامل الواسع لمفهوم الإسلام - عبادةً وشريعةً وأخلاقًا.

٤- عدم حصر شعائر الإسلام في المسجد فقط، لأنه قد تربىٰ في المسجد أناس علىٰ تطبيق ما تعلموه واقعا سلوكيا بين الناس، فقد تربوا علىٰ الصدق والأمانة والإتقان والإخلاص والجدية والإيجابية، والسمع والطاعة في المعروف، وغيرها من الأخلاق الفاضلة، وبناء علىٰ تلك التربية فهم سينقلونها إلىٰ واقع عملي بين كل الناس في جميع المجالات.

٥- ربط الناس كلهم بالمسجد عن طريق الخدمات الاجتماعية التي يقدمها المسجد للناس مثل: كفالة الأيتام، دروس التقوية المجانية للمواد الدراسية، الحملات الطبية، الرعاية للفقراء وأصحاب الدخل المحدود،..... وغيرها من الخدمات التي يحتاجها الناس اليوم.

٦- اجتماع الناس في الأعياد والمناسبات الشرعية: كالعيدين، وعقد الزواج، والعقيقة، وإفطار الصائمين، والحفلات التي تقام لتكريم حفظة كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وطلب العلم والفقه.. له أثر في ارتباط الناس بالمسجد وبالتالي ارتباطهم بالله تعالىٰ، مع المحافظة علىٰ الآداب الشرعية وحرمة المسجد.

هذه بعض الآثار العامة علىٰ الفرد والمجتمع إذا حصل الارتباط بالمسجد، فعلىٰ أصحاب الدعوة البداية من المسجد، وربط المدعوين بالمسجد، وتحويل التربية المتلقاة في المسجد إلىٰ واقع سلوكي بين الناس يلفت انتباه الناس إلىٰ دور المسجد في التغير[١].



(١) للاستزادة يمكن الرجوع علىٰ كتاب: كيف نعيد للمسجد مكانته - للدكتور محمد أحمد لوح.

الفصل الثالث

النظر في آيات الله

قال الله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٤٤﴾ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾ لَّقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾﴾.

«هذه آيات كريمات تجمعها صفة واحدة، وهي أنها أنوار هادية تضيء للمؤمنين صراط التوحيد، وتملأ القلوب بأنوار الإيمان وتبرهن لهم حقيقة التوحيد الكبرىٰ، عن طريق النظر المتدبر لآيات الله ومخلوقاته ليعرفوا ربهم ويعبدوه علىٰ علم وبصيرة»[(١)].

ففي هذه الآيات الكريمات يلفت الله ﷻ أنظار عباده إلىٰ عدة مشاهد يذكرهم بها بنعمته عليهم، ووجوب عبادته سبحانه والتفكر في خلقه.

فالمشهد الأول: مشهد الطير وهي تصفُّ أجحنتها، وتطير في الفضاء وتسبح بحمد الله تعالىٰ.

والمشهد الثاني: مشهد سوق السحاب قطعًا متفرقة، ثم تأليفها؛ ليحصل بها الانتفاع بالمطر دون ضرر.

---

(١) من لطائف التفسير (٢/ ٤٣٩).

والمشهد الثالث: مشهد تصريف الليل والنهار، بالمعاقبة بينهما، وزيادة أحدهما ونقص الآخر، وتنوع أجوائهما ... إلخ.

والمشهد الرابع: كيف خلق الله الدواب في الأرض؟ ولم خلقها؟ وعلىٰ أي صورة خلقها؟

ثم بيان الحكمة من الآيات المشاهدة للإنسان، وفي ثنايا ذلك التذكير بالرجوع إلىٰ الله.

واعلم أنه سبحانه لما وصف أنوار قلوب المؤمنين وظلمات قلوب الجاهلين أتبع ذلك بدلائل التوحيد التي ذكرها في هذه الآيات، وبيان ذلك علىٰ سبيل الإيجاز والاختصار في ستة مباحث:

المبحث الأول: تسبيح المخلوقات لله.

المبحث الثاني: التذكير بالرجوع إلىٰ الله.

المبحث الثالث: السماء والسحاب وما فيهما.

المبحث الرابع: الليل والنهار وتقليبهما.

المبحث الخامس: الدواب خلقها وسعيها.

المبحث السادس: الحكمة من الآيات والمشاهد.

المبحث الأول
تسبيح المخلوقات لله

قال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾﴾؛ ينبه الله سبحانه عباده بأن جميع الخلق يسبحونه ﷻ علىٰ الكيفية التي سخرهم الله لها، بل حتىٰ السماوات والأرض أتيتا طائعتين لله تعالىٰ خاضعتين له بخلاف المكلفين من الجن والإنس فقد جاؤوا مكرهين، وكثير منهم مطيع لله مأجور علىٰ عمله؛ وكثير منهم لا ينفعهم - فهم عبادٌ قَدَرًا وليس اختيارًا منهم وانقيادًا وخضوعًا، ولذا فهم معاقبون علىٰ اختيارهم وفعلهم لأنهم قد بلغوا وأنذروا، وهذه الآية لها شواهد كثيرة في هذا المعني قال تعالىٰ: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾ [سورة الإسراء ٤٤].

وقال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿١٨﴾﴾ [سورة الحج ١٨]، والآيات في هذا المعنىٰ كثيرة جدًا في القرآن الحكيم.

«المراد ألم تعلم لأن التسبيح لا تتناوله الرؤية بالبصر ويتناوله العلم بالقلب.

وهذا الكلام وإن كان ظاهره استفهاما فالمراد التقرير والبيان.

فنبه تعالىٰ علىٰ ما يلزم من تعظيمه بأن من في السموات يسبح له، وكذلك من في الأرض»[١].

(١) التفسير الكبير - الرازي (٢٤/ ٤٠١).

«والخطاب في قوله: ألم تر للنبيء ﷺ. والمراد من يبلغ إليه، أو الخطاب لغير معين فيعم كل مخاطب كما هو الشأن في أمثاله»[١].

فالمتأمل في الآيات يجد أن كل هذا الكون المسخر للإنسان يسبح لله تعالىٰ بكل أصنافه وأعداده، ولكن الإنسان هو الكائن الوحيد الذي شَذَّ عن هذه القاعدة فقال تعالىٰ: ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾، وذلك لأنهم نسوا اليوم الآخر كما قال تعالىٰ ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾﴾ [سورة الحج ٦٦].

يلفت الله سبحانه وتعالى الانتباه إلىٰ نوع من خلقه سبحانه، ممن نراهم دائما يحلقون في سمائه في منظر يلفت الأنظار المؤمنة التي لا يمر عليها مثل ذلك المشهد إلا وهي متذكرة لله تعالىٰ.

يلفت الله أنظارنا إلىٰ مشهد الطير وهي تصف أجنحتها وهي تطير في الفضاء تسبح بحمد الله تعالىٰ: ﴿وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ﴾ [سورة النور ٤١] أي: «كلٌّ من هذه المخلوقات أرشده الله إلىٰ طريقته ومسلكه في عبادة الله»[٢].

«والصافات من صفات الطير يراد به صفهن أجنحتهن في الهواء حين الطيران.

وتخصيص الطير بالذكر من بين المخلوقات للمقابلة بين مخلوقات الأرض والسماء بذكر مخلوقات في الجو بين السماء والأرض ولذلك قيدت ب صافات.

وفعل ﴿عَلِمَ﴾ مراد به المعرفة لظهور الفرق بين علم العقلاء بصلاتهم، وعلم الطير بتسبيحها فإن الثاني مجرد شعور وقصد للعمل.

وضمائر ﴿عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ﴾ راجعة إلىٰ ﴿كُلٌّ﴾ لا محالة»[٣].

---

(١) التحرير والتنوير (١٨/ ٢٥٨).
(٢) تفسير القرآن العظيم – ابن كثير (٦/ ٧٢).
(٣) التحرير والتنوير (١٨/ ٢٥٩).

«وجملة: كل قد علم صلاته وتسبيحه استئناف ثان وهو من تمام العبرة إذ أودع الله في جميع أولئك ما به ملازمتهم لما فطروا عليه من تعظيم الله وتنزيهه»[1].

«﴿كُلٌّ﴾ من هذه المخلوقات ﴿قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ﴾ أي: كل له صلاة وعبادة بحسب حاله اللائقة به، وقد ألهمه الله تلك الصلاة والتسبيح، إما بواسطة الرسل، كالجن والإنس والملائكة، وإما بإلهام منه تعالىٰ، كسائر المخلوقات غير ذلك، وهذا الاحتمال أرجح، بدليل قوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾﴾ أي: علم جميع أفعالها، فلم يخف عليه منها شيء، وسيجازيهم بذلك، فيكون علىٰ هذا، قد جمع بين علمه بأعمالها- وذلك بتعليمه- وبين علمه بأعمالهم المتضمن للجزاء.

ويحتمل أن الضمير في قوله: ﴿قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ﴾ يعود إلىٰ الله، وأن الله تعالىٰ قد علم عباداتهم، وإن لم تعلموا -أيها العباد- منها، إلا ما أطلعكم الله عليه»[2].

ثم عقب الله تعالىٰ علىٰ هذا المشهد بقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾﴾ أي: «إن الله تعالىٰ جَلَّ جَلَالُهُ عليم بكل ما يفعله عباده من تسبيح وتقديس بل ومن تقصير ومعصية، أليس هو الذي يملك السماوات والأرض؟، وإليه مصير من في السماوات والأرض؟ وما دام كذلك فلا غروا أن تَعْنوا له الوجوه وتُعَفَّرَ بين يديه الجباه ويُسبِحُ بحمده كل شيء وتَسجدُ له الخلائق وظلها»[3].

التسبيح لغة: «مصدر سبّح وهو مأخوذ من مادّة (س ب ح) الّتي تدور حول معنيين: الأوّل: جنس من العبادة والاخر جنس من السّعي»[4].

ومن هذا الباب: التّسبيح وهو تنزيه الله- جلّ ثناؤه- من كلّ سوء، والتّنزيه التّبعيد والعرب تقول: سبحان من كذا، أي ما أبعده.

(١) التحرير والتنوير (١٨/ ٢٥٨).
(٢) تيسير الكريم الرحمن- السعدي (٥٧٠).
(٣) من لطائف التفسير (٢/ ٤٤١).
(٤) مقاييس اللغة (٣/ ١٢٥)، واللسان (٢/ ٤٧٢).

سبحان الله: معناه تنزيها لله من الصّاحبة والولد، وقيل: تنزيه الله تعالىٰ عن كلّ ما لا ينبغي له أن يوصف به، قال: ونصبه أنّه في موضع فعل علىٰ معنىٰ تسبيحا له، تقول: سبّحت الله تسبيحا أي نزّهته تنزيها، قال: وكذلك روي عن النّبيّ ﷺ، وقال الزّجّاج في قوله تعالىٰ: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾، قال: منصوب علىٰ المصدر، المعنىٰ أسبّح الله تسبيحا.

وسبّح الرّجل: قال سبحان الله، وفي التّنزيل: ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ﴾.

واصطلاحا «قال ابن حجر: التّسبيح يعني قول سبحان الله، ومعناه: تنزيه الله عمّا لا يليق به من كلّ نقص، فيلزم نفي الشّريك والصّاحبة والولد وجميع الرّذائل.

ويطلق التّسبيح ويراد به جميع ألفاظ الذّكر، وجماع معناه. وقال الجرجانيّ: التّسبيح تنزيه الحقّ عن نقائص الإمكان والحدوث»[1].

والآيات تعرض «بعض أدلة وجود الله وتوحيده وقدرته، **أولها: تسبيح المخلوقات.**

والمعنىٰ: ألم تعلم بالدليل الواضح أيها النبي وكل مخاطب أن الله ينزهه ويقدسه كل من في السماوات والأرض، من العقلاء وغيرهم، من الملائكة والإنس والجن والجمادات، والطير باسطات قابضات أجنحتها حال طيرانها في جو السماء كيلا تسقط. والجمهور علىٰ أن تسبيح الطير والجمادات تسبيح حقيقي، ويراد به التعظيم والتقديس، وذلك بأسلوب يتفق مع طبيعة هذه المخلوقات، وكل واحد مما ذكر ﴿قَدْ عَلِمَ﴾ الله ﴿صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ﴾، أي أرشده إلىٰ طريقته ومسلكه في عبادة الله عَزَّوَجَلَّ، والله تام العلم بجميع ذلك، ولا يخفىٰ عليه شيء من أفعالهم، وهو مجازيهم عليها.

(١) فتح الباري (١١/ ٢١٠)، والتعريفات للجرجاني (٥٨).

والله تعالىٰ مالك جميع ما في السماوات والأرض، وهو الحاكم المتصرف فيهما، بالخلق والإماتة، وإليه وحده مصير الخلائق ومعادهم يوم القيامة»[(١)].

«تسبيح الله هو حيثية الإيمان به كإله، والتسبيح: هو التنزيه، وهذا ثابت لله تعالىٰ قبل أن يوجد منْ خَلْقه مَنْ يُنزِّهه، والحق سبحانه مُنزَّه بذاته والصفة كائنة له قبل أن يخلق الخلق؛ فصفات الكمال في الله تعالىٰ موجودة قبل وجود الخَلْق.

لذلك فإن المتتبع لهذه المادة في القرآن الكريم مادة (سبح) يجدها بلفظ (سُبْحان) في أول الإسراء: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ﴾ [الإسراء: ١]، ومعناها أن التنزيه ثابت لله تعالىٰ قبل أن يخلق من ينزهه.

ثم بلفظ: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الحديد: ١]، بصيغة الماضي، والتسبيح لا يكون من الإنسان فقط، بل من السماوات والأرض، وهي خَلْق سابق للإنسان.

ثم يأتي بلفظ: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الجمعة: ١]، بصيغة المضارع؛ ليدل علىٰ أن تسبيح الله ليس في الماضي، بل ومستمر في المستقبل لا ينقطع. إذن: ما دام التسبيح والتنزيه ثابتًا لله تعالىٰ قبل أن يخلق مَنْ يُنزِّهه، وثابتًا لله من جميع مخلوقاته في السماوات والأرض، فلا تكُنْ أيها الإنسان نشازًا في منظومة الكون، ولا تخرج عن هذا! بل ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ١﴾ [الأعلىٰ: ١].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ﴾ [الإسراء: ٤٤] أي: ما من شيء، كل ما يُقال له شيء. والشيء هو جنس الأجناس، فالمعنىٰ أن كل ما في الوجود يُسبِّح بحمده تعالىٰ.

قال العلماء: أي تسبيح دلالة علىٰ عظمة التكوين، وهندسة البناء، وحكمة الخلق، وهذا يلفتنا إلىٰ أن الله تعالىٰ مُنزَّه ومُتعَالٍ وقادر، ولكنهم فهموا التسبيح علىٰ أنه تسبيح دلالة فقط؛ لأنهم لم يسمعوا هذا التسبيح ولم يفهموه.

---

(١) التفسير الوسيط للزحيلي (٢/ ١٧٥٩).

وقد أخرجنا الحق سبحانه وتعالى من هذه المسألة بقوله: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾.

إذن: يوجد تسبيح دلالة فعلًا، لكنه ليس هو المقصود، المقصود هنا التسبيح الحقيقي كُلٌّ بِلُغتِه.

فقوله تعالىٰ: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ يدل علىٰ أنه تسبيح فوق تسبيح الدلالة الذين آمن بمقتضاه المؤمنون، إنه تسبيح حقيقيّ ذاتيّ ينشأ بلغة كل جنس من الأجناس، وإذا كنا لا نفقه هذا التسبيح، فقد قال تعالىٰ: ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ [النور: ٤١].

كُلُّ شيءٍ في الوجود عَلِم كيف يُصلّي لله، وكيف يُسبِّح لله، وفي القرآن آياتٌ تدل بمقالها ورمزيتها علىٰ أن كل عَالَمٍ في الوجود له لغةٌ يتفاهم بها في ذاته، وقد يتسامىٰ الجنس الأعلىٰ ليفهم عن الجنس الأدنىٰ لُغته، فكيف نستبعد وجود هذه اللغة لمجرد أننا لا نفهمها؟

فإذا لم يسمع الإنسان اللفظ لا يستطيع أن يتحدثَ به؛ لأن ما تسمعه الأذن يحكيه اللسان، فبالسماع انتقلتْ اللغة، وكُلٌّ سمع من أبيه، ومن البيئة التي يعيش فيها، فإذا ما سلسلْتَ هذه المسألة ستصل إلىٰ آدم عليه السلام وهنا يأتي السؤال: وممَّنْ سمع آدم اللغة التي تكلم بها؟ وقد بيَّن لنا القرآن الكريم هذه القضية في قوله تعالىٰ: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١].

فكيف نستبعد أننا لا نعلم لغة المخلوقات الأخرىٰ من حيوان ونبات وجماد؟ ألم يكْفِنا ما أخبرنا الله به من وجود لغة لجميع المخلوقات، وإنْ كنا لا نفهمها؛ لأننا نعتقد أن اللغة هي النطق باللسان فقط، ولكن اللغة أوسع من ذلك. وهناك: لغة الإشارة، ولغة النظرات، ولغة التلغراف..

فاللغة ليست اللسان فقط! بل هي استعدادٌ لاصطلاحٍ يُفْهم ويُتعارف عليه، فالخادم مثلًا يكفي أن ينظرَ إليه سيّده نظرة يفهم منها ما يريد، فهذه النظرة لَوْنٌ من ألوان الأداء.

وقد أعطانا الحق تبارك وتعالىٰ إشارات تدل علىٰ أن لكل عَالَمٍ لغةً يتفاهم بها، كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَسَخَّرۡنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلۡجِبَالَ يُسَبِّحۡنَ وَٱلطَّيۡرَۚ﴾ [الأنبياء: ٧٩]، فالجبال تُسبّح مع داود، وتُسبِح مع غيره، ولكن المراد هنا أنها تُسبّح معه ويوافق تسبيحها تسبيحه، وكأنهما في أنشودة جماعية منسجمة. فلا بُدَّ أن داود عَلَيْهِ السَّلَامُ قد فَهِم عنها وفهمتْ عنه.

وكذلك النملة التي تكلمتْ أمام سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ ففهم كلامها، وتبسَّم ضاحكًا من قولها. وقد علَّمه الله منطقَ الطير. فلكل جنس من الأجناس منطقٌ يُسبّح الله به، ولكن لا نفقه هذا التسبيح؛ لأنه تسبيح بلغة مُؤدِّية مُعبّرة يتفاهم بها مَنْ عرف التواضع عليها.

وقد جعل الحق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ تنزيهه مطلقًا ينقاد له الجميع، حتىٰ الكافر ينقاد لتنزيه الله قَهْرًا عنه، مع أن لديه ملكةَ الاختيار بين الكفر أو الإيمان، لكن أراد الحق سبحانه أن يكون تنزيهه مُطْلقًا من الجماد والنبات والحيوان، ومن المؤمن والكافر»[1].

تسبيح المخلوقات:

أمّا قوله تعالىٰ: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ٤٤﴾، قال أبو إسحق: قيل إنّ كلّ ما خلق الله يسبّح بحمده، وإنّ صرير السّقف، وصرير الباب من التّسبيح، فيكون علىٰ هذا الخطاب للمشركين وحدهم: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ﴾، وجائز أن يكون تسبيح هذه الأشياء بما الله به أعلم لا نفقه منه إلّا ما علّمناه، قال: وقال قوم ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ﴾: أي ما

(١) ينظر: تفسير الشعراوي (٢٠٥٧)، باختصار.

من دابّة إلّا وفيه دليل أنّ الله عَزَّوَجَلَّ خالقه وأنّ خالقه حكيم مبرّأ من الأسواء ولكنّكم، أيّها الكفّار، لا تفقهون أثر الصّنعة في هذه المخلوقات، قال أبو إسحاق: وليس هذا بشيء؛ لأنّ الّذين خوطبوا بهذا كانوا مقرّين أنّ الله خالقهم وخالق السّماء والأرض ومن فيهنّ، فكيف يجهلون الخلقة وهم عارفون بها؟. قال الأزهريّ: وممّا يدلّك علىٰ أنّ تسبيح هذه المخلوقات تسبيح تعبّدت به قول الله عَزَّوَجَلَّ للجبال: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَٱلطَّيۡرَ﴾ [سبأ: ١٠]، ومعنىٰ أوّبي سبّحي مع داود النّهار كلّه إلىٰ اللّيل، ولا يجوز أن يكون معنىٰ أمر الله عَزَّوَجَلَّ للجبال بالتّأويب إلّا تعبّدا لها، وكذلك قوله تعالىٰ: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسۡجُدُۤ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلۡجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٞ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: ١٨]، فسجود هذه المخلوقات عبادة منها لخالقها لا نفقهها عنها كما لا نفقه تسبيحها، وكذلك قوله: ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلۡحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنۡهُ ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخۡرُجُ مِنۡهُ ٱلۡمَآءُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَهۡبِطُ مِنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٤]، وقد علم الله هبوطها من خشيته ولم يعرّفنا ذلك فنحن نؤمن بما أعلمنا، ولا ندّعي بما لا نكلّف بأفهامنا من علم فعلها كيفيّة نحدّها»[١].

«واعلم أنه إما أن يكون المراد من التسبيح دلالة هذه الأشياء علىٰ كونه تعالىٰ منزها عن النقائص موصوفا بنعوت الجلال، وإما أن يكون المراد منه أنها تنطق بالتسبيح وتتكلم به، وإما أن يكون المراد منه في حق البعض الدلالة علىٰ التنزيه وفي حق الباقين النطق باللسان، والقسم الأول أقرب لأن القسم الثاني متعذر، لأن في الأرض من لا يكون مكلفا لا يسبح بهذا المعنىٰ، والمكلفون منهم من لا يسبح أيضا بهذا المعنىٰ كالكفار»[٢].

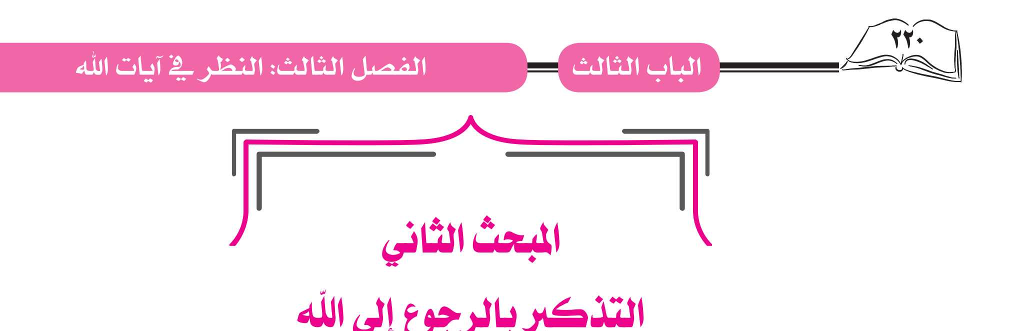
---

(١) نضرة النعيم (٣/ ٩٨٠).
(٢) التفسير الكبير - الرازي (٢٤/ ٤٠١).

«وجملة: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ ٤١﴾ تذييل، وهو إعلام بسعة علم الله تعالىٰ الشامل للتسبيح وغيره من الأحوال، والإتيان بضمير جمع العقلاء تغليب»[(١)].



(١) التحرير والتنوير (١٨/ ٢٥٩).



المبحث الثاني
التذكير بالرجوع إلى الله

ثم عقب الله تعالىٰ علىٰ هذا المشهد بقوله: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾﴾ أي: «والله تعالىٰ مالك جميع ما في السماوات والأرض، وهو الحاكم المتصرف فيهما، بالخلق والإماتة، وإليه وحده مصير الخلائق ومعادهم يوم القيامة»[١].

«أي: هو المالك والمتصرف في الكون، وجميعُ المخلوقات تحت ملكه يتصرف فيهم تصرف القاهر الغالب»[٢].

«تحقيق لما دل عليه الكلام السابق من إعطائه الهدىٰ للعجماوات في شؤونه، وحرمانه إياه فريقا من العقلاء! فلو كان ذلك جاريا علىٰ حسب الاستحقاق لكان هؤلاء أهدىٰ من الطير في شأنهم.

وتقديم المعمولين للاختصاص، أي أن التصرف في العوالم لله لا لغيره.

وفي هذا انتقال إلىٰ دلالة أحوال الموجودات علىٰ تفرد الله تعالىٰ بالخلق»[٣].

«هذه المخلوقات لها علمها الذي تعمل به، وأن لله ﷻ علمه، المحيط بعلمها وعملها جميعا! فقوله تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾﴾ هو تأكيد لعلم الله بعلم المخلوقات، وبعملها.. إذ هو علم متمكن، لأنه علم الخالق لما خلق، ومعرفة المالك لما ملك.. فقد يعلم الإنسان الشيء ولا يملكه ولا يقدر علىٰ التصرف فيه بمقتضىٰ ما يعلم منه.. أما علم الله فهو علم المالك لما ملك، يتصرف فيه كيف

---

(١) التفسير الوسيط للزحيلي (٢/ ١٧٥٩).

(٢) صفوة التفاسير (٢/ ٣١٤).

(٣) التحرير والتنوير (١٨/ ٢٥٩).

يشاء، بما يقضىٰ به علمه، وحكمته، وإرادته»[١].

«فلما بيَّن عبوديتهم وافتقارهم إليه -من جهة العبادة والتوحيد- بين افتقارهم، من جهة الملك والتربية والتدبير فقال: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ خالقهما ورازقهما، والمتصرف فيهما، في حكمه الشرعي والقدري في هذه الدار، وفي حكمه الجزائي، بدار القرار، بدليل قوله: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾﴾ أي: مرجع الخلق ومآلهم، ليجازيهم بأعمالهم»[٢].

«﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾﴾ أي: يوم القيامة، فيحكم فيه بما يشاء؛ ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾﴾ [النجم: ٣١]، فهو الخالق المالك، ألا له الحكم في الدنيا والأخرىٰ، وله الحمد في الأولىٰ والآخرة؟!»[٣]، أي: «وإليه المرجع والمآب، وهو سريع الحساب، وسيجزي كل عامل بعمله، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر»[٤].

«وهو تذكير يتضمن الوعيد»[٥].

«وفي قوله تعالىٰ: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾﴾ تأكيد للملكية، وأنها ملكية لا تخرج عن سلطان المالك أبدا، لا كملكية المالكين لما يملكون، إذ أن كل ما يملكه الإنسان من شيء، هو ذاهب عنه، مقضىٌ عليه بالفراق بينه وبين ما ملك، إما بأن يستهلكه في حياته، وإمّا بأن يموت عنه، ويخلّفه وراءه لمن يرثه من بعده.. أمّا ملكية الله سبحانه وتعالى لهذا الوجود وما فيه، فهو ملك لا يخرج من يد المالك أبدا، مهما تحولت أحواله، وتبدّلت صوره وأشكاله، فالمالكون، وما يملكون صائرون جميعا إلىٰ الله..»[٦]. «وأما قوله:

---

(١) التفسير القرآني للقرآن (٩/ ١٢٩٨).
(٢) تيسير الكريم الرحمن- السعدي (٥٧٠).
(٣) تفسير القرآن العظيم- ابن كثير (٦/ ٧٢).
(٤) تفسير القرآن العظيم- ابن كثير (٦/ ٥٤٢).
(٥) صفوة التفاسير (٢/ ٣١٤).
(٦) التفسير القرآني للقرآن (٩/ ١٢٩٨).

﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ ٤٢﴾ فهو عبارة تامة في معرفة المعاد، وهو أنه لا بد من مصير الكل إليه سبحانه»[1].

«**والخلاصة**: إن عظمة الكون، وإبداع السموات والأرض، وما بثّ اللّه فيهما من كائنات حية وجامدة، وروعة ما نشاهده من تركيب الإنسان، وتنوع عالم الحيوان في البر والبحر والجو، وما يقوم به أضخم الحيوان وأصغره، وتفنّن النحل في بناء البيوت وتكوين العسل، وحيل العناكب الضعيفة في اصطياد الحشرات، وعجائب أعمال الطيور، وتصرف الرّب في المخلوقات إيجادا وإعداما، بدءا وإعادة، كل ذلك دليل قاطع محسوس علىٰ وجود الإله الخالق المبدع، والرّب الواحد المتصرف، الذي لا ربّ سواه، ولا معبود بحق غيره.

هذا أول دليل كوني علىٰ وجود اللّه وقدرته ووحدانيته، وهو شامل لعدة أدلة، كل دليل منها كاف وحده في تكوين القناعة، ويمكن تصنيف ما ذكر في الآيتين الأوليين في دليلين إجماليين: دليل العبودية في العالمين العلوي والسفلي، ودليل الملك المطلق ووحدة مصير الخلائق إلىٰ اللّه تعالىٰ»[2].



(١) التفسير الكبير - الرازي (٢٤/ ٤٠٢).
(٢) التفسير المنير - الزحيلي (١٨/ ٢٧٢).

المبحث الثالث
السماء والسحاب وما فيهما

ثم يأتي المشهد الثاني من مشاهد التفكر في مخلوقات الله تعالىٰ:

فيقول الله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾﴾.

وهذا مشهد أيضا متكرر يذكرنا الله به ويلفت أنظارنا إلىٰ التفكر فيه، وألاّ يمر علينا هكذا مع كثرة الألفة بدون تذكر ولا تدبر، فيقول الله تعالىٰ: «ألم تشاهد ببصرك عظيم قدرة الله تعالىٰ وكيف أنه يسوق السحاب قطعا متفرقة ثم يؤلف بين تلك القطع، فيجعله سحابا متراكما مثل الجبال، فترىٰ المطر يخرج من خلال تلك السحب نقطًا متفرقة ليحصل بها الانتفاع من دون ضرر، فتمتلئ بذلك الغدران، وتتدفق الخلجان وتسيل الأودية، تنبت الأرض من كل زوج كريم»[(١)].

«يذكر تعالىٰ أنه بقدرته يسوق السحاب أول ما ينشئها وهي ضعيفة، وهو الإزجاء: ﴿ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ﴾ أي: يجمعه بعد تفرقه، ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا﴾ أي: متراكما، أي: يركب بعضه بعضا، ﴿فَتَرَى ٱلْوَدْقَ﴾ أي: المطر، ﴿يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾ أي: من خلله.

قال عبيد بن عمير الليثي: يبعث الله المثيرة فتقم الأرض قما، ثم يبعث الله الناشئة فتنشئ السحاب، ثم يبعث الله المؤلفة فتؤلف بينه، ثم يبعث الله اللواقح فتلقح السحاب»[(٢)].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن-السعدي (٥١٩).

(٢) تفسير القرآن العظيم- ابن كثير (٦/ ٧٢) باختصار.

«في هذه الآية عرض محسوس لقدرة الله، بعد هذا العرض غير المحسوس، الذي جاءت به الآية السابقة، من النظر المطلق الشامل للوجود كله، وما قام عليه من نظام..

وفي هذا العرض، إلفات إلىٰ ظاهرة من ظواهر الطبيعة، التي يشهدها الناس جميعا في كل زمان، وكلّ مكان..

فهذه السحب التي تنطلق في مواكب متدافعة في جو السماء، كأنها جيوش غازية، تزحف إلىٰ ميدان القتال، أو تتراكض عائدة من المعركة محملة بالغنائم والأسلاب- هذه السحب: من أنشأها؟ ومن سيرها؟ ومن حدّد لها خط مسيرها؟ ومن وقف بها عند غاية معلومة لها؟

ألا فليعلم من لم يكن يعلم، أن الله ﷻ، هو الذي أنشأها، وسيرها، وحدّد لها وجهتها، وأمسك بها عند الغاية المحددة لها.

فهذه صور ثلاث، لمشاهد السحاب؛ يُولد أولا دخانا رقيقا، ثم يدفعه الرّيح في خفة ويسر، ثم يجتمع هذا السحاب بعضه إلىٰ بعض، فيتكاثف شيئا فشيئا، ثم يتدافع هذا السحاب، ويدخل بعضه في بعض، فإذا هو ركام، أشبه بالآكام، أو الجبال.

وفي قوله تعالىٰ: ﴿فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾ إلفات إلىٰ مولد المطر من هذا السحاب، وتحلبه من خلاله، كما يتحلّب اللبن من الضرع.

وليس يدرك سر هذه اللفتة إلىٰ قطرات الماء، وهيٰ تتساقط من السحاب، إلّا من عاش في الصحراء، وشهد آثار الماء حين ينزل إلىٰ الأرض، ويبعث الحياة والحركة في جمادها ونباتها، وحيوانها، إنها عملية خلق، وبعث جديدين، لهذا الجسد الكبير الهامد؛ ثم هو بعد ذلك عرس رائع، تحتشد له الأحياء، وتنطلق من كيانها نشوات البهجة والحبور، في أهازيج، وأناشيد، وزغاريد:

يتألف منها لحن عبقريّ بالتسبيح والحمد لله رب العالمين.

حقائق تصل هذه القطعة من الطبيعة بالوجود كله، ثم تضيف هذا الوجود إلىٰ الموجد، المبدع، المصوّر! وإليك نظرة نبيّ! ومن؟ إنه سيد الأنبياء، وخاتم المرسلين، محمد بن عبدالله، صلوات الله وسلامه عليه. عن أنس رضي الله عنه قال: أصابنا ونحن مع رسول الله ﷺ مطرٌ، قال: فحسر رسول الله ﷺ ثوبه، حتىٰ أصابه من المطر، فقلنا يا رسول الله: لم صنعت هذا؟ قال: «**لأنه حديث عهد بربه تعالىٰ**»[١]، أي: إنه رحمة مرسلة من عند الله؛ رحمة محسوسة ملموسة، ترىٰ بالعين، وتلمس باليد، وتذاق باللسان! فمن أراد أن يشهد رحمة الله عيانا، فهي في هذا الماء المنزّل من السماء، صافيا طاهرا، لم يعلق به شيء من أخلاط الأرض، إنه في طهر المواليد التي تلدها الحياة، من إنسان أو حيوان أو نبات!»[٢].

﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ «السماءُ في اللغة: ما عَلَا وارتفع، ومنه يقال للسحاب: سماءٌ، وللفضاءِ والسقف: سماء، وللرفعة المعنوية: سماء، ولفظ السماء يُذَكّر ويؤنث، والمراد به في الآية: إِما السحاب، وإِمَّا الفضاءُ فكلاهما يشتمل علىٰ جبال الركام التي ينزل منها البَرَد، كما هو صريح النص.

وإِطلاق لفظ الجبال علىٰ الركام من باب التشبيه البليغ؛ فإن السحب الركامية تشبه الجبال في ضخامتها وارتفاعها»[٣].

«وتارة ينزل الله من ذلك السحاب بردا يتلف ما يصيبه»[٤]:

---

(١) أخرجه مسلم كتاب صلاة الاستسقاء باب الدعاء في الاستسقاء (٨٩٨)، زاد في رواية أبي داود وأحمد: (فخرج رسول الله ﷺ فحسر ثوبه) أبو داود كتاب الأدب باب ما جاء في المطر (٥١٠٠) وأحمد في المسند (١٢٣٨٨) و(١٣٨٤٧).

(٢) التفسير القرآني للقرآن (٩/ ١٢٩٩-١٣٠١) باختصار.

(٣) التفسير الوسيط-طنطاوي (٦/ ١٤٤٢).

(٤) تيسير الكريم الرحمن-السعدي (٥١٩).

«﴿مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ﴾ ومعناه: أن في السماء جبال برد ينزل الله منها البرد. وأما من جعل الجبال ههنا عبارة عن السحاب، فإن (من) الثانية عند هذا لابتداء الغاية أيضا، لكنها بدل من الأولىٰ، والله أعلم»[١].

«قوله تعالىٰ: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ﴾ أي: وينزل من جبال في السماء، وهي السحب المتراكمة- بردا، وهو قطع الثلج.

فقوله تعالىٰ: ﴿مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ﴾ بدل من السماء؛ إشارة إلىٰ أن هذه السحب التي ينزل منها الماء، - وإن كانت مصدر نعمةٍ- يمكن أيضا أن تكون مصدر نقمةٍ، حين ينزل منها هذا البرد، وكأنه قطع من الأحجار، تتساقط من الجبال، فتهلك كل من تقع عليه، وكأنها بهذه العقوبة الراصدة إلىٰ جانب تلك النعمة الكبرىٰ المنزلة من السماء- مرصودةٌ ليؤخذ بها كل من يكفر بهذه النعم، ولا يضيفها إلىٰ المنعم بها، ويسبح بحمده، ويشكر له..»[٢].

«وقوله: ﴿فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصۡرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ﴾ يحتمل أن يكون المراد بقوله: ﴿فَيُصِيبُ بِهِۦ﴾ أي: بما ينزل من السماء من نوعي البرد والمطر فيكون قوله: ﴿فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ رحمة لهم، ﴿وَيَصۡرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ﴾ أي: يؤخر عنهم الغيث.

ويحتمل أن يكون المراد بقوله: ﴿فَيُصِيبُ بِهِۦ﴾ أي: بالبرد نقمة علىٰ من يشاء لما فيه من نثر ثمارهم وإتلاف زروعهم وأشجارهم. ويصرفه عمن يشاء أي: رحمة بهم»[٣].

«وقوله تعالىٰ: ﴿فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصۡرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ﴾ أي: أن هذا البرد الذي تحمله السحب بين يديها، لا نرمىٰ به هكذا من غير حساب، بل هو مملوك بيد القدرة القادرة،

(١) تفسير القرآن العظيم- ابن كثير (٦/ ٧٣).
(٢) التفسير القرآني للقرآن (٩/ ١٣٠١-١٣٠٢) باختصار.
(٣) تفسير القرآن العظيم- ابن كثير (٦/ ٧٣).

فيقع حيث أراد الله أن يقع، ويصرف عمن أراده الله سبحانه أن يصرفه عنه، من نبات، وحيوان، وإنسان..»[١].

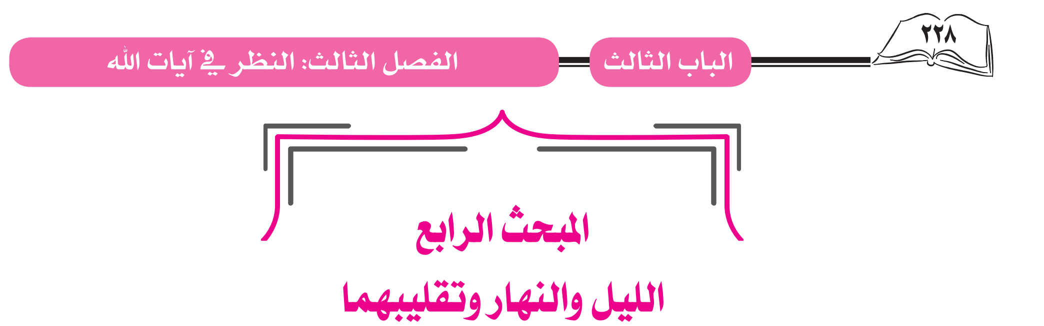
«وقوله: ﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾﴾ أي: يكاد ضوء برقه من شدته يخطف الأبصار إذا اتبعته وتراءته»[٢]..

«﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾﴾ أي: يكاد ضوء برق ذلك السحاب من شدته يذهب بالأبصار»[٣]، فيجمع بين إتلاف البرد للموجودات والممتلكات والبشر وبين إخافة الرائي له إخافة تخطف العيون من محاجرها نسأل الله العفو والعافية.

«وفي قوله تعالىٰ: ﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾﴾ لونٌ جديدٌ تكمل به صورة هذا العذاب الواقع مع البرد المتساقط كالأحجار، فهذا البرد يحمل معه الصواعق المهلكة، والنار المحرقة، وإن كان ماء! فما أعظم قدرة القادر، وما أعزّ وأقوىٰ سلطانه!!»[٤].



(١) التفسير القرآني للقرآن (٩/ ١٣٠٢).
(٢) تفسير القرآن العظيم- ابن كثير (٦/ ٧٣).
(٣) تيسير الكريم الرحمن-السعدي (٥١٩).
(٤) التفسير القرآني للقرآن (٩/ ١٣٠٢).



المبحث الرابع
الليل والنهار وتقليبهما

ثم يأتي المشهد الثالث: من بديع صنع الله، هذا المشهد الذي نراه كل يوم، ولكنَّ تبلدَ العقولِ، وإلَف المشهد جعلنا لا نستشعر عظيم خلق الله تعالىٰ، يقول تعالىٰ: ﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ٤٤﴾.

«﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ﴾ أي: يُصَرِّفهما بالمعاقبة بينهما، أَو بنقص أحدهما، وزيادة الآخر، أَو بتغيير أَحوالهما بالحر والبرد، والمظلمة والنور، أو بما يعم ذلك كله»[١].

«وقوله: ﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ أي: يتصرف فيهما، فيأخذ من طول هذا في قصر هذا حتىٰ يعتدلا ثم يأخذ من هذا في هذا، فيطول الذي كان قصيرا، ويقصر الذي كان طويلا. والله هو المتصرف في ذلك بأمره وقهره وعزته وعلمه»[٢].

«﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ من حر إلىٰ برد، ومن ليل إلىٰ نهار، ومن نهار إلىٰ ليل، ويُديلُ الأيام بين عباده، وهذا كله عبرة لذوي العقول النافذة للأمور المطلوبة منها، فالبصير ينظر إلىٰ هذه المخلوقات نظر اعتبار وتفكر وتدبير لما أريد بها ومنها، والمعرض الجاهل نظره إليها نظر غفلة بمنزلة نظر البهائم»[٣]، فسبحان من يقلب الليل والنهار لمصالح العباد والحيوان والنبات.

قال عليه الصلاة والسلام: «**قال الله تعالىٰ: يُؤْذيني ابن آدم، يَسُبُّ الدهر وأنا**

(١) التفسير الوسيط-طنطاوي (٦/ ١٤٤٤).
(٢) تفسير القرآن العظيم- ابن كثير (٦/ ٧٣).
(٣) تيسير الكريم الرحمن-السعدي (٥١٩).

الدهر، بيدي الأمر، أُقَلِّبُ الليل والنهار»[١]، وفي رواية مسلم: «**أقلب ليله ونهاره فإذا شئت قبضتهما**».

«﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٤٤﴾﴾ أي: لدليلا علىٰ عظمته تعالىٰ، كما قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾﴾ [آل عمران: ١٩٠]. وما بعدها من الآيات الكريمات»[٢].

«عبرة؛ أي: اتعاظا. وخَصَّ أولو الأبصار بالاتعاظ؛ لأن البصر والبصيرة إذا استعملا وصلا إلىٰ إدراك الحق. كقوله: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿١٩﴾﴾ [الرعد ١٩]»[٣].

«إن هذه العبرة التي يعتبر بها أولي الأبصار من تقلب الليل والنهار هي التفكر في أعمارنا وحياتنا في هذه الدنيا، وكأن كل نهار، وكل ليل يناديك: تزود من حياتك فهي تمر ولا تعود»[٤].

«أما قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٤٤﴾﴾ فالمعنىٰ: أن فيما تقدم ذكره دلالة لمن يرجع إلىٰ بصيرة، فمن هذا الوجه يدل أن الواجب علىٰ المرء أن يتدبر ويتفكر في هذه الأمور، ويدل أيضا علىٰ فساد التقليد»[٥].

يبين الحق تبارك وتعالىٰ حرمة هذه الفوضىٰ بشكل أدق حين يذكر بنعمة الوقت، فيقول: ﴿يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٤٤﴾﴾، إنَّ الله حين يذكرنا بالنظر للكون وآياته: يعرّف الناس بطبيعة الكون الذي يعيشون فيه، وخصائصه، وارتباطه

---

(١) أخرجه البخاري كتاب التفسير، باب سورة الجاثية (٤٨٢٦)، ومسلم كتاب الألفاظ، باب النهي عن سب الدهر (٢٢٤٦).

(٢) تفسير القرآن العظيم- ابن كثير (٦/ ٧٣).

(٣) البحر المحيط (٨/ ٥٩).

(٤) من لطائف التفسير (٢/ ٤٤٣).

(٥) التفسير الكبير- الرازي (٢٤/ ٤٠٦).

بخالقه، ودلالته علىٰ خالقه، واستعداده لنشأة الحياة فيه والأحياء، وتسخيره لهم بإذن الله... الخ. في أسلوبٍ مفهومٍ للفطرة، مفهومٍ للعقل، يجد مصداقه في الواقع المحسوس، كما يجد مصداقه في الفطرة المكنونة، يُعَرِّفُهم به علىٰ نطاق واسع، ويدعوهم لمعرفته، وإدراك أسراره، وكيفية التعامل معه معامله صحيحة، ناشئة عن ذلك الإدراك والتعارف والتجاوب.

إنَّ الله يقسم أرزاق الناس ما بين طلوع الفجر إلىٰ طلوع الشمس، إذ أن الجادين والكسالىٰ يتميزون في هذا الوقت، فيعطىٰ كل امرئ حسب استعداده، من خير الدنيا والآخرة. وكما أن الزمن يستغرق التكاليف التي نيطت بأعناق العباد، فهو يستوعب الأقضية التي يرسلها الله علىٰ الناس من خير وشر، وهىٰ أقضية تفيض بالعظات الحقة، والدروس القيمة لمن يلقىٰ إليها باله: ﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ٤٤﴾، والناس ينظرون إلىٰ الأحداث ويذهلون عن مرسلها، ويذوقون السراء والضراء، ويجهلون من يذيقهم طعومهما، فإذا ضاقوا ذرعا بأمر ما، لعنوا الأيام وما تفد به، وهذا ضرب من الجهل بالله، والغفلة عن أقداره في عباده.

إنَّ ربنا يحرك الكون كله فتتغير المشاهد، ويتغير ماحولنا لكي لا نمل، ولنستمر في الإبصار والاعتبار: ﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ٤٤﴾، فأطلق البصر إلىٰ الأمام وانظر في ملكوت السماوات والأرض، وكفىٰ نظرًا إلىٰ أسفل القدمين، فلم نُخلق للطين، بل خُلِقنا لأمر عظيم آخره الخلود والنعيم ﴿أَفَمَن يَمۡشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجۡهِهِۦٓ أَهۡدَىٰٓ أَمَّن يَمۡشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٢٢﴾ [الملك: ٢٢].

المبحث الخامس
الدواب خلقها وسعيها

ثم يأتي المشهد الرابع: يتأمل فيه العبد كيف خلق الله ﷻ الدواب علىٰ الأرض، وعلىٰ أي صورة خلقها الله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾﴾.

قرأ حمزة والكسائي: ﴿وَٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ﴾ علىٰ صيغة: فاعل وهو مضاف إلىٰ ما بعده، فيكون ﴿خَٰلِقُ﴾ أعم وأجمع، لأنَّه يشْتَمل علىٰ ما مضىٰ وما يحدث مِمَّا هو كَائِن، ويدُل عليه قوله: ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُ﴾ [الأنعام ١٠٢].

وقرأ الباقون: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ﴾ فيكون المقصود من ذلك التنبيه علىٰ الاعتبار بما بعد الفعل من المخلوقات، وإذا كان ذلك كذلك فأكثر ما يتأتىٰ فيه الفعل علىٰ فَعَل، وهذا الموضع موضعه؛ كما قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [النساء ١]، وقال: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾﴾ [الفرقان ٢]، فنبههم بذلك أن يعتبروا ويتفكروا في قدرته، فكذلك قوله: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ﴾[1].

فالآية تخبر عن قدرة الله العظيمة في خلقه لأنواع المخلوقات علىٰ اختلاف أشكالها وألوانها، وحركاتها وسكناتها، فكل الدواب علىٰ الأرض خلقها الله من ماء مع تنوع أصنافها، ودلت الآية أن أصل الحياة في الكون كما تؤكده الآيات والأحاديث هو الماء، وهذا يتضمن التأكيد علىٰ أن الحياة ناشئة بإرادة الله من أصل واحد هو الماء؛ ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠]، فالحيوانات التي تتوالد مادتها ماء،

(١) ينظر: حجة القراءات- ابن زنجلة (ص٥٠٢).

والتي تتولد من الأرض -كالحشرات- تتولد من الرطوبات المائية بقدرة الله، فهذا الماءُ قد جعله الله أصل الخلق للإنسان وغيره مما يدب، ومنه ما هو سببٌ للحياة؛ فالتفكر فيه آيةٌ، وشكره عبادةٌ، والسعي فيه عمارةٌ للأرض والحياة، وهذه الدواب جميعها تشترك في مادَّة تكوينها، وتختلف في أشكالها وأفعالها وأسلوب حياتها؛ وكلُّها لله مطيعةٌ عابدةٌ، منقادةٌ إلىٰ ما خلقها الله له، فسبحان الله العظيم، وعجبًا لعصيانك يا ابن آدم!

إنَّ حياة كُلِّ حَي إمَّا كاملةٌ كحياة الإنسان وغيره من الحيوانات، أو قاصرةٌ كحياة الزرع والنبات، وكُلُّ ذلك لا بد في تحقق حياته من الماء علىٰ ما هو مشاهد، وهي محتاجةٌ إلىٰ الماء لبقائها ووجودها.

والله عَزَّوَجَلَّ هو الذي خلق جميع الدواب التي تدب علىٰ وجه الأرض، وجعلها أممٌ وقبائل، وأنواع وأجناس، وأشكال وألوان، وذكور وإناث، وهي أعداد هائلة لايحصيها إلا الله الذي خلقها ودبرها، والذي يطعمها ويسقيها، وينميها ويعافيها، ويعلم مستقرها ومستودعها، فهي ساربةٌ منتشرة، في ملكه بأمره سبحانه، تأكل وتشرب من مائدة نعمه الكبرىٰ في الأرض، وكلها تسبح بحمد ربها طائعة لخالقها، عابدة ساجدة له، حتىٰ تستكمل آجالها، وتستوفي أرزاقها، قال تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ٤٩ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ٥٠﴾ [النحل: ٤٩-٥٠]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ٦﴾ [هود: ٦]، وأراد عموم كل دابة وشمولها فقال تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ﴾ [النحل ٤٩]، فجاء بـ «ما» التي تعم النوعين وتشملهما، ولو جاء بـ «من» لخّص العقلاء.

وقد تكفل الله عَزَّوَجَلَّ بأرزاق الخلائق كلهم، البشر والحيوان، والطيور والحشرات، قويهم وضعيفهم، قادرهم وعاجزهم، يسوقهم إلىٰ أرزاقهم، أو يسوق أرزاقهم إليهم: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ۝٦﴾.

ولا يزال الله يسخر لهذه الخلائق أرزاقها في كل وقت بوقته، ولا يمكن أن تهلك دابة من عدم الرزق، بسبب أنها خافية عليه، فهو سبحانه السميع العليم الذي لا يخفىٰ عليه شيء: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٖ لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ۝٦٠﴾ [العنكبوت: ٦٠]، فسبحان خالق هذا الكون العظيم، وما فيه من المخلوقات المختلفة.

وهي مخلوقات إلىٰ جانب منافعها، تحمل آياتٍ وعبرَ، وهي مخلوقة مقدّرة، مأمورة مدبّرة، صغيرها وكبيرها، ذكورها وإناثها، قويّها وضعيفها، كلّها في قبضة الله، ونواصيها بيده: ﴿إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝٥٦﴾ [هود: ٥٦].

وكل فرد من هذه المخلوقات، قدَّر الله زمانه فلا يكون إلا فيه، وقدَّر مكانه، وقدَّر خُطاه، وقدَّر طعامه، وقدَّر أجله، وقدَّر كميَّة أفراده، وهو محسوبٌ كغيره من المخلوقات والأحداث العظام الضخام: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٖۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمۡعِهِمۡ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٞ ۝٢٩﴾ [الشورىٰ: ٢٩](١). فيوجه الله أنظارنا إليها لنتعرف علىٰ قدرة الله المعجزة في الخلق والتدبير، فنؤمن بالله ونعبده حق عبادته.

ومن دلائل تفرد الله بذلك أن جَعْل بعض تلك المخلوقات عاليًا وبعضها سافلًا، وبعضها كبيرًا وبعضها صغيرًا، وبعضها متصلًا بغيره، وبعضها منفصلًا، وبعضها علىٰ صفة، وبعضها علىٰ صفة أخرىٰ: ﴿فَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ بَطۡنِهِۦ وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ رِجۡلَيۡنِ وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰٓ أَرۡبَعٖۚ يَخۡلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ۝٤٥﴾ فمنها ما يمشي علىٰ بطنه

---

(١) ينظر: موسوعة فقه القلوب (١/ ٥٢٨-٥٣٤) مختصرًا.

كالحيات وغيرها من الزواحف، ومنها ما يمشي علىٰ رجلين كالإنسان والطيور، ومنها ما يمشي علىٰ أربع كبهيمة الأنعام ونحوها، ومنها ما يطير بجناحيه، ومنها ما يسبح في البحار والأنهار..

وكلٌ جميلٌ علىٰ الهيئة التي خلقها الله فإذا بدلت لم تستقيم ولم تجمل، ولذا كان تغير الخلق من وحي الشيطان ﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ﴾ [سورة النساء ١١٩] **فخَلْقُها** آية، ولا يخلوا من حكمةٍ وجمالٍ وجلالٍ وتأثرٍ بصفات الخالق جل وعلا، **واختلافها** آية وجمال وجلال، ولا يحيط به إلا خالقه عَزَّوَجَلَّ.

جاءت الأجناس الثلاثة علىٰ هذا الترتيب؛ «لتقديم ما هو أعرق في القدرة وهو الماشي بغير آلة مشي من أرجل أو قوائم، ثم الماشي علىٰ الرجلين، ثم الماشي علىٰ أربع»[(١)].

ثم يقول الله تعالىٰ: ﴿يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾﴾ أي: أن الله سبحانه يخلق أي شيء لأنه سبحانه هو وحده الخالق، وهو علىٰ كل شيء قدير.

فلنعتبر بما «قاله الله سبحانه عن الكون والكائنات، والأشياء والأحياء، فالحق هو ما قال. وليس للعقل أن يقول، فكل ما يبلغه العقل في هذا معرَّضٌ للصواب والخطأ، وما قرره الله سبحانه لا يحتمل إلا الحق والصواب»[(٢)]، ولذا إذا تدبرنا الأمر نجد عشرات الآيات التي لا يأتي ذكر عالم المخلوقات؛ إلا وقُرنت بخلق الله لها، وتسخيره وتدبيره، وملكه وفعله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

«والآيات في ذلك كثيرة، وتبقىٰ هذه أصولًا عامة، وكل ما خالفها يُعلم بُطلانه، أما كيفية الخلق فهي مما لا نعلمها؛ لأنه لم يرد فيها نصٌ، وغالب ما يقوله أهل العلوم

---

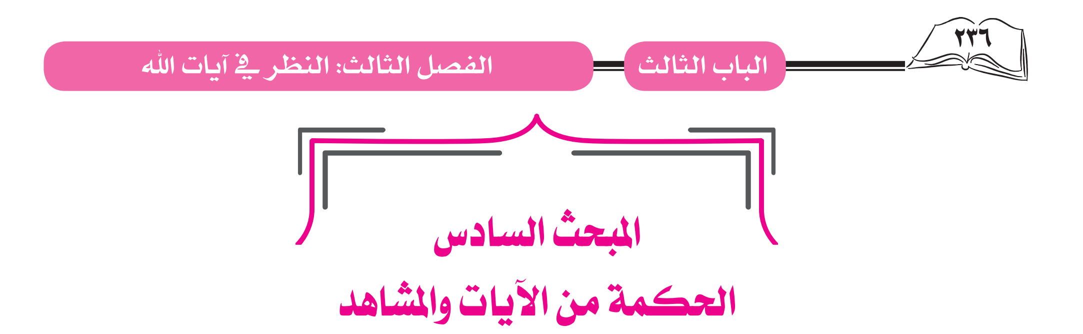
(١) الكشاف (٣/ ٧١)، أعرق: أقوىٰ في بيان قدرة الله وعظمتها، والتفكر فيها، وعبر عنه ابن الأثير بقوله: «تقديم الأعجب فالأعجب».

(٢) موسوعة فقه القلوب (٢/ ١٤٧٥).

مما يدخل في باب الكيفيات، فإن كانت من الغيب الذي لا يمكن للبشر علمه إلا بالخبر مثل خلق آدم عليه السلام، فكل دعوىٰ حوله هي من الرجم بالغيب؛ لأنه لا طريق لها إلا بالخبر، بخلاف خلق الإنسان، فقد كان أمره من الغيب النسبي، وقد جاء ذكر تفاصيل ذلك في القرآن، وكانت التفاصيل المذكورة غير ممكنة المعرفة زمن نزول القرآن، فكانت من الغيب النسبي، ثم مع تطور الأجهزة الحديثة التي تُصوّر كيفيات تخلق الجنين في بطن الأم عُرف معنىٰ تلك الآيات علىٰ وجه مفصَّلٍ، وهذه من دلائل النبوة، قال شيخ الإسلام ابن تيمية حول قوله تعالىٰ: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢﴾ [العلق: ١-٢]: فَذَكر الخلق مطلقًا، ثم خَصَّ خلق الإنسان أنه خلقه من علقٍ، وهذا أمرٌ معلومٌ لجميع الناس، كلهم يعلمون أن الإنسان يحدث في بطن أمه، وأنه يكون من علق، وهؤلاء بنو آدم -وقوله: الإنسان هو اسم جنس يتناول جميع الناس، ولم يدخل فيه آدم الذي خلق من طين- فإن المقصود بهذه الآية بيان الدليل علىٰ الخالق تعالىٰ، والاستدلال إنما يكون بمقدماتٍ يعلمها المستدل. والمقصود بيان دلالة الناس وهدايتهم، وهم كلهم يعلمون أن الناس يُخلقون من العلق، فأمَّا خلق آدم من طينٍ فذاك إنما عُلم بخبر الأنبياء أو بدلائل أُخَر. ولهذا ينكره طائفة من الكفار الدهرية وغيرهم الذين لا يقرون بالنبوات. وهذا بخلاف ذكر خلقه في غير هذه السورة. فإن ذاك ذِكره لما يثبت النبوة وهذه السورة أول ما نزل وبها تثبت النبوة فلم يُذكر فيها ما عُلم بالخبر، بل ذَكر فيها الدليل المعلوم بالعقل والمشاهدة والأخبار المتواترة لمن لم ير العلق»[1].

---

(١) كلام شيخ الاسلام في مجموع الفتاوىٰ (١٦/ ٢٦٠-٢٦١). وينظر: النظريات العلمية الحديثة حسن الأسمري (٢/ ٩٧٧-٩٧٨).



المبحث السادس
الحكمة من الآيات والمشاهد

ختم الله جلَّ ذكره الآيات السابقة بقوله تعالىٰ: ﴿لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾﴾.

بعد ذلك العرض الشيق لآيات الله المشاهدة التي غفل عن إدراكها وإدراك أسرارها الكثير من الناس! وذلك لأن عقولهم وقلوبهم ليست مع الله تعالىٰ، وأن إلف هذه الآيات جعلهم لا يتأثرون بها؛ بل أنها تصبح عندهم أمورًا عادية جدًا! لأنهم انشغلوا بغير المطلوب من الزينة والزخرف والغرور عن المطلوب منهم من العبادة والتأمل والتفكر والنظر والاعتبار.

فيأتي التعقيب الختامي علىٰ هذه الآيات المبهرة بقوله تعالىٰ:

﴿لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾﴾.

«يعني: مَن ملك هذا الملك وحده، وخلق لكم هذه العجائب أنزل لكم آياتٍ بيناتٍ تحمل إليكم الأحكام، فكما فعل لكم الجميل، ووفر لكم ما يخدمكم في الكون، سمائه وأرضه، فأدُّوا أنتم ما عليكم نحو منهجه وأحكامه، واتبعوا هذه الآيات البينات»[(١)].

﴿ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ﴾: تُبيِّن الأحكام وتضرب الأمثال، لأجل هداية العباد إلىٰ طريق سعادتهم وكمالهم. وهذا «يَعُمُّ كُلَّ ما نصب الله تعالىٰ من آيةٍ وصنعةٍ للعبرة، وكُلُّ ما نَصَّ في كتابه من آيةِ تنبيهٍ وتذكيرٍ، وأخبر تعالىٰ أنه أنزل الآيات، ثم قيَّد الهداية

(١) ينظر: تفسير الشعراوي (١٠٣٠١)، باختصار.

إليها؛ لأنها من قبله لبعض دون بعض»(١)، «والمعنىٰ: لقد أنزلنا آيات قرآنية موضحات لكل عاقل ما ينبغي توضيحه من الأحكام الدينية، والأسرار التكوينية، والله يهدىٰ من يشاءُ هدايته إلىٰ طريق مستقيم يوصله إلىٰ الحق والفوز في دار الثواب، وذلك بتوفيق من وعاها بسمعه وقلبه إلىٰ التدبر في معانيها، والنظر الصحيح فيما ترشده إليه من دلائل الحق»(٢)، «لاستقامة حركة الحياة؛ لأن حركة الحياة تحتاج لأنْ يتحرك الجميع ويؤدي كُلٌّ مهمته حتىٰ تتساند الحركات ولا تتعاند، فالذي يُتعب الدنيا أن تبنىٰ وغيرك يهدم! فلا بُدَّ من ضابط قيمي يضبط كل الحركات ويحثّ كل صانع أنْ يتقن صَنعته ويُخلِص فيها، والإنسان غالبًا لا يحسن إلا زاويةً واحدةً في حياته؛ هي: حرفته وتخصصه، فيُحسِن عمله ويتقن صنعته، وكذلك يتقن الناس ما في أيديهم، فتستقيم الأمور، فأحسن ما في يدك للناس، يحسن لك الناسُ ما في أيديهم»(٣).

والمراد: «لقد رحمنا عبادنا وأنزلنا إليهم آيات مبينات أي واضحات الدلالة، علىٰ جميع المقاصد الشرعية والآداب المحمودة، والمعارف الرشيدة، فاتضحت بذلك السبل، وتبين الرشد من الغي، والهدي من الضلال، فلم يبق أدنىٰ شبهة لمبطل يتعلق بها، ولا أدنىٰ إشكال لمريد الصواب، لأنها تنزيل مِمَّن كَمُل علمه، وكملت رحمته، وكمل بيانه، فليس بعد بيانه بيان.

والله يهدي سبحانه من يشاء إلىٰ طريق واضح مختصر موصل إليه، وإلىٰ دار كرامته، متضمن العلم بالحق وإيثاره والعمل به»(٤).

وقيل الآيات: «أي: القرآن، فإنه قد اشتمل علىٰ بيان كل شيء، و﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي

(١) المحرر الوجيز (٤/ ١٩١).
(٢) التفسير الوسيط-الأزهر (٦/ ١٤٤٨).
(٣) ينظر: تفسير الشعراوي (١٠٣٠٢)، باختصار.
(٤) تيسير الكريم الرحمن-السعدي (٥٢٠).

ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖۚ﴾ [الأنعام ٣٨]، ﴿وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾ بتوفيقه للنظر الصحيح، وإرشاده إلىٰ التأمل الصادق ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٤٦﴾ إلىٰ طريقٍ مستوٍ لا عِوج فيه، فيتوصل بذلك إلىٰ الخير التام وهو نعيم الجنة»[1].

ولا ريب في دخول ذلك في المعنىٰ العام، فإنَّ «من نور الله، تلك الآيات القرآنية، التي كشفت للناس طريقهم إلىٰ الله، وأطلعتهم علىٰ دلائل قدرته، وآثار رحمته، وذلك فيما جاء في الآيات التي تحدثت عن بيوت الله التي أذن الله أن ترفع، ويذكر فيها اسمه، والآيات التي تحدثت عن الكافرين وأعمالهم، ثم في هذه الآيات التي عرضت تلك المشاهد الناطقة بقدرة الله، وسعة علمه ونفوذ سلطانه، من السحاب والمطر، ومن خلق الحياة القائمة علىٰ الأرض من عنصر الماء.

ففي هذا كله، آيات مبينات، أي موضحات، وكاشفات، لطريق الحق، والهدىٰ، والإيمان بالله، والولاء له، والتسبيح بحمده»[2].

فهذه هي الرحمة من الله بعباده حيث سخر لنا كل ما في السماوات والأرض، وأسبغ علينا نعمه ظاهرة وباطنة، وأنزل إلينا خير الشرائع وأيسرها رحمة منه سبحانه بنا، ولكن أكثر الناس لا يعقلون، لأنهم بعيدون عن الله أشد البعد، ولكن من رحمة الله بهؤلاء أيضا أن أرسل لهم هذه الآيات تذكرهم به سبحانه، والله يهدي من يشاء إلىٰ صراط مستقيم.

«يقرر تعالىٰ أنه أنزل في هذا القرآن من الحكم والأمثال البينة المحكمة، وأنه يرشد إلىٰ تفهمها وتعقلها أولي الألباب والبصائر والنهىٰ؛ ولهذا قال: ﴿وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٤٦﴾»[3]، فمن آمن بها ونظر فيها وأخذ بما تدعو إليه من الهدىٰ

---

(١) فتح القدير-الشوكاني (٤/ ٥١) مختصرًا.
(٢) التفسير القرآني للقرآن (٩/ ١٣٠٥).
(٣) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٧٣) باختصار.

اهتدىٰ، ومن أعرض عنها فضل وشقىٰ فلا يلومن إلا نفسه: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾﴾.

﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ هدايته ممن رغب في الهداية وطلبها وسلك لها مسالكها، ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ وهو الإسلام، طريق الكمال والسعادة في الحياتين، اللهم اجعلنا من أهله إنك قدير».



الباب الرابع

آداب المجتمع في الإسلام

تضمن هذا الباب تذكير الله عَزَّوَجَلَّ للمؤمنين بوجوب طاعة رسول الله ﷺ، وطاعة من ولاه الله أمر عباده - شرعًا وقدرًا- وأن تلك الطاعة لها ثمراتٌ من أعظمها الاستخلاف والتمكين، الاستخلاف في الأرض، والتمكين للدين، وأن لتلك الطاعة آداب لابد من مراعاتها حال الاجتماع، وحال الاستئذان، وغيرهما مما يؤثر للصالح العام وبه تنتظم أمور المجتمع، وأن ذلك لايخرج عن عبادة الله سبحانه.

وذلك في آيات سورة النور من الآية (٤٧) حتىٰ الآية (٦٤) من هذه السورة.

ويشتمل هذا الباب علىٰ ثلاثة فصول، وكل فصلٍ له مباحثه:

الفصل الأول: وجوب طاعة الرسول ﷺ وأولي الأمر.

الفصل الثاني: أسباب النصر والتمكين في الأرض.

الفصل الثالث: أدب الطاعة للرسول ﷺ واحترام ولي الأمر.

وإليك بيانها:

الفصل الأول
وجوب طاعة الرسول

تمهيد:

قال تعالىٰ: ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ ۖ قُل لَّا تُقْسِمُوا۟ ۖ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ ۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٥٤﴾﴾.

إن الإيمان الصحيح متىٰ استقر في القلب ظهرت آثاره في السلوك، ومنهج الإسلام الواضح في التربية يقوم علىٰ أساس تحويل الشعور الباطن بالعقيدة وآدابها إلىٰ حركة سلوكية واقعية.

وابتداء الآيات هنا بالجواب عن شبهات الذين لا يتبعون رسول الله ﷺ، وسبب ذلك، ثم بيان الأصل الواجب في إتباع سنة رسول الله ﷺ وحال المؤمنين في ذلك، كل هذا من أسلوب القرآن في كشف الشبهات والرد عليها.

والواضح في الآيات أن المتحدث عنهم قد ثبت لديهم وجوب طاعة الرسول

ﷺ لأنهم أقروا به لفظًا، أما المخالفة فكانت في العمل؛ وهذا مكمن الداء الذي يحذر منه السلف كثيرا، وهو العلم بلا عمل، فالحديث في هذا المقطع عن المنافقين المستسلمين ظاهرًا، المخالفين في الحقيقة، المكذبين في المآل.

وسنحاول إبراز هذا الجانب في موضوع الآيات من خلال ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: الهروب عن التحاكم إلىٰ الله ورسوله.

المبحث الثاني: المستقيمين علىٰ منهج رسول الله ﷺ.

المبحث الثالث: حال الناس في الطاعة وواجب الرسول ﷺ تجاههم.



المبحث الأول
الهروب عن التحاكم إلى الله ورسوله

يخبر الله ﷻ عن المنافقين، الذين يظهرون الإسلام ولكن قلوبهم خالية منه ومن استشعاره، قال تعالىٰ: ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾﴾: «فهم يخالفون أقوالهم بأعمالهم فيقولون ما لا يفعلون»[١]. ولهذا قال الله تعالىٰ عنهم ﴿وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾؛ فالإيمان ليس لعبةً يتلهىٰ بها صاحبها، ثم يدعها ويمضي، إنما هو تكليف النفس، وانطباع في القلب، وعمل في الواقع، ثم لا تملك النفس الرجوع عنه متىٰ استقرت حقيقته في الضمير.

والدليل علىٰ أنهم يخالفون ما يقولونه بألسنتهم من الإيمان ما ضربه الله مثالًا لذلك في قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾﴾ أي: «أنهم إذا دعوا إلىٰ تحكيم شريعة الله تعالىٰ فيما شجر بينهم وبين الناس إذا فريق منهم يرفضون حكم الله تعالىٰ وحكم رسوله ﷺ إذا كان الحكم ليس لصالحهم، أما إذا كان الحكم لصالحهم فإنهم يأتون إليه منقادين له راضين به، وانقياد هذا الفريق ليس انقيادًا لأحكام الشريعة الإسلامية وإنما هو انقيادٌ لمصالحهم، فالقوم عبيد المصالح والأهواء والشهوات»[٢].

وفي الآيات هنا عدة تساؤلات توبيخية إنكارية! وهي تعرض السبب في

(١) تفسير القرآن العظيم- ابن كثير (٦/ ٧٤).
(٢) موضوعات القرآن- سورة النور (٨٢).

ذلك، قال تعالىٰ: ﴿أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٥٠﴾. فهم «لا يخرج أمرهم عن أن يكون في القلوب مرض ملازم لها، أو قد عرض لها شك في الدين، أو يخافون أن يجور الله عليهم ورسوله في الحكم، وأي هذه الأمور فهو كفر محض، والله عليم بكل منهم»[١].

«هل سبب إعراضهم عن حكم الله هو النفاق الذي خرب قلوبهم؟ أم هم يشكون في صلاحية حكم الله وملائمته لمصالح العباد؟ أَمْ تُرىٰ هم خائفون أن يظلمهم الله ورسوله»[٢].

إن عدل الله هو العدال المطلق الذي لا يُطَبِّقُه تشريعٌ غير تشريع الله، ولا يحققه حكمٌ غير حكمه، من أجل ذلك كان الذين لا يرتضون حكم الله ورسوله هم الظالمون، كما قال تعالىٰ: ﴿بَلْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٥٠﴾، فهم: الذين لا يريدون للعدالة أن تستقر، ولا يحبون للحق أن يسود، فهم لا يخشون من حكم الله حيفا، ولا يرتابون في عدالته -في قرارة أنفسهم، ﴿بَلْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٥٠﴾ أي: بل في قلوبهم مرض حب الدنيا وتقديمها علىٰ الآخرة فهذا هو الظلم.



(١) تفسير القرآن العظيم- ابن كثير (٦/ ٧٤).
(٢) من لطائف التفسير (٢/ ٤٥٤).

المبحث الثاني
المستقيمين على منهج رسول الله

في الجانب الآخر يأتي وصف المؤمنين بالله حقًّا في الاستجابة لأمر الله، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٥١ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ۝٥٢﴾.

أولًا: صفات المؤمنين المستجيبين لأمر الله في الآية:

١- السمع والطاعة: ﴿يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾:

السمع والطاعة بلا تردد ولا جدال ولا انحراف، السمع والطاعة المستمدان من الثقة المطلقة في أن حكم الله ورسوله هو الحكم وما عداه الهوىٰ؛ النابعان من التسليم المطلق لله، واهب الحياة، المتصرف فيها كيف يشاء؛ ومن الاطمئنان إلىٰ أن ما يشاؤه الله للناس خيرًا مما يشاءونه لأنفسهم، «وحكم الرسول بما شرع الله من الأحكام لا يحتمل الحيف إذ لا يشرع الله إلاّ الحقّ، ولا يخالف الرسولُ في حكمه شَرْعَ الله تعالىٰ»[1]. فهي «طاعة تامة، سالمة من الحرج»[2].

فلا إسلام بلا طاعة لأمر الله، وإنفاذ منهجه في الحياة، ولا إيمان حيث يعرض الناس عن أمر الله في الكبيرة والصغيرة من شؤون حياتهم؛ أو حيث لا ينفذون شريعته، أو حيث يتلقون تصوراتهم عن الخلق والسلوك والاجتماع والاقتصاد والسياسة من مصدر غير شريعته.

(١) التحرير والتنوير (٣/ ٤٦٣).
(٢) تيسير الكريم الرحمن -السعدي (٥٧٢).

ولذا فهم يقولون: «سمعنا الدعاء وأطعنا بالإجابة»[١]، فهم لا يتوقفون عند ما يسمعون أمر الله ولكن يبادرون مسرعين في الانقياد والاستسلام لله تعالىٰ، لأنهم يعلمون أن حكم الله هو أعدل الأحكام وهو خير الأحكام سواء ظهرت لهم الحكمة منه أم لم تظهر لأول مرة.

٢- الطاعة العامة لله والرسول: ﴿يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾:

«فيما يأمرانه أو في الفرائض والسنن»[٢]، فالحديث في الآية السابقة عن الطاعة والتسليم في الأحكام، وفي هذا الموضع- يتحدث عن الطاعة كافة في كل أمر أو نهي.

٣- خشية الله تعالىٰ وتقواه: ﴿وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ﴾:

أي: «﴿وَيَخْشَ ٱللَّهَ﴾ علىٰ ما عمل من الذنوب ﴿وَيَتَّقْهِ﴾ فِيمَا يَسْتَقْبِلُ»[٣]، وقيل: «﴿وَيَخْشَ ٱللَّهَ﴾ أي: يخافه خوفًا مقرونًا بمعرفة، فيترك ما نهىٰ عنه، ويكف نفسه عما تهوىٰ ولهذا قال: ﴿وَيَتَّقْهِ﴾ بترك المحظور، لأن التقوىٰ -عند الإطلاق- يدخل فيها فعل المأمور، وترك المنهي عنه، وعند اقترانها بالبر أو الطاعة - كما في هذا الموضع - تفسر بتوقي عذاب الله بترك معاصيه»[٤].

ثانيًا: الترابط بين هذه الصفات:

إن القارئ لهذه الآية يلاحظ قوة الترابط والتلازم بين هذه الصفات فطاعة الله ورسوله تقتضي السير علىٰ النهج القويم الذي رسمه الله للبشرية وهو يؤدي للفوز في الدنيا والآخرة، وخشية الله وتقواه هي الحارس الذي يكفل الاستقامة عل هذا المنهج، فالطاعة لله ورسوله لا بد أن تكون مصحوبة بخشية الله وتقواه، والتقوىٰ أعم

---

(١) معالم التنزيل -البغوي (٦/ ٥٦).
(٢) أنوار التنزيل -البيضاوي (٤/ ٣٨٧).
(٣) معالم التنزيل -البغوي (٦/ ٥٦). تفسير القرآن العظيم -ابن أبي حاتم (١٠/ ١٨٤).
(٤) تيسير الكريم الرحمن-السعدي (٥٧٢).

من الخشية، فهي مراقبة الله والشعور به عند الصغيرة والكبيرة؛ والتحرج من إتيان ما يكره توقيرًا لذاته سبحانه، وإجلالًا له، وحياء منه، إلىٰ جانب الخوف والخشية.

وأدب الطاعة لله ورسوله، مع خشية الله وتقواه، أدب رفيع، ينبع عن مدىٰ إشراق القلب بنور الله، واتصاله به، وشعوره بهيبته. كما ينبع عن عزة القلب المؤمن واستعلائه.

فكل طاعة لا ترتكن علىٰ طاعة الله ورسوله، ولا تستمد منها، هي ذلة يأباها الكريم، وينفر منها طبع المؤمن، ويستعلي عليها ضميره، فالمؤمن الحق لا يحني رأسه إلا لله الواحد القهار.

«واشتملت هذه الآية علىٰ الحق المشترك بين الله وبين رسوله، وهو: الطاعة المستلزمة للإيمان، والحق المختص بالله، وهو: الخشية والتقوىٰ، وبقي الحق الثالث المختص بالرسول، وهو: التعزير والتوقير، كما جمع بين الحقوق الثلاثة في سورة الفتح في قوله: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿٨﴾ لِّتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ﴿٩﴾﴾ [سورة الفتح ٨-٩]»[1].

ثالثًا: نتيجة هذا التسليم والالتزام بتلك الصفات؟

قال تعالىٰ: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخۡشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقۡهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾﴾ **مفلحون**: لأن الله هو الذي يدبر أمورهم، وينظم علاقاتهم، ويحكم بينهم بعلمه وعدله، فلا بد أن يكونوا خيرًا ممن يدبر أمورهم وينظم علاقاتهم ويحكم بينهم بشر مثلهم، قاصرون، لم يؤتوا من العلم إلا قليلا، فتركوا حكم الجاهلية لحكم الله العزيز العليم جلّ وعلا.

وهم مفلحون أيضًا لأنهم مستقيمون علىٰ منهج واحد لا عوج فيه ولا التواء، مطمئنون إلىٰ هذا المنهج، ماضون فيه لا يتخبطون فلا تتوزع طاقاتهم، ولا يمزقهم

(١) المصدر السابق.

الهوىٰ كل ممزق، ولا تقودهم الشهوات والأهواء، قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾﴾ [سورة لقمان ٢٢].

وهم الفائزون الناجون في دنياهم وأخراهم، وهذا وعد من الله لا يخلف الله وعده وهم للفوز أهل، ولديهم أسبابه من واقع حياتهم. «فهم فائزون بنجاتهم من العذاب، لتركهم أسبابه، ووصولهم إلىٰ الثواب، لفعلهم أسبابه، فالفوز محصور فيهم، وأما من لم يتصف بوصفهم، فإنه يفوته من الفوز بحسب ما قصر عنه من هذه الأوصاف الحميدة»[١].

فالذي يطع الله والرسول في أي أمر من الأمور ويسلم له ويجعل بينه وبين عذاب الله وقاية بامتثال الأوامر واجتناب النواهي خشيةً لله وخوفًا منه ورجاءَ رحمتِهِ وعفوهُ فهم الفائزين قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾﴾.

- **الفوز والفلاح:**

«الفلاح نجاح المرء فيما يطمح إليه فهو يجمع معنيي الفوز والنفع وذلك هو الظفر بالمبتغىٰ من الخير»[٢]. فـ«الفلاح هو: الظفر والفوز بدرك البغية، وأصله من الفلْح -بسكون اللام- وهو الشق والقطع، ومنه فلاحة الأرض وهو شقها للحرث. وأستعمل منه الفلاح في الفوز، كأن الفائز شق طريقه وفلحه للوصول إلىٰ مبتغاه، أو انفتحت له طريق الظفر وانشقت»[٣]. «والمفلحون: الذين أدركوا بغيتهم من الجنة، والفلاح يأتي بمعنىٰ إدراك البغية، وبلوغ البغية يعم لفظة الفلاح حيث وقعت والفوز حصول الإنسان علىٰ أمله، وظفره ببغيته»[٤]، «والفلاح هو: الفوز بالمطلوب والنجاة

---

(١) تيسير الكريم الرحمن-السعدي (٥٧٢).

(٢) التحرير والتنوير (١٦/ ٢٢٤).

(٣) تفسير الوسيط (١/ ١٨).

(٤) المحرر الوجيز (٣/ ٢٩٦).

من المرهوب»(١).

«**والفوز في اللغة النجاة**»(٢) وهو: «الظفر العظيم الذي لا فوز وراءه»(٣)، «والمعنىٰ أولئك هم الفائزون بمطالبهم الدينية والدنيوية فإن من نال تزكية الله تعالىٰ ورحمته لم يفته مطلب»(٤).

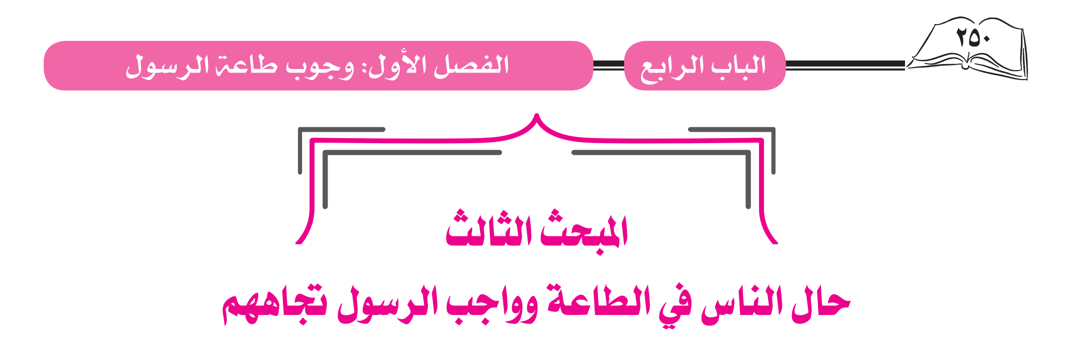
قال الراغب «الفوز: الظفر بالخير مع حصول السلامة، قال تعالىٰ: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ٢٠﴾ [التوبة ٢٠].. فأما إذا اعتبر بحال الآخرة فيما يصل إليه من النعيم فهو الفوز الكبير»(٥).

«وعن بعض الملوك أنه سأل عن **آية كافية** فتليت له هذه الآية. وهي جامعة لأسباب الفوز»(٦). وقال البقاعي: «ولما أفرد الضمائر إشارة إلىٰ قلة المطيع، جمع لئلا يظن أنه واحد فقال: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ العالو الرتبة، ﴿هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ٢٠﴾ بالملك الأبدي ولا فوز لغيرهم»(٧).

«﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ الذين جمعوا بين طاعة الله وطاعة رسوله، وخشية الله وتقواه، ﴿هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ٢٠﴾ بنجاتهم من العذاب، لتركهم أسبابه، ووصولهم إلىٰ الثواب، لفعلهم أسبابه، فالفوز محصور فيهم، وأما من لم يتصف بوصفهم، فإنه يفوته من الفوز بحسب ما قصر عنه من هذه الأوصاف الحميدة»(٨).



(١) تيسير الكريم الرحمن-السعدي (٤٠).
(٢) معاني القرآن النحاس (٤/ ٥٨٤).
(٣) روح المعاني (١٠/ ١٥٧).
(٤) روح المعاني (٢/ ٢٤).
(٥) مفردات الراغب (١/ ٣٨٧).
(٦) مدارك التنزيل -النسفي (٢/ ٤٢٤)، والجامع للقرطبي (١٢/ ٢٩٥).
(٧) نظم الدرر للبقاعي (٥/ ٤٨٣).
(٨) تيسير الكريم الرحمن-السعدي (٥٧٢).



المبحث الثالث

حال الناس في الطاعة وواجب الرسول تجاههم

بعد هذا العرض والوصف الرباني وهذه المقابلة العجيبة بين الذين يتلقون أوامر الله ورسوله بالطاعة؛ وبين الذين يفرون من أوامر الله وحكمه، يصل الله تعالىٰ الحديث عن أولئك المنافقين الذين لا يريدون أن يتحاكموا إلىٰ الله رسوله فيقول تعالىٰ:

﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ ۖ قُل لَّا تُقْسِمُوا۟ ۖ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ ۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٥٤﴾﴾.

كان المنافقون يقولون لرسول الله وهم يقسمون أشد الأيمان وأغلظها [لئن أمرهم للخروج للجهاد ليخرجن]، وهذا كذب ولا شك لأن هذه طبيعتهم، فقد قرر تعالىٰ عنهم ذلك في آيات كثيرة منها: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَـٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٦﴾﴾ [سورة المجادلة ١٦] وقال تعالىٰ: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾﴾ [سورة التوبة ٦٢].

ولكن الله تعالىٰ يقول لنبينا محمد ﷺ أن يقول لهم: ﴿قُل لَّا تُقْسِمُوا۟ ۖ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ﴾ أي: «لا تحلفوا طاعتكم طاعة معروفة، معلومة إنما هي مجرد قول لا فعل معه، فكلما حلفتم كذبتم»[(١)].

﴿قُل لَّا تُقْسِمُوا۟ ۖ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ﴾ أي: «أولىٰ بكم من أيمانكم، أو ليكن منكم: طاعة معروفة»[(٢)]، فأولىٰ بكم من هذه الأيمان أن تكون منكم طاعة لله ورسوله بالمعروفة

(١) موضوعات سور القرآن- سورة النور (٨٤).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (١٢/ ٢٩٦).

بدون أيمان لأن أيمانكم هذه لن تجدي شيئًا في العمل إنما هي كذب وتمويه ولبس للحق بالباطل قال تعالىٰ: ﴿وَإِن يَقُولُواْ تَسۡمَعۡ لِقَوۡلِهِمۡۖ كَأَنَّهُمۡ خُشُبٞ مُّسَنَّدَةٞۖ﴾ [سورة المنافقون ٤].

وقال: ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٞ فَإِذَا بَرَزُواْ مِنۡ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ غَيۡرَ ٱلَّذِي تَقُولُۖ وَٱللَّهُ يَكۡتُبُ مَا يُبَيِّتُونَۖ﴾ [سورة النساء ٨١].

«ليكن منكم طاعة معروفة، وقول معروف بإخلاص القلب، ولا حاجة إلىٰ اليمين»(١). «طاعة معروفةٍ بنيةٍ خالصةٍ أفضل وأمثل من يمين باللسان لا يوافقها الفعل»(٢). «أو: طاعة معروفة معلومة لا يشك فيها كطاعة الخلص من المؤمنين»(٣)، وقيل: «أطيعوا طاعةً معروفة حقيقية»(٤) وقيل: «صحيحةٌ لا نِفاق فيها»(٥).

ثم يعقب الله تعالىٰ علىٰ هذه الآية متوعدًا من يكون علىٰ هذا المنهاج الشيطاني بقولة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ٥٣﴾ فإن الله تعالىٰ خبير بكل شيء تعملونه ومجازيكم عليه، فإن صدقتم وآمنتم بالله حق الإيمان حصل لكم الفوز والفلاح، وإن كذبتم وأصررتم علىٰ عدم التسليم لله ولرسوله فسيجازيكم يوم القيامة ويعذبكم عذابًا أليمًا.

ثم يأتي التعقيب الختامي بآية واحدة علىٰ ما سبق وصفه من النوعين في الآيات يُبين الله فيها بإيجاز ووضوح:

١- ما هو الواجب علىٰ الناس تجاه أوامر الله ورسوله؟

٢- وما ذا لو تولىٰ الناس ولم يؤمنوا؟

٣- وما نتيجة التزام طاعة رسول الله؟

---

(١) الجامع لأحكام القرآن-القرطبي (١٢/ ٢٩٦).
(٢) معالم التنزيل -البغوي (٦/ ٥٧).
(٣) روح المعاني (١٣/ ٤٨٨)، والبحر المحيط (٨/ ٢٣٩).
(٤) روح المعاني (١٣/ ٤٨٩).
(٥) زاد المسير (٤/ ٤٥٤).

٤- وما الواجب علىٰ الرسول ﷺ ومن دعا بدعوته لو لم يؤمن الناس؟

قال تعالىٰ: ﴿قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيۡكُم مَّا حُمِّلۡتُمۡۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهۡتَدُواْۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ٥٤﴾.

١- **فالواجب علىٰ الناس** تجاه أوامر الله ورسوله: الطاعة، قال تعالىٰ: ﴿قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ فهذا أمر صريح يدل علىٰ الوجوب المطلق مع أن طاعة كل واحد منهما متلازمة لطاعة الأخرىٰ لا تنفك عنها، كما قال تعالىٰ: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا ٨٠﴾ [سورة النساء٨٠].

٢- **أما لو تولىٰ الناس** ولم يلتزموا بأمر الله تعالىٰ وأمر رسوله: ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيۡكُم مَّا حُمِّلۡتُمۡ﴾ أي: «إن تتولوا عن الطاعة فلا تضرون الرسول لأنه مسئول فقط عما كلف به من تبليغ الرسالة، وأنتم عليكم مسؤولية الطاعة المستمرة، والخشية والتقوىٰ الدائمة»[(١)]. فالرسول يتحمل أمر التبليغ والناس يتحملون أمر الإتباع، وسيجازون علىٰ ذلك إن خيرًا فخيرٌ وإن شرًا فشرٌ.

٣- **بين الله نتيجة الإيمان** والطاعة للرسول فيقول تعالىٰ: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهۡتَدُواْۚ﴾ أي: «إن تطيعوا الرسول تهتدوا إلىٰ الصراط المستقيم، قولا وعملا، فلا سبيل لكم إلىٰ الهداية إلا بطاعته، وبدون ذلك لا يمكن بل هو محال»[(٢)] وهذا ترغيب لهم بالتزام الطريق المستقيم، الطريق الذي يوصلهم للنجاة والفلاح وهو اتباع الرسول ﷺ، كما قال تعالىٰ: ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣١﴾ [سورة آل عمران٣١].

٤- **وأما الواجب علىٰ الرسول** ومن سلك سبيله ودعوته حتىٰ ولو لم يؤمن الناس

---

(١) موضوعات سور القرآن -سورة النور (٨٤).
(٢) تيسير الكريم الرحمن-السعدي (٥٢١).

- هو: ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٥٤﴾﴾ أي: «أن الرسول عليه التبليغ البيّن الذي لا يُبْقىٰ لأحدٍ شكًا ولا شبهةً. والرسول ليس له من الأمر شيء - فيما يخص هداية التوفيق والهداية -، وقد قام بوظيفته أحسن القيام»[1] فيما هو من مقدرته واختصاصه وهو دلالة الإرشاد والبيان. وهذا مثل قوله تعالىٰ: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة٢٧٢] وقوله: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾﴾ [سورة هود ١٢].

إنَّ هذه رسالة إلىٰ كل الدعاة أنه ليس عليهم إلا تبليغ الحق للناس وتبيينه لهم أحسن البيان وأوضحه ليبرؤوا ذممهم أمام الله تعالىٰ، ولكي لا يكون عند أحد من الناس حجة أمام الله.

ولا ينظر الدعاة إلىٰ استجابة الناس أو عدم استجابتهم، ولكن ليس عليهم إلا البلاغ المبين، فليشتغلوا بما هو مطلوب منهم، مقدور لهم، وليتركوا ما ليس في دائرة اختصاصهم - وهو هداية التوفيق، ولا ييأسوا من رحمة الله.

فليبلغوا ويبينوا ويعلموا برحمة ورأفة وشفقة، مع التوكل علىٰ الله، والدعاء للنفس والغير بالهداية والتقوىٰ، وأن تكون دعوتهم وفق منهج سيد المرسلين ﷺ بعلم وبرهان من الله، وليحذروا ما يضاد ذلك من العجلة والإعجاب والغرور والتعالي علىٰ الخلق، والدعوة بالاجتهادات غير الشرعية، والقول علىٰ الله أو علىٰ رسوله بلا علم، والله المستعان وعليه التكلان.



(١) تيسير الكريم الرحمن-السعدي (٥٢١)، بتصرف.

الفصل الثاني

أسباب النصر والتمكين في الأرض

قال تعالىٰ: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ٥٥ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ٥٦ لَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ وَلَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ٥٧﴾. في هذه الآيات الثلاث خبرٌ من الله عن وعد قطعه علىٰ نفسه لعباده، ووصفٌ تام وواضح لمتطلبات وشروط ذلك الوعد الكريم والكبير من الكبير المتعال، وبيانٌ لأوصاف أولئك القوم المستحقون لذلك الوعد، ووصفٌ واضح للفريق المضاد لهم؛ لأن الأشياء تتبين بأضدادها، ولتفهم العلة والحكمة في شرع الله ووعده، وبيان ما اشتملت عليه هذه الجملة الكريمة ضمنه بعضهم في سؤال مهم جدًا: **ماذا تحتاج أمتنا في هذه الأيام؟؟**

يقول الشيخ أحمد فرح عقيلان رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**في أيامنا هذه تحتاج أمتنا إلىٰ ثلاثة أمور:**

أولا: تريد أمتنا نصرًا مؤزرًا، تمسح به عن جنباتها إذلال الهزيمة - تلك الهزيمة التي عصفت بكرامتها، واستباحت مقدساتها، وقهرتها قهرًا فتت أكبادها وقلوبها وجعلتها أذل شعوب الدنيا، يتحدونها في عقر دارها، ويدنسون أولىٰ قبلتيها، بل ويهينون قرآنها في مصاحفه الشريفة.

ثانيا: وتريد أمتنا أن يعز دينها؛ فيتمكن في القلوب والمجتمعات ويحكم في السياسة والعسكرية والقضاء.

ثالثًا وأخيرًا: تريد أمتنا أن تتحرر من الخوف وأن تشعر في ديارها بالأمن والأمان.

ثلاث مطالب يتطلع إليها قلب كل مؤمن بربه محب لدينه وأمته وشعبه، هذه الأمنيات الثلاث يتمناها كل مؤمن، لأن فيها عز الدنيا ومجدها، وثواب الآخرة وخلدها.

هذه الأمنيات الثلاث وعد من ربنا جَلَّجَلَالُهُ ووعده الحق، أن يحققها لأمتنا، ولكن بشرط نفذه سلفنا الصالح رضوان الله عليهم فَصَدَقَهُم الله وعده وأعز بالإيمان جنده»[1].

ولكن ما علاقة هذا السؤال وجوابه بالآيات الكريمة؟ هذا ما سنعرفه في المباحث التالية:

المبحث الأول: صفات أهل النصر.

المبحث الثاني: حقيقة الاستخلاف.

المبحث الثالث: التمكين وحقيقته.

المبحث الرابع: معنىٰ تبديل الخوف بالأمن.

المبحث الخامس: سبيل المحافظة علىٰ الموعود.



(١) من لطائف التفسير (٢/ ٤٤٤).



المبحث الأول
صفات أهل النصر

يا ترىٰ ما الصفتان الجامعتان اللتان يكون بهما النصر والعزة للدين ويتحقق والأمن والأمان؟؟

قال تعالىٰ: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًاۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔاۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ (٥٥)﴾.

«هذا وعد من الله لرسوله ﷺ بأن سيجعل أمته خلفاء الأرض، أي: أئمة الناس والولاة عليهم، وبهم تصلح البلاد، وتخضع لهم العباد، ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ وحكما فيهم، وقد فعل الله تبارك وتعالىٰ ذلك وله الحمد والمنة..»(١).

لقد وعد الله ﷻ بالأمور التي تحتاجها أمتنا في هذه الأيام، ولكن هذا الوعد لن يتحقق إلا لطائفة معينة «تتحلىٰ بصفتين عظيمتين، بهما تستحق الوعد الحق، هاتان الصفتان متىٰ توفرتا في أمتنا عبر تاريخها إلا تهاوىٰ الشرك تحت قدميها، وظهر دين الله علىٰ الدين كله، هاتان الصفتان هما: الإيمان بالله والأعمال الصالحة»(٢).

ولكن ما هو ذلك الإيمان الذي تنتصر به الأمة ويتحقق به وعد الله؟ وما هو العمل الصالح الذي يتحقق به وعد الله؟

إن الإيمان الذي تنتصر به الأمة ويتحقق لها ما تريد: هو الإيمان الكامل بالله

(١) تفسير القرآن العظيم- ابن كثير (٦/ ٧٧).
(٢) من لطائف التفسير (٢/ ٤٤٥).

تعالىٰ، الذي يجعل كل حياة الإنسان لله تعالىٰ؛ فهو الإيمان الذي يستغرق الإنسان كله، بخواطر نفسه، وخلجات قلبه، وأشواق روحه، وميول فطرته، وحركات جسمه، ولفتات جوارحه، سلوكه مع ربه ومع الناس جميعا يتوجه بهذا كله إلىٰ الله، ذلك الإيمان الذي هو منهج حياة كامل، يتضمن كل ما أمر الله به، ويدخل فيما أمر الله به توفير الأسباب، وإعداد العدة، والأخذ بالوسائل، والتهيؤ لحمل الأمانة الكبرىٰ في الأرض؛ وهي أمانة الاستخلاف، وهذا الإيمان يقول الله عنه: ﴿قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦٢﴾ [سورة الأنعام ١٦٢].

فالإيمان بالله تعالىٰ الذي يتحقق به الاستخلاف ليس كلمة تقال ولكنه عمل وإعداد واستعداد للاستخلاف، فإذا لم يكن مع ذلك الإيمان الذي يقال باللسان ويعتقد به في القلب، عمل وإعداد واستعداد فلن يتحقق ذلك الاستخلاف.

أما العمل الصالح الذي يتحقق به الاستخلاف: فهو ما ينتج عن التصديق والإيمان بالله تعالىٰ من أعمال صالحة، وقيد الله تعالىٰ الأعمال بالصالحة لأن هناك أعمالًا تؤدي إلىٰ الاستخلاف وهي مخالفة للإيمان فلن يحصل بها الاستخلاف. فيجب أن يكون العمل موافقًا للشرع ويكون العمل لله وحده وليس من أجل عرض من أعراض الدنيا.

ودائما يقرن الله تعالىٰ بين الإيمان والعمل والاشتراط في العمل أن يكون صالحا، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡكَبِيرُ ١١﴾ [سورة البروج ١١]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا ٩٦﴾ [سورة مريم ٩٦] والآيات في ذلك كثيرة.

ولكن السبب في هذا الارتباط هو أنه لا إيمان كامل إلا بالعمل ولا عملَ مقبولٌ إلا إذا كان صالحًا، وأيضا لا عمل صالح إلا إذا كان عن إيمان بالله. فهما متلازمان لا ينفك أحدهما عن الآخر.

فإذا حصل هذا الإيمان والعمل الصالح ما الذي سيحصل؟

سيحصل وعد الله وهو كما قال تعالىٰ: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾.

ولكن ما حقيقة؟ وما معنىٰ الاستخلاف في الأرض؟ وما معنىٰ تمكين الدين؟ وما معنىٰ تبديل الخوف بالأمن؟ وما سبيل المحافظة علىٰ هذا الموعود؟ هذا ما نعرفه في المبحث التالي:



المبحث الثاني
حقيقة الاستخلاف

الاستخلاف: «هو النيابة عن الغير إما لغيبة المنوب عنه أو لعجزه أو لموته أو لتشريف المستخلف. والمعنىٰ هنا لتشريف المستخلف فقد استخلف الله عباده الصالحين في الأرض لتشريفهم وتكريمهم»[(١)].

هذا الاستخلاف ذكره الله في مواضع من القرآن فقال تعالىٰ: ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ [سورة الأعراف ١٢٩]. وقوله تعالىٰ: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾﴾ [سورة القصص ٥-٦]. وعلىٰ هذا فإن المقصود من قوله تعالىٰ: ﴿كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ «يعني بني إسرائيل إذ أهلك الله الجبابرة بمصر وأورثهم أرضهم وديارهم»[(٢)].

وهذا الاستخلاف عام للصحابة وغيرهم، أي: أن التمكين المذكور في الآية ليس خاصًا بالصحابة رضي الله عنهم فقط كما ذكره بعض العلماء، ولكنه عام في كل من تتوفر فيه الصفتان. «فصح أن الآية عامة لأمة محمد ﷺ غير مخصوصة»[(٣)].

ويجب التنبيه علىٰ أن الاستخلاف ليس مجرد الملك والقهر والغلبة والحكم،

---

(١) مفردات الراغب (ص١٥٦).
(٢) الجامع لأحكام القرآن (١٢/ ٢٩٩).
(٣) الجامع لأحكام القرآن (١٢/ ٢٢٩).

بل هو مع هذه الأمور كلها، القدرة علىٰ الإعمار والإصلاح في الأرض، لا علىٰ الهدم والإفساد، وهو القدرة أيضا علىٰ تحقيق العدل والطمأنينة، لا علىٰ الظلم والقهر.

هذا هو الاستخلاف الذي يريده الله ووعد به عباده ﴿كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ ليحققوا المنهج الذي يريده الله، ويقرروا العدل الذي أمر الله، ويسيروا بالبشرية خطوات في طريق الكمال المقدر لها يوم أنشأها، فأما الذين يملكون فيفسدون في الأرض، وينشرون فيها البغي والجور فهؤلاء ليسوا بمستخلفين في الأرض إنما هم مبتلون بما هم فيه، أو مبتلىٰ بهم غيرهم.

وهذا الاستخلاف اختبارٌ من الله، قال تعالىٰ: ﴿ثُمَّ جَعَلۡنَٰكُمۡ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لِنَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ ١٤﴾ [يونس ١٤] أي: «ثم جعلناكم أيها المخاطبون بشريعة محمَّد ﷺ خلفاءَ في الأرض تصلحون ولا تفسدون، من بعد أن أهلكنا المكذبين قبلكم، الذين تسمعون أخبارهم وتشاهدون آثارهم.

﴿لِنَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ ١٤﴾ أي: استخلفناكم من بعدهم لنعلم واقعًا منكم وموجودٌ؛ أيَّ عمل تعملون خيرًا كان أو شرًّا. والمراد: أنه تعالىٰ يعاملكم معاملة من يختبر ليظهر من أمركم، ما علم أزلا أنه سيحدث منكم باختياركم لتقوم به الحجة عليكم، فيجازيكم علىٰ ما صدر منكم.

وأُسلوب الآية يشعر باستمالة المخاطبين نحو الإيمان، إذ الأصل أَن يكون الاستخلاف بعد اختيار، فإذا شعر المخاطب أَنه اختير لما استخلف فيه، لَانَ قلبهُ وانجذبتَ نفسه نحو القيام بعمل الصالحات»[(١)].

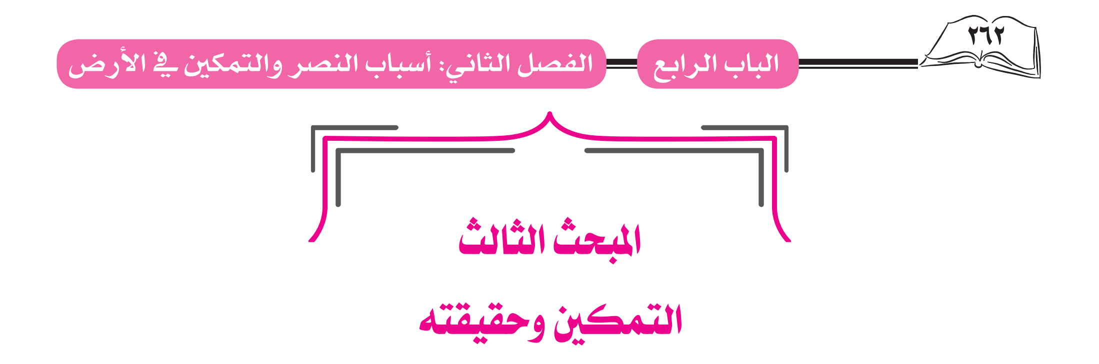
والاستخلاف إنعامٌ يمتن الله به علىٰ الناس: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمۡ خَلَٰٓئِفَ ٱلۡأَرۡضِ وَرَفَعَ بَعۡضَكُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡ﴾ فهذا من «التذكير بالإنعام عليهم

(١) التفسير الوسيط- الأزهر (٤/ ٦٢) باختصار.

بالاستخلاف، وفي سورة الأعراف بتأكيد الاثنين لأنه في حكاية ما وقع لبني إسرائيل من إسراعهم في الكفر ومبادرتهم إليه واستحقاقهم علىٰ ذلك العقوبة، وجاء ذلك علىٰ طريق الاستئناف علىٰ تقدير أن قائلًا قال: حينئذ يسرع العالي إلىٰ عقوبة السافل! فأجيب بأن الله فوق الكل وهو أسرع عقوبة، فهو قادر علىٰ أن يسلط الوضيع أو أحقر منه علىٰ الرفيع فيهلكه؛ ثم رغب بعد هذا الترهيب في العفو بأنه علىٰ غناه عن الكل أسبل ذيل غفرانه ورحمته بإمهاله العصاة وقبوله اليسير من الطاعات، بأنه خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور منافع لهم ثم هم به يعدلون! ولولا غفرانه ورحمته لأسرع عقابه لمن عدل به غيره فأسقط عليهم السماوات وخسف بهم الأرضين التي أنعم عليهم بالخلافة فيها، وأذهب عنهم النور وأدام الظلام، فقد ختم السورة بما به ابتدأها، فإن قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ﴾ هو المراد بقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾ [الأنعام: ٢]، وقوله: ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ١٦٤]، هو معنىٰ قوله: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ۝١﴾ [الأنعام: ١]، والله الموفق»[1].



(١) نظم الدرر- البقاعي (٧/ ٣٤٦).



المبحث الثالث

التمكين وحقيقته

التمكين: «التثبيت، أي يجعل لهم ملكهم ثابت مستقر، ليس عارضا، **ماداموا متمسكين بالإيمان والعمل الصالح**، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾ [سورة الرعد ١١]»[(١)].

وقال تعالىٰ: ﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [سورة الأعراف ٩٦]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدۡ كَتَبۡنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعۡدِ ٱلذِّكۡرِ أَنَّ ٱلۡأَرۡضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ١٠٥﴾ [سورة الأنبياء ١٠٥] وقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ٧﴾ [سورة محمد ٧].

فهذه النصوص وغيرها تدل علىٰ أن التمكين لن يكون؛ إلا إذا تمسك أصحاب الحق بحقهم، وقاموا به حق القيام، وعملوا علىٰ تحقيق ذلك التمكين، وذلك لن يكون إلا بالإيمان والعمل.

وتمكين الدين إنما يكون بتمكينه في القلوب، كما يتم بتمكينه في تصريف الحياة وتدبيرها، فقد وعدهم الله إذًا أن يستخلفهم في الأرض، وأن يجعل دينهم الذي ارتضىٰ لهم هو الذي يهيمن علىٰ الأرض، ودينهم يأمر بالإصلاح ويأمر بالعدل، ويأمر بالاستعلاء علىٰ شهوات الأرض، ويأمر بعمارة هذه الأرض، والانتفاع بكل ما أودعها الله من ثروة، ومن رصيد، ومن طاقة، مع التوجه بكل نشاط فيها إلىٰ الله.

---

(١) تفسير سورة النور (٤٧٢).

عن أبي بن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «**بَشِّر هذه الأمة بالنصر والسناء والتمكين في الأرض، فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا، لم يكن له في الآخرة نصيب**»[(١)].

ومن التمكين لهم في الأرض:

١- نصرهم بالرعب: فقد ثبت عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**أعطيت خمسا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي نصرت بالرعب مسيرة شهر....**»[(٢)]، قال ابن حجر: «أي أن الله ألقىٰ في قلوب عدوه الرعب فنصره الله به»[(٣)].

٢- انتشار الدين في القبائل والأمم وكثرة متبعيه ﷺ[(٤)].

٣- يأتيهم الناس في قعر دارهم بخيراتهم وكنوزهم ومقاليد أمرهم «كما أورث الله القوم الذين كانوا يستضعفون من بني إسرائيل مشارق الأرض ومغاربها، وأورثهم بلاد فرعون وأموالهم وزروعهم وثمارهم وكنوزهم»[(٥)].

٤- أن يستغني المسلمون فلا يكادون يحتاجون لغيرهم إلا علىٰ وجه المبادلة والمساواة.

٥- أن تخافهم أمم الأرض وتهاب سطوتهم، وتقدر كلمتهم.

---

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه (٤٠٥) وأحمد في المسند (٢١٢٥٨) والحاكم في المستدرك (٤/ ٣٤٦) ح (٧٨٦٢)، وقال «صحيح الإسناد ولم يخرجاه». قال في مجمع الزائد (١٠/ ٢٢٠): «رجال أحمد رجال الصحيح». وصححه الألباني (٢٨٢٥) في صحيح الجامع.

(٢) أخرجه البخاري كتاب المساجد باب الأرض مسجدا وطهورا (٤٢٧)، ومسلم كتاب المساجد ومواضع الصلاة (٥٢٣).

(٣) انظر فتح الباري (١/ ٤٢٧).

(٤) التحرير والتنوير (١٨/ ٢٨٧).

(٥) تفسير القرآن العظيم- ابن كثير (٥/ ١٢٦).

٦- تأويل الرؤيا كما في قصة يوسف عليه السلام[(١)].

٧- الصبر وتدمير مقومات الأعداء[(٢)].

٨- التمكين المطلق غير المحدود وهو إعطاء المقدرة علىٰ التصرف[(٣)].

٩- ذهاب أحوال الجاهلية وصلاح أحوال الأمة[(٤)].

١٠- «تقوية التصرف في منافع الأرض، والاستظهار بأسباب الدنيا؛ بأن يكون في منعةٍ من العدو، وفي سعةٍ في الرزق، وفي حسن حالٍ»[(٥)].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن- القرطبي (٩/ ١١٢).
(٢) معالم التنزيل- البغوي (١/ ٢٧٣).
(٣) المحرر الوجيز (١/ ٥٥١)، والتحرير والتنوير (١/ ٢٥٧٢).
(٤) التحرير والتنوير (١/ ١١٠٧).
(٥) التحرير والتنوير (١/ ١٢٤٨).

المبحث الرابع
تبديل الخوف بالأمن

التبديل: «جعل الشيء مكان الشيء»[(١)].

قال تعالىٰ: ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ﴾ أي: «وعدهم الله أن يبدلهم أمنا من بعد خوفهم، حيث كان الواحد منهم لا يتمكن من إظهار دينه إلا أوذي من الكفار»[(٢)].

وذلك كما قال رسول الله ﷺ لعدي بن حاتم رضي الله عنه حين وفد عليه: «**أتعرف الحيرة؟**» قال: لم أعرفها، ولكن قد سمعت بها!!. قال: «**فوالذي نفسي بيده، ليتمن الله هذا الأمر حتىٰ تخرج الظعينة من الحيرة حتىٰ تطوف بالبيت في غير جوار أحد، ولتفتحن كنوز كسرىٰ بن هرمز**» قلت: كسرىٰ بن هرمز؟ قال: «**نعم. كسرىٰ بن هرمز، وليبذلن المال حتىٰ لا يقبله أحد**». قال عدي: «فهذه الظعينة تخرج من الحيرة فتطوف بالبيت في غير جوار أحد، ولقد كنت فيمن افتتح كنوز كسرىٰ بن هرمز، والذي نفسي بيده، لتكونن الثالثة لأن رسول الله قد قالها»[(٣)].

وقال تعالىٰ ممتنًّا علىٰ قريش: ﴿فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ ٣ ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ ٤﴾ [سورة قريش ٣-٤].

والأمن الذي وعد الله تعالىٰ به أيضًا عباده المؤمنين يكون في الآخرة كما يكون في الدنيا قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ٨٢﴾

---

(١) تفسير سورة النور (٤٧٣).

(٢) تيسير الكريم الرحمن-السعدي (٥٢١).

(٣) أخرجه البخاري كتاب المناقب باب علامات النبوة في الإسلام (٣٥٩٥).

[سورة الأنعام ٨٢]. فوعدهم الله تعالىٰ بالأمن في يوم الفزع؛ يوم القيامة؛ يوم العرض علىٰ الله تعالىٰ.

والأمن أيضًا يكون في القلوب حين يعرف القلب الهدىٰ من الضلال، والنور من الظلمات كما قال تعالىٰ: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [سورة الأنعام ١٢٢]. فوعدهم الله تعالىٰ بالأمن بالقلوب بمعرفة الحق والاطمئنان إليه.

وكما أن الأمن لا يأتي إلا بالإيمان والعمل الصالح - كما في الآيات- فإن له أيضا أسبابًا مادية تكون معه ولا تنفك عنه، فلا الإيمان والعمل الصالح وحده يأتيان بالأمن؛ ولكن أيضا يجب العمل بالأسباب، ولا الأسباب وحدها تجلب الأمن ولكن لا بد أن يكون معها الإيمان والعمل.

وهذه الأسباب تتمثل في بذل أقصىٰ الجهد في نشر دين الله تعالىٰ والدفاع عنه، حتىٰ ولو كان هذا الجهد قليلًا بالنسبة لما عند الكفار وأعداء الله، ولكن الله تعالىٰ يبارك هذا الجهد ولذا قال تعالىٰ: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [سورة الأنفال ٦٠]، وقال: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾﴾ [سورة البقرة ١٩٣]. وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾﴾ [سورة محمد ٧].

وإذا لم يحصل هذا الجهاد وهذا القتال وهذا التدافع لم يحصل الأمن بل سيستمر الفساد ويزداد ويستمر القتل والهدم وينعدم الأمن كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾﴾ [سورة البقرة ٢٥١] وقال: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ

وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾﴾ [سورة الحج٤٠].

ومن هنا جاء بيان السبب في ظهور أعداء الإسلام علىٰ المسلمين، فعندما ترك المسلمون أو ابتعدوا عن أسباب الأمن المادية والمعنوية ظهر عليهم عدوهم وسامهم سوء العذاب، فأعداء الله من يهود وغيرهم ضرب الله عليهم الذلة والمسكنة إلا أن يمهلهم الله أو يكون بسبب بعدنا نحن عن منهج الله فتحصل لهم القوة والظهور قال تعالىٰ: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [سورة آل عمران ١١٢]. فهم انتصروا علينا لا لأنهم أجدر بالنصر بل لأننا أجدر بالهزيمة، والله المستعان.

فإذا طلبنا الاستخلاف والتمكين والأمن فعلينا بالإيمان والعمل الصالح بكل ما تحمله كلمة عمل من معاني وبذل الجهد: ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾﴾ [سورة يوسف ٢١].





المبحث الخامس
سبيل المحافظة على الموعود

«وفي ختام الآية أوضح الله ﷻ ما يطلب من أمة محمد ﷺ كي تدوم عليها النعمة وتحفظ من الزوال فقال تعالىٰ: ﴿يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ۝٥٥﴾ أي: ستظل أمة الإسلام متمتعة بوعد الله ونعمة النصر، والتمكين والأمن، ما داموا يعبدون ربهم ولا يشركون به شيئا، لكن إذا عادوا للكفر، فقد نقضوا العهد، وإذ ذاك فقد خسروا وعدنا لهم بالنصر والتمكين والأمن»[1].

وهذا تأكيد من الله تعالىٰ علىٰ أهمية الالتزام بالمنهج الحق الذي هو السبيل إلىٰ الاستخلاف في الأرض، ومن ترك هذا المنهج بعد تبين الحق له واستخلاف الله له فأولئك هم الكافرون بنعمة الله المستحقون لإزالة نعمة الاستخلاف عنهم.

«وجملة: ﴿لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗا﴾ تقييد للعبادة بعدم الإشراك، لأن المشركين قد يعبدون الله ولكنهم يشركون معه غيره، وفي هاتان الجملتان ما يؤيد ما قلناه آنفا من كون الإيمان هو الشرط في كفالة الأمة هذا الوعد»[2] ويشهد لذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا يُؤۡمِنُ أَكۡثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشۡرِكُونَ ۝١٠٦﴾ [سورة يوسف ١٠٦].

ثم يقول الله تعالىٰ: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ۝٥٦﴾.

وهذا أيضا تأكيد من الله تعالىٰ علىٰ أهمية الالتزام بعبادته، وطاعة رسوله ﷺ، التي هي سبيل إلىٰ نجاة المسلمين ممّا هم فيه من الضيق والأذية والخوف في جميع جوانب حياتهم.

(١) من لطائف التفسير (٢/ ٤٤٦).
(٢) التحرير والتنوير (١٨/ ٢٨٨).

فاتِّباع الرسول ﷺ وطاعته رحمة للناس في الدنيا والآخرة، فهو رحمة في الدنيا لأن دين الله شامل لكل مناحي الحياة، وينظمها ويشرع ما فيه صلاح معاش الناس في يسر وسهولة، وأيضًا يكفل النجاة في الآخرة من عذاب الله ولذا فإنه رحمة للناس في الآخرة، والدار الحقيقية.

ثم يقول الله تعالىٰ: ﴿لَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ وَلَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ٥٧﴾.

والخطاب هنا للرسول ﷺ، تسليةٌ له ولأصحابه، ووعدٌ لهم بأن الله ناصرهم، وأن أعدائهم مصيرهم النار وبئس ذلك المصير، وهذا تنبيه للأمة كلها، ووعد للأمة كلها كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَن يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لِلۡكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ سَبِيلًا ١٤١﴾ [سورة النساء ١٤١].

فإذا استقمت علىٰ المنهج فلا عليك من قوة الكافرين، فما هم بمعجزين في الأرض، وقوتهم الظاهرة لن تقف لكم في طريق، وأنتم أقوياء بإيمانكم، أقوياء بنظامكم، أقوياء بعدتكم التي تستطيعون.

إنه ما من مرة سارت الأمة علىٰ نهج الله، وحَكَّمت هذا النهج في الحياة، وارتضته في كل أمورها إلا تحقق وعد الله بالاستخلاف والتمكين والأمن، وما من مرة خالفت هذا المنهج إلا تخلفت في ذيل القافلة، وذلت، وطردوا من الهيمنة علىٰ البشرية، واستبد بها الخوف وتخطفها الأعداء.

ألا إن وعد الله قائم، ألا وإن شرط الله معروف، فمن أراد الوعد فليقم بالشرط، ﴿وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١١١﴾ [سورة التوبة ١١١].

وفي تهوين الله لأمر الكافر مهما حصل له من العز والتمكين في الدنيا تسلية لعباده

المؤمنين المستضعفين بأنهم لا بد لهم من الصبر وحسن الظن به مهما ألمت بهم الأمور، وكثرت عليهم الخطوب فإن مرد ذلك إلىٰ أعمالكم.

وما شأنهم بالنسبة لأمر الله إلا كلمح البصر فيصبح العزيز ذليلًا، والغالب مغلوبًا، فقوله تعالىٰ: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾ [سورة القمر ٤٥] نزل في مكة حين كان المسلمون مستضعفين في مكة لا حول لهم ولا قوة إلا بالله العزيز الجبار سبحانه، فصبروا لأمر الله وعلىٰ أمر الله ولم يستعجلوا فما هي إلا أيام وشهور ويتحول الموقف وتدور الدائرة علىٰ الكافرين، **فما أهون الخلق علىٰ الله إذا هم عصوه**[1].



(١) روي عن أبي الدرداء رضي الله عنه بلفظ: «ما أهون الخلق علىٰ الله إذا هم تركوا أمره». أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء (١/ ٢١٧-٢١٨)، وسعيد بن منصور في سننه (٢٦٦٠)، وابن أبي الدنيا في العقوبات (ص١٩)، والفزاري في السير (ص١٤٢)، وإسناده صحيح، انظر: الجواب الكافي لابن القيم (ص٢٧).

الفصل الثالث

أدب الطاعة للرسول ﷺ واحترام ولي الأمر

قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٦٤﴾﴾.

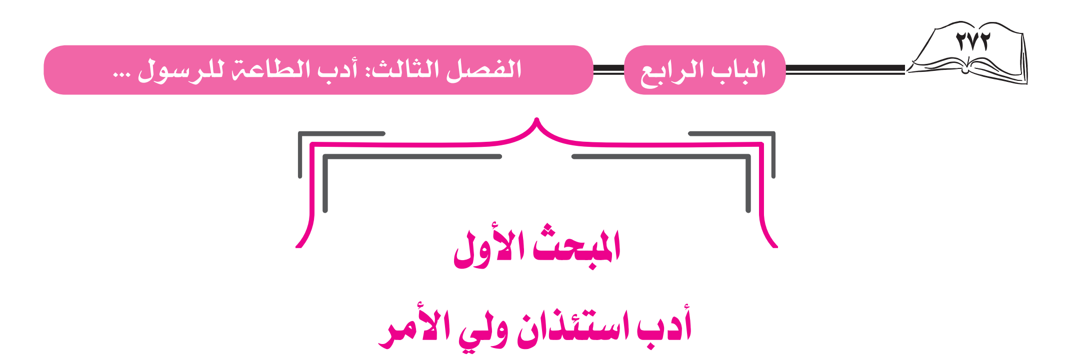
بعد هذا العرض للنظام الذي رسمه الله تعالىٰ للمجتمع المؤمن بالله تعالىٰ، يأتي التنبيه مرة أخرىٰ علىٰ الالتزام بطاعة الله ورسوله، ولكن الأمر هنا يختلف في نوع القضية التي يأمر الله تعالىٰ فيها بالالتزام بطاعة رسوله، فكل ما مضىٰ من الأمر بطاعة الرسول كان عامًا في كل شيء، أما هنا فالأمر الشديد بالطاعة عند الاجتماع علىٰ الأمر الهام جدا المؤثر في حياة الأمة كلها، مع التنبيه علىٰ حسن خطاب الإمام والتذكير بمراقبة الله تعالىٰ.

وإليك بيان ذلك في ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: أدب استئذان ولي الأمر.

المبحث الثاني: أدب خطاب الإمام.

المبحث الثالث: تحذير وتذكير.



المبحث الأول

أدب استئذان ولي الأمر

قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾﴾

فقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ «أي: لا يكتمل إيمان من آمن بالله والرسول إلا بأن يكون من الرسول سامعا»[١].

فهذه الآية تنظم العلاقة بين الناس وبين قائدهم وأميرهم وولي أمرهم، لكي يصلح حال الأمة، من كل الجوانب، وليس من جانب واحد فقط.

وقد أخرج ابن إسحاق والبيهقي عن عروة ومحمد بن كعب رحمهما الله قالا: لما أقبلت قريش عام الأحزاب نزلوا بمجمع الأسيال، قائدهم أبو سفيان، وأقبلت غطفان حتىٰ نزلوا إلىٰ جانب أحد، وجاء رسول الله ﷺ الخبر، فضرب الخندق علىٰ المدينة، وعمل فيه، وعمل المسلمون فيه، وأبطأ رجال من المنافقين، وجعلوا يورون[٢] بالضعيف من العمل، فيتسللون إلىٰ أهليهم بغير علم من رسول الله، ولا إذن، وجعل الرجل من المسلمين إذا نابته النائبة من الحاجة التي لا بد منها، يذكر ذلك لرسول الله ﷺ ويستأذنه باللحوق بحاجته فيأذن له، فإذا قضىٰ حاجته رجع فأنزل الله

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٢/ ٣٢٠).

(٢) بفتح الواو، وتشديد الراء، أي: يستترون.

في أولئك من المؤمنين ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ...﴾»(١)

«وهذا أيضا أدب أرشد الله عباده المؤمنين إليه، فكما أمرهم بالاستئذان عند الدخول، كذلك أمرهم بالاستئذان عند الانصراف، لا سيما إذا كانوا في أمر جامع مع الرسول ﷺ، من صلاة جمعة أو عيد أو جماعة أو اجتماع لمشورة ونحو ذلك، أمرهم الله تعالىٰ ألا ينصرفوا عنه والحالة هذه إلا بعد استئذانه ومشاورته وإن من يفعل ذلك فهو من المؤمنين الكاملين.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾: يثني الله علىٰ الذين يتمسكون بذلك الأدب وبهذا الخلق الاجتماعي الرفيع خاصة الصحابة الذين تأدبوا بهذا الأدب الكريم، فامتازوا بذلك علىٰ المنافقين.

ثم أمر الله رسوله ﷺ إذا استأذن أحد منهم في ذلك أن يأذن له، إن شاء، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾﴾»(٢).

وفي أمر الرسول ﷺ للاستغفار لمن استأذنه وأذن له دليل علىٰ أن عدم الانصراف هو الأولىٰ وأن الاستئذان والذهاب فيهما تقصر أو قصور في أداء الواجب الذي تجتمع فيه الأمة، قال تعالىٰ: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾.

«والاستئذان وإن كان لا يخلوا من حاجة إلا أن فيه شيئا من إيثار حاجة المستأذن الخاصة علىٰ أمر الله ورسوله، وحاجة المسلمين العامة، فكان صاحبه من هذه الناحية

---

(١) أخرجه ابن إسحاق (٢/ ٢١٦)، (٢١٩) سيرة ابن هشام، والبيهقي في الدلائل (٣/ ٤٠٩) انظر: الدر المنثور (١١/ ١٢٥).

(٢) تفسير القرآن العظيم- ابن كثير (٦/ ٨٨).

محتاج إلىٰ الاستغفار، وقيل: إن الأمر بالاستغفار لهم تطييبًا لخواطرهم حيث تأدبوا بأدب الله ورسوله فلم يذهبوا لحاجتهم إلا بعد الاستئذان»[١]، وكلا المعنيين مرادٌ بلا إشكال.

«وظاهر الآية يقتضي أن يستأذن أمير الإمرة الذي هو في مقعد النبوة، فإنه ربما كان له رأي في حبس ذلك الرجل لأمر من أمور الدين»[٢] أو حاجة ومصلحة العموم.

«وهذه الآية أصل من نظام الجماعات في مصالح الأمة، لأن من السنة أن يكون لكل اجتماع إمامٌ[٣] ورئيسٌ يدير أمر ذلك الاجتماع.

وأيضا من السنة ألا يجتمع جماعة إلا أمروا عليهم أميرًا، فالذي يترأس الجمع هو قائمٌ مقام ولي الأمر، فهو في مقام النبي فلا ينصرف أحد عن اجتماعه إلا بعد أن يستأذن، وكذلك أيضا التخلف عند الدعوة إلىٰ الاجتماع علىٰ الأمر الجامع»[٤].

فهذا الأدب النبيل وهو القيام بالواجب وعدم الفرار منه من الآداب الإسلامية النبيلة التي تدل علىٰ أن الإسلام دين العمل والنظام والالتفاف حول الأهداف النبيلة الفاضلة التي بها يرقىٰ المجتمع ويرتفع عن كل ما يقف أمام طريقه إلىٰ حياة سعيدة في كل الجوانب.



(١) تفسير سورة النور (٥٢٣).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (١٢/ ٣٢٠).

(٣) لحديث أنَّ رسول الله ﷺ قال (إذا كان ثلاثةٌ في سفرٍ فليؤمروا أحدهم) أخرجه أبوداود كتاب الجهاد باب القوم يسافرون ح (٢٦٠٨) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٠٠).

(٤) التحرير والتنوير (١٨/ ٣٠٨).

المبحث الثاني
أدب خطاب الإمام

ثم يأتي أدب آخر من آداب الإسلام في خطاب الإمام المسلم فيقول تعالىٰ: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾.

أي «لا تحسبوا دعاءه ﷺ عليكم كدعاء بعضكم علىٰ بعض، فتعرضوا لسخطه، ودعاءه عليكم بمخالفة أمره والرجوع عن مجلسه بغير استئذان»(١) هذا المعنىٰ قال به بعض العلماء، وعليه فتكون الآية متصلة بالحكم السابق، وفيها زيادة التحذير من مخالفة أمر الرسول ﷺ ويلحق به ولي الأمر، وان دعائهما ليس كدعاء آحاد الناس.

وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «كانوا يقولون: يا محمد، يا أبا القاسم، فنهاهم عن ذلك إعظاما لنبيه، فقالوا: يا نبي الله، يا رسول الله»(٢).

وقال قتادة: أمرهم أن يشرفوه ويوقره.

وقال مجاهد: قولوا يا رسول الله في رفق ولين»(٣). والظاهر استمرار ذلك الأدب بعد وفاته إلىٰ الآن»(٤)، وعلىٰ هذا القول فهذه الآية مثل قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾﴾ [سورة الحجرات ٢].

---

(١) روح المعاني (١٨/ ٢٢٤).
(٢) الدر المنثور (١١/ ١٢٧) نقلا عن ابن أبي حاتم (٧/ ٢٦٥٤).
(٣) الجامع لأحكام القرآن (١٢/ ٣٢٢).
(٤) روح المعاني (١٨/ ٢٢٥).

إن غرس مهابة الإمام في القلوب هو مما يثبت الأمن والاحترام والنظام، ومن ثم فلا يجوز أن يكون خطابك للإمام كخطابك لعامة الناس.

ففي هذه الآية يلفت الله ﷻ نظر المؤمنين إلىٰ ضرورة توقير الرسول ﷺ عند الاستئذان، وفي كل الأحوال: فلا يدعىٰ باسمه، أو كنيته، كما يدعوا المسلمون بعضهم بعضا، وإنما يدعىٰ بتشريف الله له: يا نبي الله، أو يا رسول الله! فلا بد من التوقير لرسول الله حتىٰ تستشعر توقيره في كل كلمةٍ منه وكل توجيهٍ.

وهذه لفته ضرورية، فلا بد للمربي من وقارٍ، ولا بد للقائد من هيبةٍ، وفرق بين أن يكون هو متواضعًا لينًا هينًا، وأن ينسوا أنه مربيهم فيدعونه دعاء بعضهم لبعض، فيجب أن تبقىٰ للمربي منزلة في نفوس من يربيهم يرتفع بها عليهم في قرارة شعورهم، ويستحيون هم أن يتجاوزوا معها حدود التبجيل والتوقير.

فهذه الآية تعليمٌ للأمة أن تتخلق بخلق الصبر والأناة والرفق والحلم، وألا تشق علىٰ الرؤساء في الحديث واللقاء، فإن الرئيس كثير المشاغل عظيم المهام، لا يتسع وقته لها جمعًا، ولا يمكن أن يكون وقته موزعًا وفق أهواء الناس ومطالبهم، فعليهم أن يدعوا له وقته ليصرفه فيما يراه خيرًا لجماعته، ولا يتأولون من ذلك ولا يظنون به الظنون فإنما تلك من ضرورات تنظيم الأعمال، ولا بد من النزول علىٰ حكمها حتىٰ لا تفوت المصالح باضطراب الأوقات وخلل تنظيمها.

المبحث الثالث
تحذير وتذكير

قال تعالىٰ: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٤﴾﴾.

يحذر الله الذين يتسللون ويذهبون بدون إذن بقوله تعالىٰ: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا﴾: «قد هنا لتحقيق الخبر، لأنهم يظنون أنهم إذا تسللوا متسترين لم يطلع عليهم النبي، فأعلمهم أنه أعلم رسوله بذلك»[1].

والتسلل: الخروج خفية، ومعني يتسللون أي: يخرجون قليلا خفية.

واللواذ: أي يلوذ بعضهم ببعض من أجل ألا يراهم الرسول[2].

«فشبه تستر بعضهم ببعض عن اتفاق وتآمر عند الانصراف خفية بلوذ بعضهم ببعض، لأن الذي ستر الخارج حتىٰ يخرج كأنه سلَّ شيئا من شيء»[3].

والمعنىٰ «أن الله تعالىٰ يعلم الذين يخرجون من مجلسه عليه الصلاة والسلام، قليلًا قليلًا علىٰ خفية، يستخفي أحدهم بمن يجلس أمامه، حتىٰ يخرج بلا إذن، وهو وعيد لمخالفي أمره المنصرفين عن مجلسه دون استئذان»[4].

---

(١) التحرير والتنوير (١٨/ ٣١٠).

(٢) زاد المسير (٦/ ٦٩).

(٣) التحرير والتنوير (١٨/ ٣١٠).

(٤) من موضوعات سور القرآن-سورة النور (٩٨).

ثم يأتي التحذير الشديد لكل الأمة: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾.

«احتج الفقهاء بهذه الآية علىٰ أن الأمر للوجوب، فإن الله تعالىٰ قد حذر من مخالفة أمره وتوعد بالعقاب عليها»[1].

وإنه لتحذير مرهوب، وتهديد مرعب، فليحذر الذين يخالفون عن أمره ويتبعون غير نهجه، ويتسللون من الصف ابتغاء منفعة أو اتقاء مضرة، ليحذروا أن تصيبهم فتنة تضطرب فيها المقاييس، وتختل فيها الموازين، وينتكث فيها النظام، فيختلط الحق بالباطل، والطيب بالخبيث، وتفسد أمور الأمة وحياتها، فلا يأمن علىٰ نفسه أحد، ولا يقف عند حده أحد، ولا يتميز فيها خير من شر، ﴿أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ هذا العذاب في الدنيا أو في الآخرة أو فيهما جميعًا - والعياذ بالله تعالىٰ- جزاء المخالفة عن أمر الله، ونهجه الذي ارتضاه للحياة.

ثم يختم الله ﷻ هذه السورة بقوله: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٤﴾﴾.

يخبر تعالىٰ في ختام هذه السورة أنه يملك كل ما في السماوات والأرض وأقد أحاط علمه بما أنتم عليه من خير أو شر، وعلم جميع أعمالكم، فقد أحصاها بعلمه، وجري بها قلمه، وكتبتها عليكم الحفظة الكرام الكاتبون، ﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ﴾ أي: يوم القيامة ﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا﴾ يخبرهم بجميع أعمالهم، دقيقها وجليلها، إخبارا مطلقا، لما وقع منهم، ولما قيد علمه بأعمالهم ذكر العموم بعد الخصوص فقال: ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٤﴾﴾.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٢/ ٣٢٢).

«ما أروعها من خاتمة للسورة فقد افتتح الله ﷻ السورة بذكر عقوبات الحدود في الدنيا، واختتم السورة بذكر العقوبة في الآخرة يوم ينبئ كل العصاة بما عملوا، وما ستروه من معاصي ناسين أو متناسين أن الله جل وعلا يعلم ما هم عليه: ﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٦٤﴾﴾»[(١)].

وتختم السورة بتعليق القلوب والأبصار بالله وتذكيرها بخشيته وتقواه، فهذا هو الضمان الأخير، وهذا هو الحارس لتلك الأوامر والنواهي، وهذه هي الأخلاق والآداب، التي فرضها الله في هذه السورة وجعلها كلها سواء. والحمد لله رب العالمين.



(١) من لطائف التفسير (٢/ ٤٥٨).



الخاتمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام علىٰ إمام الغر المحجلين نبينا محمد وعلىٰ آله وصحبه ومن اتبع هداه إلىٰ يوم الدين وبعد:

هذا هو الإسلام وهذا هو شرع الله وهذا هو القرآن نور وهداية، وفهم وواقعية، ووقاية وعلاج، وتوجيه وتحذير، ووعد ووعيد، كما هو عقيدة وعبادة سواء بسواء.

شرع كامل لا نقص فيه، ولا انفصال، لا يؤخذ إلا جملة واحدة، من أخذ منه بجانب دون الآخر كان كمن لم يأخذه، فهو كالجدار المرصوص يشد بعضه بعضا ويقوم بعضه علىٰ بعض.

من خلال عرض موضوعات السورة تبين لنا: كمال وشمولية هذا الدين، وصلاحه لكل زمان ومكان، وقُدْرته علىٰ الوقوف أمام المشكلات التي حار في أسبابها وعلاجها الكثيرون، ولم يجدوا لها حلاًّ إلا في هذا القرآن الذي هو كلام الله الخالق لهذا الكون والعالم بما يصلحه ويوفر له السعادة في الدنيا والآخرة.

وباختصار شديد يمكن عرض **أهم التوجيهات الربانية في هذه السورة** التي تدل علىٰ شمول هذا الدين وكماله والنور الذي هو فيه:

أولا: إن الشريعة الإسلامية جاءت للمحافظة علىٰ الضروريات التي لا يستغني عنها إنسان، ومن هذه الضروريات: حفظ العرض، فحرم الله تعالىٰ الزنا والطرق الموصلة إليه ورتَّب علىٰ ذلك الحدود الرادعة، ونبه علىٰ سبل الوقاية من الوقوع في تلك الجرائم.

ثانيًا: ومن حفظ الله للأعراض أن حَرَّم القذف والتحدث في أعراض الناس، ورتب عليه العقوبة الرادعة في الدنيا والآخرة، ونبه علىٰ خطورته علىٰ الفرد والمجتمع من خلال قصة الإفك التي ابتلي بها رسول الله ﷺ وأهل بيته، ثم بيان ما يجب علىٰ المسلم أن يفعله عند سماع تلك الشائعات، وختم الحديث في هذا الموضوع عن مسؤولية الكلمة وأثرها علىٰ الفرد والمجتمع.

ثالثًا: جاء التنبيه علىٰ سبل الوقاية من الوقوع في مثل هذه الأمور، لأن الإسلام لا يوقع العقوبة ولا يحرم شيئًا من دواعي الفطرة إلا إذا أوجد البديل الذي ليس فيه خروجًا عن الإنسانية والبشرية، وليس فيه ضرر علىٰ الفرد والمجتمع.

ومن هذه الحلول التي جعلها الله لكي يحفظ المجتمع من الوقوع في الفواحش والمهلكات: غض البصر، والاستئذان، ولم يحرم الزينة والتزين ولكن وضع لها ضوابط، وأمر بالزواج وحثّ عليه الفرد والمجتمع، ونبه علىٰ الآداب التي يجب أن تراعىٰ داخل البيوت.

رابعًا: وضرب الله لنا في هذه السورة ثلاثة أمثال؛ مثلًا لنور الإيمان ومثلين لظلمات الكفر.

خامسًا: ثم جاء الحديث متواصلا عن نور الإيمان ومن أين يُسْتقىٰ هذا النور، وذكر ركائزه:

١. المساجد وعُمَّارها وأهميتها في المجتمع وأثر هذه البيوت علىٰ الفرد والمجتمع.
٢. التنبيه علىٰ النظر والتأمل في آيات الله لما في ذلك من نور الهداية وتقويته في القلوب.
٣. وجوب طاعة الرسول ﷺ المستلزم لطاعة الله.

سادسًا: وأتبع ذلك ببيان شبهات وأباطيل اللذين ينصرفون عن نور هذا المنهج، وحال الناس في الطاعة وواجب الرسول ﷺ تجاههم.

سابعًا: ذكر الله تعالىٰ نتائج تلك الطاعة والإيمان عن طريق بيان أسباب الاستخلاف والتمكين والأمن وصفات اللذين يحصل لهم ذلك. فالإيمان بالله تعالىٰ والعمل الصالح والأخذ بالأسباب المادية هم أسباب النصر والتمكين.

ثامنا: وختم الله الحديث في السورة عن أدب الطاعة للرسول ﷺ واحترام ولي الأمر، مع التذكير بمراقبة الله تعالىٰ.

فخاطبت هذه السورة فئات المجتمع كافة: الغني منهم والفقير، الأمير والشعب، الكبير والصغير، المتزوجون والعزاب، الرجال والنساء، الزوج والزوجة وأقاربهما، المؤمنون والكفار، الظالمون والمظلومون، كل واحد منهم بتوجيه له ولغيره حتىٰ تستقيم الحياة كلها لفئات المجتمع، ولا يظن أحد أنه خارج عن أوامر الله تعالىٰ لأي سبب من الأسباب.

كانت هذه التوجيهات وهذه الأوامر والوصايا من أجل العمل لا من أجل العلم فقط، فَفَقِهَهَا أُنَاسٌ، وتكبر وتطاول عليها آخرون، فهل يا ترىٰ من أي صنف نريد أن نكون، نسأل الله تعالىٰ أن نكون من العالمين العاملين، حتىٰ نلحق برحمة الله بمن وصفهم بأنهم ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٦٢﴾ [سورة يونس ٦٢].

التوصيات:

١. تدارس موضوعات سور القرآن من خلال اللقاءات العلمية، ودروس الحلقات والمساجد، والفعاليات التي تُعين الناس علىٰ التفهم للقرآن وتدبره، والتفكر في

آيات الله وعظمته، والإلتزام بأحكام شريعته لموافقتها حاجة الإنسان، واتساقها مع الخلق.

٢. نشر كل ما من شأنه المحافظة علىٰ البيت والمجتمع المسلم، والحرص علىٰ تحصينه من خوارم ذلك، ونشر قيم الإسلام ومبادئه الحضارية الكبرىٰ، وتربية الجيل عليها.

٣. تضمين كتب الثقافة والقصص قيم الاسلام ومثله، والتدبر للكتاب المبين، والتفكر في الكون الفسيح؛ للارتقاء بالمرء للمعالي وشريف الخلال، والطموح المنتج.

أسأل الله تعالىٰ في ختام هذا البحث أن يكون ما كتبناه وما تعلمناه حجة لنا لا علينا وأن يلهمنا العلم النافع والعمل الصالح، وأن يجعل هذا العمل حجة لنا لا علينا، وأن ينفع به كاتبه وقارئه وكل من أعان علىٰ إخراجه ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [سورة الشعراء ٨٩].

وصلىٰ الله وسلم وبارك علىٰ نبينا محمد وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.



قائمة المصادر والمراجع

١- القرآن الكريم.

٢- الإتقان في علوم القرآن - جلال الدين السيوطي- دار التراث- القاهرة.

٣- إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل- محمد ناصر الدين الألباني- المكتب الإسلامي -ط١- ١٣٩٩هـ.

٤- أسباب نزول القرآن - عليٰ بن أحمد الواحدي- دار القبلة - ط٢ (١٤٠٤هـ).

٥- الأشباه والنظائر - ابن نجيم الحنفي - دار الفكر - ط١ (١٤٠٣هـ).

٦- الأشباه والنظائر - جلال الدين السيوطي - مطبعة الحلبي- ط (١٣٧٨هـ).

٧- الإصابة في تمييز الصحابة - لابن حجر - دار الفكر لبنان.

٨- إعجاز القرآن عند شيخ الإسلام - رسالة ماجستير - محمد بن عبد العزيز العواجي - الجامعة الإسلامية - المدينة المنورة - (١٤١٤هـ).

٩- إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان - ابن القيم الجوزية - دار المعرفة - بيروت.

١٠- الأمثال القرآنية القياسية المضروبة للإيمان بالله - د: عبد الله الجربوع - الجامعة الإسلامية - ط١ (١٤٢٤هـ)

١١- أمثال ونماذج بشرية من القرآن العظيم - أحمد بن طاحون- هجر للطباعة والنشر- القاهرة - ط١ (١٤١١هـ).

١٢- أنوار التنزيل وأسرار التأويل - (تفسير البيضاوي)، لأبي الخير عبدالله بن عمر البيضاوي- دار الفكر، ١٤٠٢هـ.

١٣- أيسر التفاسير - لكلام العلي الكبير - أبو بكر الجزائري- ط١٤٠٧هـ).

١٤- البحر المحيط - محمد بن يوسف أبيٰ حيان الأندلسي - دار الفكر - بيروت - ط٢ (١٤٠٣هـ).

١٥- البداية والنهاية - الحافظ ابن كثير الدمشقي - دار الكتب العلمية - بيروت - ط١ (١٤٠٥هـ- ١٩٨٥م).

١٦- بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع - أبي بكر بن مسعود الكيساني الحنفي- دار الكتاب العربي - بيروت- ط٢ (١٤٠٢هـ).

١٧- التحرير والتنوير - محمد الطاهر ابن عاشور - الدار التونسية للنشر - ط١ (١٩٨٤م).

١٨- التفسير الكبير، مفاتيح الغيب (تفسير الفخر الرازي) - فخر الدين محمد بن عمر بن الحسن الرازي خطيب الري- دار الفكر- بيروت - ط٣ (١٤٠٥هـ).

١٩- تفسير القرآن العظيم - إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي - تحقيق سامي بن محمد السلامة - دار طيبة للنشر والتوزيع - ط١ (١٤١٨هـ-١٩٩٧م).

٢٠- تفسير القرآن العظيم-ابن أبي حاتم- ت. أسامة الطيب- مكتبة نزار مصطفي الباز -مكة المكرمة- ط١-١٤١٧.

٢١- تفسير سورة النور - د/ ناصر بن محمد الحميد - دار العليان -بيروت- ط١-١٤١٩هـ.

٢٢- التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد- أبو عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر النمري - وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية - المغرب، (١٣٨٧هـ) - تحقيق: مصطفىٰ بن أحمد العلوي، محمد عبد الكبير البكري.

٢٣- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان - عبدالرحمن بن ناصر السعدي - مؤسسة الرسالة - بيروت - ط١ (١٤١٦هـ- ١٩٩٦م).

٢٤- جامع البيان عن تفسير آي القرآن - محمد بن جرير الطبري - تحقيق د/ عبدالله التركي - مركز البحوث والدراسات الإسلامية - القاهرة -ط١ (١٤٢٢هـ ٢٠٠١م).

٢٥- جامع الترمذي - محمد بن عيسىٰ الترمذي - بيت الأفكار الدولية للنشر والتوزيع - الرياض - (١٤١٩هـ-١٩٨٩م) - اعتناء فريق بيت الأفكار الدولية.

٢٦- الجامع لأحكام القرآن - محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي - دار الكتاب العربي.

٢٧- الجواب الكافي - ابن القيم الجوزية - دار الكتاب العربي بيروت- ط٢-١٤١٤هـ.

٢٨- حاشية السندي علىٰ سنن ابن ماجة - (كفاية الحاجة في شرح سنن ابن ماجه)، تأليف: محمد بن عبد الهادي التتوي، أبو الحسن، نور الدين السندي -نشر: دار الفكر، بيروت، ط الثانية.

٢٩- خلق أفعال العباد - محمد بن إبراهيم بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي- دار المعارف السعودية - الرياض، ١٣٩٨ - ١٩٧٨ - تحقيق: د. عبدالرحمن عميرة.

٣٠- الدر المنثور في التفسير بالمأثور-لجلال الدين السيوطي-تحقيق عبد الله التركي - مركز هجر للبحوث والدراسات الإسلامية والعربية - القاهرة - ط١ (١٤٢٤هـ- ٢٠٠٣م).

٣١- دراسات في علوم القرآن - محمد بكر إسماعيل - دار المنار - ط١ (١٤١١هـ).

٣٢- الدعوة الإسلامية وأصولها ووسائلها -تأليف: أحمد أحمد غلوش، نشر: مؤسسة الرسالة- القاهرة، ط: ٢٠٠٥م.

٣٣- دلائل النبوة - أحمد بن الحسين البيهقي - دار الكتب العلمية - بيروت- ط١ (١٤٠٥هـ).

٣٤- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني - محمود الألوسي البغدادي - دار الفكر - بيروت - (١٤٠٣هـ- ١٩٨٣مـ).

٣٥- زاد المسير - عبدالرحمن بن علىٰ بن محمد الجوزي - المكتب الإسلامي - بيروت- ط٣ (١٤٠٤).

٣٦- زاد المعاد في هدي خير العباد - ابن القيم الجوزية - تحقيق وتعليق وتخريج شعيب الارنؤوط وعبدالقادر الارنؤوط - مؤسسة الرسالة - بيروت - ط٧ (١٤٠٥هـ- ١٩٨٥م).

٣٧- سبل السلام - محمد بن إسماعيل الصنعاني - تحقيق: محمد صبحي حلاق - دار ابن الجوزي- الدمام -ط٤- ١٤٢٤هـ.

٣٨- سلسلة الأحاديث الصحيحة - محمد ناصر الدين الألباني- المكتب الإسلامي - بيروت - ط٤ (١٤٠٥هـ-١٩٨٥مـ).

٣٩- سلسلة الأحاديث الضعيفة - محمد ناصر الدين الألباني -المكتب الإسلامي - بيروت - ط٤ (١٤٠٨هـ-١٩٨٨مـ).

٤٠- سنن ابن ماجة - محمد بن يزيد ابن ماجة القزويني - بيت الأفكار الدولية للنشر والتوزيع - الرياض - (١٤١٩هـ-١٩٨٩مـ) - اعتناء فريق بيت الأفكار الدولية.

٤١- سنن أبي داود - سليمان بن الأشعث السجستاني - بيت الأفكار الدولية للنشر والتوزيع - الرياض - (١٤١٩هـ-١٩٨٩مـ) - اعتناء فريق بيت الأفكار الدولية.

٤٢- سنن البيهقي الكبرىٰ - أحمد بن حسين أبو بكر البيهقي - تحقيق محمد عبدالقادر عطا - مكتبة دار الباز - مكة المكرمة - ط١٤١٤هـ-١٩٩٤م).

٤٣- سنن النسائي - أحمد بن شعيب النسائي - بيت الأفكار الدولية للنشر والتوزيع - الرياض - (١٤١٩هـ-١٩٨٩مـ) - اعتناء فريق بيت الأفكار الدولية.

٤٤- السيرة النبوية - ابن هشام - تحقيق مصطفىٰ السقا- مؤسسة علوم القرآن (دمشق بيروت) - دار القبلتين للثقافة الإسلامية - جدة.

٤٥- السيرة النبوية الصحيحة - د/ أكرم ضياء العمري - مكتبة العبيكان - الرياض - ط٣ (١٤١٨هـ- ١٩٩٨مـ).

٤٦- شرح سنن ابن ماجه - السيوطي، عبدالغني، فخر الحسن الدهلوي - قديمي كتب خانة - كراتشي.

٤٧- شرح معاني الآثار- أحمد بن محمد بن سلامة بن عبدالملك بن سلمة أبو جعفر الطحاوي- دار الكتب العلمية - بيروت - الطبعة الأولىٰ، (١٣٩٩هـ) - تحقيق: محمد زهري النجار.

٤٨- شعب الإيمان - أحمد بن الحسين البيهقي - دار الكتب العلمية- بيروت- ط١- ١٤١٠هـ.

٤٩- صحيح ابن حبان بترتيب ابن لبان - محمد بن حبان بن أحمد البستي - تحقيق شعيب الأرناؤوط - مؤسسة الرسالة - بيروت- ط٢ (١٤١٤هـ).

٥٠- صحيح الأدب المفرد للإمام البخاري - محمد ناصر الدين الألباني - دار الصديق - الجبيل - ط٢ (١٤١٥هـ).

٥١- صحيح البخاري - محمد بن إسماعيل البخاري - بيت الأفكار الدولية للنشر والتوزيع - الرياض - (١٤١٩هـ-١٩٨٩م) - اعتناء أبو صهيب الكرمي.

٥٢- صحيح الترغيب والترهيب - محمد ناصر الدين الألباني- مكتبة المعارف - الرياض -ط٥.

٥٣- صحيح الجامع الصغير وزياداته - محمد ناصر الدين الألباني - تعليق وفهرسة زهير الشاويش - المكتب الإسلامي - بيروت - ط١ (١٤٠٨هـ-١٩٨٨م).

٥٤- صحيح سنن ابن ماجة - محمد ناصر الدين الألباني - تعليق وفهرسة زهير الشاويش - المكتب الإسلامي - بيروت - ط١ (١٤٠٨هـ-١٩٨٨م).

٥٥- صحيح سنن أبي داود - محمد ناصر الدين الألباني - تعليق وفهرسة زهير الشاويش - المكتب الإسلامي - بيروت - ط١ (١٤٠٨هـ-١٩٨٨م).

٥٦- صحيح سنن الترمذي - محمد ناصر الدين الألباني - تعليق وفهرسة زهير الشاويش - المكتب الإسلامي - بيروت - ط١ (١٤٠٨هـ-١٩٨٨م).

٥٧- صحيح مسلم - مسلم بن الحجاج النيسابوري - بيت الأفكار الدولية للنشر والتوزيع - الرياض - (١٤١٩هـ-١٩٨٩م) - اعتناء أبو صهيب الكرمي.

٥٨- ضرب الأمثال في القرآن - عبد الحميد البيانوني - دار القلم.

٥٩- ضعيف سنن ابن ماجة - محمد ناصر الدين الألباني - تعليق وفهرسة زهير الشاويش - المكتب الإسلامي - بيروت - ط١ (١٤٠٨هـ-١٩٨٨م).

٦٠- ضعيف سنن الترمذي- محمد ناصر الدين الألباني - تعليق وفهرسة زهير الشاويش - المكتب الإسلامي - بيروت - ط١ (١٤٠٨هـ-١٩٨٨م).

٦١- عمارة المساجد في الشريعة الإسلامية - إبراهيم بن صالح الخضيري - وزارة الشؤون الإسلامية - الرياض - السعودية - ط١ (١٤١٩هـ)

٦٢- عون المعبود شرح سنن أبي داود- محمد شمس الحق العظيم آبادي أبو الطيب- دار الكتب العلمية - بيروت - الطبعة الثانية، (١٤١٥هـ).

٦٣- فتاوىٰ شيخ الإسلام أحمد بن تيمية - طبع بإشراف الرئاسة العامة لشؤون الحرمين.

٦٤- فتح الباري بشرح صحيح البخاري - أحمد بن علىٰ بن حجر العسقلاني - ترقيم وتبويب محمد فؤاد عبد الباقي - دار الريان للتراث - القاهرة - ط١ (١٤٠٧هـ-١٩٨٦مـ).

٦٥- فتح القدير الجامع بين فني علم الرواية والدراية من علم التفسير- محمد بن علىٰ الشوكاني - دار الوفاء للنشر والتوزيع - المنصورة - ط١ (١٤١٥).

٦٦- فقه السنة - السيد سابق - شركة منار الدولية - القاهرة - (١٤١٦هـ- ١٩٩٥م).

٦٧- فقه السيرة النبوية - محمد سعيد البوطي- دار الفكر المعاصر بيروت- ط١٠ (١٤١١هـ).

٦٨- القاموس المحيط - الفيروز آبادي - مؤسسة الرسالة - بيروت - ط٢ (١٠٧هـ- ١٩٨٧م).

٦٩- قواعد الوسائل في الشريعة الإسلامية - د/ مصطفىٰ مخدوم - دار إشبيليا للنشر والتوزيع- الرياض - ط١ (١٤٢٠هـ).

٧٠- كتاب الآداب - فؤاد بن عبد العزيز الشلهوب - دار القاسم - الرياض - ط١ (١٤٢٣هـ).

٧١- كنز العمال من سنن الأقوال والأفعال - علىٰ بن حسام الدين المتقي الهندي - مؤسسة الرسالة - بيروت - ط١٩٨٩م.

٧٢- كيف نعيد للمسجد مكانته- محمد أحمد لوح - دار الخضيري - المدينة المنورة ط١ (١٤١٨هـ).

٧٣- لسان العرب - محمد مكرم منظور - دار الصادر - بيروت - ط١.

٧٤- مجلة البيان - المنتدىٰ الإسلامي - لندن.

٧٥- مجمع الأمثال-أبو الفضل أحمد بن محمد الميداني النيسابوري- دار المعرفة- بيروت- ت: محمد محييٰ الدين عبدالحميد.

٧٦- مجمع الزوائد - علىٰ بن أبي بكر الهيثمي - دار الريان للتراث ودار الكتب العلمية - القاهرة - بيروت.

٧٧- المحرر الوجيز في الكتاب العزيز - عبدالحق بن عطية الأندلسي- مؤسسة دار العلوم- ط١ (١٣٩٨هـ- ١٩٧٧مـ).

٧٨- مختصر منهاج القاصدين- أحمد بن قدامه المقدسي - تحقيق وتخريج وتعليق محمد وهبي سليمان وعلىٰ عبدالحميد أبو الخير - دار طيبة - الرياض ط١ (١٤١٥هـ-١٩٩٤م).

٧٩- المستدرك علىٰ الصحيحين - محمد بن عبدالله الحاكم النيسابوري - تحقيق مصطفىٰ عبدالقادر عطا- دار الكتب العلمية - بيروت - ط١ (١٤١١هـ- ١٩٩٠م).

٨٠- مشكاة المصابيح -محمد بن عبدالله الخطيب-المكتب الإسلامي-بيروت- ط٣-١٤٠٥هـ-تحقيق: الشيخ الألباني.

٨١- مصباح الزجاجة في زوائد ابن ماجة - أحمد البوصيري - تحقيق د. عوض الشهري - عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة -ط١- (١٤٢٥هـ)

٨٢- مصنف عبد الرزاق - أبو بكر عبد الرزاق بن همام الصنعاني - المكتب الإسلامي - بيروت - الطبعة الثانية، (١٤٠٣هـ) - حبيب الرحمن الأعظمي.

٨٣- المصنف في الأحاديث والآثار- أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة الكوفي - مكتبة الرشد - الرياض - الطبعة الأولىٰ، ١٤٠٩ - تحقيق: كمال يوسف الحوت.

٨٤- معالم التنزيل - الحسن بن مسعود البغوي - دار طيبة للنشر والتوزيع - الرياض - ط١ (١٤٠٩).

٨٥- المعجم الكبير - سليمان بن أحمد الطبراني - مكتبة العلوم والحكم - الموصل - ط٢- ١٤٠٤هـ.

٨٦- معجم لغة الفقهاء عربي إنجليزي فرنسي- محمد رواس - دار النفائس - ط (١٤١٦هـ).

٨٧- معجم مفردات ألفاظ القرآن - الراغب الأصفهاني - دار الفكر - بيروت.

٨٨- المغني - ابن قدامه - تحقيق د/ عبدالله بن عبد المحسن التركي ود/ عبد الفتاح محمد الحلو- هجر للنشر والتوزيع - القاهرة - ط٢ (١٤١٢هـ- ١٩٩٢مـ).

٨٩- مقاصد الشريعة عند العز بن عبدالسلام/ رسالة ماجستير- جامعة الإمام محمد بن سعود- د: عمر بن ناصر بن عمر.

٩٠- المقنع - لأحمد بن محمد بن قدامة/ الشرح الكبير - عبدالرحمن بن محمد بن أحمد بن قدامة/ الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف- علىٰ بن سليمان المرداوي- ت: عبدالله بن عبدالمحسن التركي- دار عالم الكتب -ط١ (١٤٢٦هـ).

٩١- الملخص الفقهي - صالح بن فوزان بن عبد الله آل فوزان - دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع - الدمام - ط١٠ (١٤٢٠هـ- ١٩٩٩م).

٩٢- من لطائف التفسير - أحمد فرح عقيلان - دار اليقين للنشر والتوزيع - المنصورة - ط١ (١٤١٩هـ- ١٩٩٨م).

٩٣- من موضوعات سور القرآن - سورة النور - عبد الحميد محمود طهماز - دار القلم دمشق - الدار الشامية بيروت -ط١ (١٤١٢هـ-١٩٩٢م).

٩٤- المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج- أبو زكريا يحيىٰ بن شرف بن مري النووي- دار إحياء التراث العربي - بيروت - الطبعة الثانية، (١٣٩٢هـ).

٩٥- الموافقات في أصول الشريعة - لأبي إسحاق الشاطبي - مكتبة الرياض الحديثة- الرياض.

٩٦- موسوعة الآداب الإسلامية المرتبة علىٰ الحروف الهجائية - عبد العزيز فتحي السيد ندا - دار طيبة للنشر والتوزيع - الرياض - ط١ (١٤٢٤هـ- ٢٠٠٣م).

٩٧- الموسوعة الحديثية - مسند الإمام أحمد - مؤسسة الرسالة - بيروت - ط١ (١٤١٨هـ-١٩٩٧م) - بإشراف المحقق الشيخ شعيب الأرنؤوط.

٩٨- موسوعة شروح الموطأ - تحقيق: عبدالله بن عبدالمحسن التركي- مركز هجر - القاهرة -ط١ (١٤٢٦هـ).

٩٩- موطأ الإمام مالك-مالك بن أنس أبو عبدالله الأصبحي، دار إحياء التراث العربي- مصر- محمد فؤاد عبدالباقي.

١٠٠- نحو منهج شرعي لتلقي الأخبار ورواياتها - أحمد عبد الرحمن الصويان - دار السليم للنشر والتوزيع - ط٣ (١٤٢١هـ -٢٠٠٠م).

١٠١- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور - بهاء الدين إبراهيم بن عمر البقاعي - دار الكتاب الإسلامي - القاهرة - ط٢ (١٤١٣هـ).

١٠٢- النهاية في غريب الحديث-ابن الأثير- ت: طاهر احمد الزاوي ومحمود محمد الطانحي-المكتبة العلمية - بيروت.

١٠٣- وقفات تربوية مع السيرة النبوية - أحمد فريد- دار طيبة - الرياض- ط٤ (١٤٢٠هـ).

فهرس الموضوعات

